

مركز جيل البحث العلمي

مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية



ISSN 2311-5181

مجلة علمية دولية محكمة تصدر شهريا عن مركز جيل البحث العلمي
Liban - Tripoli: Branche Abou Samra P.O. Box 8 - jilrc-magazines.com - social@jilrc-magazines.com



العام الثالث - العدد 25 - نوفمبر 2016

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



المشرفة العامة: د. سرور طالبي

المؤسس ورئيس التحرير: أ. جمال بلبكي

jilrc-magazines.com - social@jilrc-magazines.com

ISSN 2311-5181

هيئة التحرير:

- أ.د. عاصم شحادة علي (الجامعة الإسلامية العالمية، ماليزيا).
د. ديبش فاتح (جامعة ٨ ماي ١٩٤٥، قالمة، الجزائر).
أ.م.د. فليح مضحي أحمد السامرائي (جامعة المدينة العالمية، ماليزيا).
د. سامية ابريغم (جامعة العربي بن مهيدي، أم البواقي، الجزائر).
أ.م.د. السيد محمد سالم سالم العوضي (جامعة المدينة العالمية، ماليزيا).
د. رضوان شافو (جامعة الشهيد حمّه لخضر، الوادي، الجزائر).
رئيس اللجنة العلمية: أ.د. علي صباغ (جامعة قسنطينة ٢، الجزائر).

اللجنة العلمية:

- د. نعموني مراد (جامعة لونييسي علي، البليدة ٢، الجزائر).
د. براك خضراء (جامعة تبسة، الجزائر).
أ.م.د. داود عبد القادر إيليغا (جامعة المدينة العالمية، ماليزيا).
د. بوزيد مومني (جامعة محمد الصديق بن يحي جيجل، الجزائر).
د. بشرى سعدي (جامعة مولاي اسماعيل، المغرب).
د. مراد علة (جامعة زيان عاشور، الجلفة، الجزائر).
د. طيب العيادي (جامعة محمد الخامس الرباط، المغرب).
د. ساسي سفيان (جامعة الطارف، الجزائر).
د. تاج الدين المناني (جامعة كيرالا، الهند).

أعضاء لجنة التحكيم الاستشارية لهذا العدد:

- د. سلطان بلغيث (جامعة تبسة، الجزائر).
د.م. إسراء كاظم الحسيني (جامعة واسط، العراق).
د. مسلم فايز أبو حلو (جامعة القدس، فلسطين).
د. أحلام نعمه لفته (الجامعة المستنصرية، بغداد، العراق).
أ.م.د. صلاح كاظم هادي العبيدي (جامعة بغداد، العراق).
د. ليلى محمد العارف (جامعة المرقب، ليبيا).
د. نوري محمد أحمد شقلابو (جامعة الزاوية، ليبيا).

التدقيق اللغوي:

- د. بوزيد مومني (جامعة محمد الصديق بن يحي جيجل، الجزائر).
د. محمد محمود محمّد الدوّخي (جامعة تكريت، العراق).

التعريف بالمجلة:

مجلة علمية دولية محكمة تصدر دورياً عن مركز جيل البحث العلمي تعنى بالدراسات الإنسانية والاجتماعية، بإشراف هيئة تحرير مشكلة من أساتذة وباحثين وهيئة علمية تتألف من نخبة من الباحثين وهيئة تحكيم تتشكل دورياً في كل عدد.

اهتمامات المجلة و أبعادها:

مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية عبارة عن مجلة متعددة التخصصات، تستهدف نشر المقالات ذات القيمة العلمية العالية في مختلف مجالات العلوم الإنسانية والاجتماعية. تعرض المجلة جميع مقالاتها للعموم عبر موقعها وكذا مركز جيل البحث العلمي، مع إضافتها لفهارس أغلب محركات البحث الجامعية، بهدف المساهمة في إثراء موضوعات البحث العلمي.

مجالات النشر بالمجلة:

تنشر المجلة الأبحاث في المجالات التالية:

علم النفس وعلوم التربية والأرطوفونيا، علم الاجتماع، الفلسفة التاريخ، علم المكتبات والتوثيق، علوم الإعلام والاتصال، علم الآثار.

تنشر مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية البحوث العلمية الأصيلة للباحثين في هذه التخصصات كافة من داخل الجامعات الجزائرية ومن خارج الجزائر مكتوبة باللغة العربية أو الفرنسية أو الإنجليزية.

شروط النشر



تقبل المجلة الأبحاث والمقالات التي تلتزم الموضوعية والمنهجية، وتتوافر فيها الأصالة العلمية والدقة والجدية وتحترم قواعد النشر التالية :

ISSN 2311-5181

- أن يكون البحث المقدم ضمن الموضوعات التي تعنى المجلة بنشرها.
- ألا يكون البحث قد نشر أو قدم للنشر لأي مجلة ، أو مؤتمر في الوقت نفسه ، ويتحمل الباحث كامل المسؤولية في حال اكتشاف بأن مساهمته منشورة أو معروضة للنشر.
- أن تحتوي الصفحة الأولى من البحث على:
 - عنوان البحث.
 - اسم الباحث ودرجته العلمية، والجامعة التي ينتمي إليها.
 - البريد الإلكتروني للباحث.
 - ملخص للدراسة في حدود 150 كلمة وبحجم خط 12.
 - الكلمات المفتاحية بعد الملخص.
- أن تكون البحوث المقدمة بإحدى اللغات التالية: العربية، الفرنسية والإنجليزية
- أن لا يزيد عدد صفحات البحث على (20) صفحة بما في ذلك الأشكال والرسومات والمراجع والجداول والملاحق.
- أن يكون البحث خالياً من الأخطاء اللغوية والنحوية والإملائية.
- أن يلتزم الباحث بالخطوط وأحجامها على النحو الآتي:
 - اللغة العربية: نوع الخط (Traditional Arabic) وحجم الخط (16) في المتن ، وفي الهامش نفس الخط مع حجم (12).
 - اللغة الأجنبية: نوع الخط (Times New Roman) وحجم الخط (14) في المتن، وفي الهامش نفس الخط مع حجم (10).
 - تكتب العناوين الرئيسية والفرعية للفقرات بحجم 16 نقطة مثلها مثل النص الرئيسي لكن مع تضخيم الخط.
- أن تكتب الحواشي بشكل نظامي حسب شروط برنامج Microsoft Word في نهاية كل صفحة.
- أن يرفق صاحب البحث تعريفا مختصرا بنفسه ونشاطه العلمي والثقافي.
- عند إرسال الباحث لمشاركته عبر البريد الإلكتروني، سيستقبل مباشرة رسالة إشعار بذلك .
- تخضع كل الأبحاث المقدمة للمجلة للقراءة والتحكيم من قبل لجنة مختصة ويلقى البحث القبول النهائي بعد أن يجري الباحث التعديلات التي يطلبها المحكمون.
- لا تلتزم المجلة بنشر كل ما يرسل إليها .

ترسل المساهمات بصيغة الكترونية حصراً على عنوان المجلة:

social@jilrc-magazines.com

الفهرس

الصفحة

- الافتتاحية 9
- أُسْرَةُ الْفَرْعَانِيَّ وَدُورَهَا فِي تَطَوُّرِ الْهَنْدَسَةِ الْمَعْمَارِيَّةِ فِي مِصْرَ الْإِسْلَامِيَّةِ [٢١-٢٩٢ هـ/٦٤١-٩٠٥ م]، د.محمود محمد السيد علي خلف/جامعة الأزهر، القاهرة، مصر. 11
- فعالية برنامج إرشادي قائم على رواية القصة وتخفيض عدد ساعات مشاهدة التلفزيون في تعديل السلوك العدوانى للطفل، د. لكحل مصطفى/جامعة سعيدة - د. بن حليم أسماء/جامعة سيدي بلعباس، الجزائر. 27
- مكانة المسن في الأسرة الحضريّة في ظل التغيرات الاجتماعية الراهنة - قراءة سوسولوجية- أ. هشام سبع/جامعة محمد البشير الإبراهيمي، برج بوعريّج، الجزائر. 49
- دور الإذاعة المحلية في التوعية المرورية أ.وليدة حدادي/جامعة محمد لمين دباغين سطيف^٢، الجزائر. 63
- الأعمال الإصلاحية للإمام المغيلي بالسودان الغربي وتأثيرها أ.عبد الكريم فايزي/جامعة الشهيد حمّة لخضر، الوادي، الجزائر. 77
- تحولات منظومة القيم وصراع المرجعيات بالمدرسة المغربية، د.امبارك بوعصب/أستاذ التعليم العالي مساعد المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين، القنيطرة، المغرب. 91
- المصادر الصوفية في مقدمة ابن خلدون: تقديم وتصنيفالبشير أبرزاق، أستاذ باحث، كلية الآداب والعلوم الانسانية، تطوان المغرب. 103
- الأركان السبعة لنظرية الميكانيزمات الدفاعية حسب فيبي كرامير Phebe Cramer الباحث ديبون محمد/جامعة وهران، الجزائر. 115
- الأمير عبد القادر في منظور رحّالة ومصالح تونسي أ.حفيظة بن دحمان/جامعة قسنطينة^٢، الجزائر. 129
- المجتمع الجزائري خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي-قراءة إثنوغرافية في المقامات العلوانية- أ.د محمد زيوش/جامعة حسيبة بن بوعلي، الشلف، الجزائر. 139

الإفتتاحية

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله الطاهرين، وعلى صادق المؤمنين وصالح المسلمين، باسمك اللهم نبتدي وبكتابك القوي نهتدي، وبرسولك الكريم نقتدي، فوفقنا يارب إلى أحسن الأقوال وأصلح الأعمال وأمددنا بروح منك وآتنا رشدنا، فما توفيقنا إلا بك وما توكلنا إلا عليك وما توجهنا إلا إليك وما علينا إلا رضاك، أما بعد:

فهذا هو العدد الخامس والعشرين من مجلة "جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية"، نقدمه إلى القراء الكرام؛ راجين أن يجدوا فيه ما يفيدهم وينفعهم في بحوثهم ودراساتهم الأكاديمية، كما نرجو أن تكون هذه المجلة نبزاً لحل إشكاليات علمية معقدة تربط العديد من المتغيرات النظرية والتطبيقية. تضمن هذا العدد كوكبةً متنوعةً من التخصصات والمجالات البحثية، وهذا ما يعكس المكانة العلمية للمجلة وأسرتها المشاركة المتنوعة من كل التخصصات العلمية في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية عامةً.

والله ولي التوفيق والنجاح
رئيس التحرير / أ. جمال بلبكاي

تخلي أسرة تحرير المجلة مسؤوليتها عن أي انتهاك لحقوق الملكية الفكرية

لا تعبر الآراء الواردة في هذا العدد بالضرورة عن رأي إدارة المركز

جميع الحقوق محفوظة لمركز جيل البحث العلمي © 2016

أُسْرَةُ الْفَرْغَانِيِّ وَدُورِهَا فِي تَطَوُّرِ الْهَنْدَسَةِ الْمِعْمَارِيَّةِ فِي مِصْرَ الْإِسْلَامِيَّةِ

[٢١-٢٩٢ هـ/٦٤١-٩٠٥ م]

د. محمود محمد السيد علي خلف/جامعة الأزهر، القاهرة، مصر

ملخص:

هذا البحث يتعلق بتاريخ إحدى الأسر العلمية التي نجحت في ترك بصمات واضحة على صفحة تاريخ مصر الحضاري؛ إنها أسرة الْفَرْغَانِيِّ التي تُنسب إلى بلاد فَرْغَانَةَ؛ إحدى أقاليم بلاد ما وراء النهر قديمًا، وإحدى مدن جمهورية أوزبكستان حديثًا. إن هذه الأسرة قد أسدت للمصريين خدمات هندسية جليلة تتمثل في تصميم مقياس للنيل على نهر مصر الخالد في الطرف الجنوبي الشرقي من جزيرة الروضة؛ والذي يعد من أهم آثار عصر الولاة (٢٥٤٢ هـ/٦٤١ - ٨٦٨ م). بالإضافة إلى تشييد قناطر المياه، وجامع أحمد بن طولون في ظل الدولة الطولونية (٢٩٢٢ هـ/٩٠٥ م)، وهي أعمال هندسية معمارية تدل على عبقرية فذة وعقل هندسي جبار. وخاتمة تتناول أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

الكلمات المفتاحية: عِلْمُ الْهَنْدَسَةِ - أُسْرَةُ الْفَرْغَانِيِّ - بلاد فَرْغَانَةَ - مقياس النيل - قناطر المياه - جامع أحمد بن طولون.

تقديم:

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى أَشْرَفِ الْمُرْسَلِينَ، وبعد: فلقد كرم الله الإنسان بصفته عاقلًا، وجاء الإسلام ورفع من شأن العقل وأعلى من مكانته، وحث على تعلم العلم، فقام عدد من العلماء المسلمين بإسهامات عديدة في مختلف المجالات العلمية على فترات متعاقبة من الزمن، كل على حسب اهتماماته سواء كانت دينية أو لغوية أو فلسفية أو اجتماعية أو علمية تطبيقية.

أما عن تعريف علم الهندسة عند علماء المسلمين، فهو: "علم يُعرف منه أحوال المقادير ولواحقها، وأوضاع بعضها عند بعض، ونسبتها وخواص أشكالها، والطريق إلى عمل ما سبيله أن يعمل بها" (1).

بينما يعرفها العلامة ابن خلدون بأنها: "النظر في المقادير إما المتصلة كالخط والسطح والجسم وإما المنفصلة كالأعداد وفيما يعرض لها من العوارض الذاتية. مثل أن كل مثلث فزواياه مثل قائمتين. ومثل أن كل خطين متوازيين لا يلتقيان في

(١) التهانوي: (محمد بن علي ابن القاضي محمد حامد بن محمد صابر الفاروقي الحنفي، المتوفى بعد عام: ١١٥٨ هـ/ ١٧٤٥ م): كشف اصطلاحات الفنون والعلوم، تحقيق: د. علي دحروج، نقل النص الفارسي إلى العربية: د. عبد الله الخالدي، الترجمة الأجنبية: د. جورج زيناني، ط ١، ج ١، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون ١٩٩٦ م ص ٥٩.

وجه ولو خرجا إلى غير نهاية. ومثل أن كلَّ خطين متقاطعين فالزاويتان المتقابلتان منهما متساويتان. ومثل أن الأربعة مقادير المتناسبة ضرب الأول منها في الثالث كضرب الثاني في الرابع وأمثال ذلك" (١).

ولعلم الهندسة أهمية كبيرة لأنها تضيء العقل ، وتعمل على استقامة الفكرة. فهي أكثر فروع الرياضيات تأثيراً في مختلف العلوم والتقنيات، فهي أساس علم الفلك. كما تستخدم في تطبيق البراهين الهندسية في علم البصريات والجبر، ومساحة الأراضي، وخاصة الأغراض المالية، ويصعب تخيل أي مبنى أو منشأة مدنية لا يحتاج إلى مساعدة علم الهندسة. إنها كما يقول ابن خلدون:- "كلها بنية الانتظام ، جليلة الترتيب ، لا يكاد الغلط يدخل أقيستها ، لترتيبها وانتظامها، فيبعد الفكر بممارستها عن الخطأ وينشأ لصاحبها عقل على ذلك ... فممارسة علم الهندسة للفكر، بمثابة الصابون للثوب الذي يغسل منه الأقدار وينقيه من الأدران" (٢).

إن علم الهندسة علم عرفه الإنسان القديم لاحتياجه الطبيعي للقياس، سواء للمساحات أو للبناء ، فهي من العلوم القديمة التي اشتهر العمل بها عند علماء اليونان والهنود والفرس وقدماء المصريين. وجدير بالذكر، أن كتاب إقليدس "الأصول" قد تُرجم إلى اللغة العربية في خلافة أبي جعفر المنصور [٣١٣ ١٥٨١ هـ/ ٧٧٥-٧٧٥ م] على يد حنين بن إسحاق، وثابت بن قرة، واختصره الشيخ الرئيس ابن سينا [٤٢٨٣٧٠ هـ/ ١٠٣٠-١٠٩٨ م] في كتابه "الشفاء" (٣).

وقد شهد هذا العلم تطوراً ملحوظاً على يد العلماء المسلمين في ظل الحضارة الإسلامية، ويرصد دونالد هيل هذا التطور، فيقول:- "وأعقت مرحلة الترجمة مرحلة الإبداع، وعلى الرغم من أن أساتذة مثل: إقليدس Euclid، وأبولونيوس البرجي Apollonius of perga ، وأرشميدس Archimedes نالوا احتراماً يبلغ حدَّ التوقير والتبجيل، إلا أن العلماء العرب لم يَمَيِّزُوا أن يُفَيِّدُوا نتائجهم بل ويصوّبونها في بعض الحالات، كذلك قدّم العلماء العرب إسهاماتٍ فدّة في مجال الهندسة النظرية" (٤).

هذا، وقد قسّم علماء المسلمين الهندسة إلى قسمين: عقلية وحسية؛ فالعقلية هي الهندسة النظرية، والحسية هي التطبيقية العملية، ولم يُضيفوا كثيراً إلى الهندسة العقلية النظرية غير أنهم شرحوها وعلقوا عليها، أمّا الاهتمام الأكبر فقد انصبَّ على الهندسة الحسية التطبيقية العملية، فطوّروها في مجالات الصناعة والعمارة والفنون والبناء إلى درجة أن كلمة "هندسة" التي كانت في الأصل تُستخدم لتدلُّ على "علم الهندسة النظرية" فقط ، أصبحت تُستخدم عادةً في اللغة العربية الحديثة بمعنى الهندسة التطبيقية.

وكان من الطبيعي أن ينقل المسلمون معارفهم الهندسية ويُطبّقوها على فِهم المعماري من مساجد وقصور ومدن وقناطر ... وغيرها، واهتمُّوا بالزخارف الهندسية التي اتّسمت بالتناسق والدقّة.

(١) ابن خلدون : (عبد الرحمن بن خلدون ، المتوفى عام : ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م) : المقدمة، تحقيق: د. علي عبد الواحد وافي، ط ١ ، ٣ ، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٦ م، ص ١٠١٧ .

(٢) نفس المصدر، نفس الجزء، ونفس الصفحة.

(٣) ابن النسيم: (أبو الفرج محمد بن إسحاق النسيم ، المتوفى عام : ٣٨٣ هـ / ٩٩٣ م) : الفهرست، تحقيق: الشيخ إبراهيم رمضان، ط ٢ ، بيروت ، دار المعرفة، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م، ص ٣٢٧ .

(٤) هيل: دونالد: العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية، ترجمة د . أحمد فؤاد باشا، ط ١ ، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، عالم المعرفة العدد (٣٠٥)، ٢٠٠٤ م، ص

• أسرة الفَرغَانِيّ:

مع أسرة علمية عملت في مجال الهندسة المعمارية لعقود طويلة، وكان لها أثر كبير في الحضارة الإسلامية عامة وحضارة مصر الإسلامية خاصة، إنها أسرة الفَرغَانِيّ.

كان على رأس هذه الأسرة العالم الفاضل أحمد بن محمد بن كثير الفَرغَانِيّ، المنسوب إلى بلاد فَرغَانَة^(١)، إحدى أقاليم بلاد ما وراء النهر، والتي تعد إحدى مدن جمهورية أوزبكستان حالياً. وقد فُتِحَت هذه البلاد على يد القائد المُظَفَّر قتيبة بن مسلم الباهلي^(٢) ٩٦٤ هـ / ٧١٥٦٦ م] في خلافة الوليد بن عبد الملك [٩٦٨ هـ / ٧١٥٧٠ م]. وإن كانت الدولة الأموية قد نجحت في نشر الإسلام بين سكانها، فإن الدولة العباسية قد استطاعت تعميق انتشار الإسلام في هذه البلاد حتى أخذت طابعاً إسلامياً واضحاً خلال القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، ومن ثم أصبحت بلاد ما وراء النهر جزءاً من كيان الدولة الإسلامية^(٣). فلا غرابة إذًا أن يشارك أبناء الفراغنة في تشييد المنشآت الحضارية في مصر الإسلامية.

للأسف الشديد، لم تمدنا مصادرنا التاريخية بشيء يذكر عن حياة الفرغاني أو رحلته العلمية، لكنها اتفقت على عظمته وعبقريته. قال ابن النديم: "كان فاضلاً منجماً مُقَدِّماً في صناعته"^(٤). وقال عنه القفطي: "كان منجماً فاضلاً صانعاً في علم الحدثن...مُقَدِّماً في صناعة النجومية"^(٥). ذاعت شهرته في خلافة المأمون العباسي^(٦) ٢١٨٩ هـ / ٨٣٣ م] وإليه يرجع الفضل في ترجمة كتاب بطليموس [الذي نبغ في القرن الثاني بعد الميلاد في مدينة الإسكندرية] والمشهور عند العرب باسم "المجسطي"^(٧) وذلك عام ٢١٨ هـ / ٨٣٣ م]، قال ابن العبري: "وقد ترجم كتاب بطليموس بأعذب لفظ وأبين عبارة"^(٨).

(١) فَرغَانَة: مدينة واسعة ببلاد ما وراء النهر، كثيرة الخيرات تُبْعَد عن سمرقند بنحو خمسين فرسخاً، يرجع بناؤها إلى الملك كسرى أنوشروان. وتمتاز بأن الجبال والصحاري تحيط بها من جميع الجهات، ومع ذلك فالمصادر تجمع على أنها ذات نعم وفيرة، ومياه جاربه، وضياع كثيرة. وفي العصر الحديث وبالتحديد في عام ١٨٧٦م وقعت فرغانة تحت الاحتلال الروسي، وأطلق عليه [خانية خوقند]. وبعد الثورة الروسية أعادت إليها الحكومة الروسية رسمياً اسمها القديم فرغانة والتي مازالت تعرف به حتى اليوم. ياقوت الحموي: (شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي، المتوفى عام: ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩م): معجم البلدان، ط ١، ج ٣، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م، ص ٧٠، لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة: بشير فرنسيس، وكوركيس عواد، ط ٢، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م، ص ٤٨٦.

(٢) د. محمود معج خلف: بلاد ما وراء النهر بين حقائق المؤرخين وأوهام المستشرقين، ط ١، القاهرة، دار المعارف، ٢٠١٥م، ص ١٣٨.

(٣) الفهرست: ص: ٣٣٩.

(٤) ابن القفطي: (أبو الحسن علي بن يوسف، المتوفى عام: ٦٢٤ هـ / ١٢٢٧م): إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ط ١، بغداد، مكتبة المثنى، ١٩١٩م، ص ٢١٧.

(٥) هي: كلمة يونانية معناها: الأكبر أو الأعظم. لأن هذا المصنّف كان حينئذ أشمل كتاب في علم الفلك، قال عنه ابن خلدون: "إنه أحسن كتاب في علم الهيئة، وقد اختصره الأئمة من حكماء الإسلام كما فعل ابن سينا وأدرجه في تعاليم الشفاء". المقدمة، ج ٣، ص ١٠١٩. وقد ترجم إلى اللغات الأوروبية على يد العلامة غوليوس الهولندي، وطبع في مدينة "أمستردام" عام ١٦٦٩م. سركيس: معجم المطبوعات، ج ١، ص ٢٥.

(٦) ابن العبري: (غريغوريوس أبو الفرج هارون الملطي، المتوفى عام: ٦٨٥هـ/١٢٨٦م): تاريخ مختصر الدول، تحقيق: أنطون صالحاني العيسوي، ط ٣، ج ١، بيروت، دار المشرق، ١٩٩٢م، ص ١٣٦.

لم تقتصر جهود الفَرَعَانِيّ على ترجمة كتاب " المجسطي " بل إنه ألف كثيرًا من الكتب التي حظيت بثناء المؤرخين ، ومنها: كتاب: " الفصول الثلاثون " ، وكتاب: " عمل الرخامات "، وكتاب: " الحركات السماوية "، وكتاب: " المدخل إلى هيئة الأفلاك وحركات النجوم " (١)، وغيرها.

كان الفَرَعَانِيّ صاحب عقلية علمية جبارة ، تقوم على الأسس العلمية ، وتؤمن بالمنهج التجريبي وتنفر من المسلمات . دليلنا على ذلك ، إنه لما وصف له السد الذي بناه ذو القرنين ، والمعروف بسد يأجوج ومأجوج (٢)، وقيل عنه: " إنه كان يصل بين جبلين ، وأن طوله نحو مائة وخمسون فرسخًا (٣) " (٤). أنكر الفَرَعَانِيّ ذلك ، وبرهن على فساد هذا هندسيًا (٥).

أما عن علاقته بمصر ، فإنه ينسب إليه بناء كثير من المشروعات الهندسية المعمارية في مصر الإسلامية ، يأتي في مقدمتها:

• مقياس النيل :

للقوف على دور الفَرَعَانِيّ في بناء هذا المقياس ، يتطلب ذلك منا أن نعود قليلاً إلى الوراء ، لنذكر المجهودات التي سبقت الفَرَعَانِيّ في تدليل نهر النيل للمصريين.

إن نهر النيل من رحمة الله تعالى على أهل مصر. فلولاها لكانت مصر صحراء جرداء ، قل أن ينبت بها زرع أو يقيم بها إنسان . فمصر-كما يقول المؤرخ اليوناني " هيرودوت " [حوالي ٤٨٠ ق. م - ٤٢٥ ق. م] - " هبة النيل " . ومع أنني لا أتفق تمامًا مع هذه المقولة ، فهي عندي تعني نصف الحقيقة لأن مصر هبة النيل والمصريين معًا. إلا أنني أؤكد على إن هيرودوت يعني أن النيل هو صانع الحياة بمصر ، فهو " من أعظم عجائب مصر الظاهرة لأعين الناس " (٦). ومن قبله قال عبد الله بن عمرو (٧): " النيل سيد الأنهار " (٨). وقال الكندي: " روى أن الله تعالى خلق نيل مصر معادلًا لجميع أهار الدنيا ومياهها وأجمع أهل

(١) مصطفى بن عبد الله حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ط ١، ج ١، ٢، بيروت، دار إحياء التراث العربي، (بدون تاريخ)، ص ١٢٦٩ ، عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين-تراجم مصنفى الكتب العربية، ط ١، ج ٢ ، بيروت، دار إحياء التراث العربي، (بدون تاريخ)، ص ١٤٥ .

(٢) انظر هذا الوصف في رسالة ابن فضلان : (أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد، المتوفى عام ٣١٢ هـ / ٩٢٤ م) : وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة ، تحقيق : محفوظ أبو بكر بن معنومة ، ط ١ ، القاهرة ، مكتبة الثقافة الدينية ، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م ، ص ٦٢ ، سلطان شمسي : رحلة ابن فضلان إلى نهر الإبتيل ، ترجمة د . سامية توفيق ، ط ١ ، القاهرة ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، ٢٠٠٧ م ، ص ٥٩ .

(٣) الفَرَسَخ : مقياس للطول يُقدَّر بثلاثة أميال (٤٨٢٧ مترًا) أو ثمانية عشر ألف قدم ، أو أربعة كيلومترات . دوزي: (رينهات): تكلمة المعاجم العربية، ترجمة د. محمد سليم النعيمي، ط ١، ج ٦، العراق، دار الرشيد ، ١٩٨٠ م ، ص ١٨٩ .

(٤) ابن خردادبه : (أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله ، المتوفى عام : ٢٣٢ هـ / ٨٤٦ م): المسالك والممالك ، تحقيق : دي جويه ، ليدن المخروسة ، بريل ، ١٨٨٩ م ، ص ١٩٣ وما بعدها .

(٥) المسعودي: (أبو الحسن علي بن الحسين، المتوفى عام : ٣٤٦ هـ / ٩٥٩ م): مروج الذهب ومعادن الجواهر ، تحقيق : مصطفى السيد بن أبي ليلي ، ط ١، ج ١ ، القاهرة ، المكتبة التوفيقية ، ٢٠٠٣ م ، ص ١٤٠ .

(٦) السيوطي: (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ، المتوفى عام : ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م): حُسن المخاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ١، ج ١، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٤١٨ هـ / ١٩٨٨ م، ص ٦٥ .

(٧) ابن عبد الحكم: (المتوفى عام: ٢٥٧ هـ / ٨٧١ م): فتوح مصر والمغرب، تحقيق عبد المنعم عامر، ط ١ ، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة الذخائر العدد (٤٩)، ١٩٩٩ م، ص: ١٧٥، ابن تغرى بردى: (أبو الحسن يوسف الأتابكي، المتوفى عام : ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ط ١، ج ١، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، طبعة مصورة عن دار الكتب المصرية، ٢٠٠٧ م، ص ٣٤ .

العلم على أنه ليس في الدنيا نهر أطول مدى من النيل^(١). وقال المسعودي: "وليس في الدنيا نهر يسمى بحرًا دائمةً غير النيل لكبره واستبحاره"^(٢).

ويطول بي المقام لو أردتُ أن أستعرض كل ما قيل عن فضائل نهر النيل. فمعظم من كتب عن مصر قديمًا وحديثًا لا بد أن يذكر نهرها الخالد وما قدمه لشعبها ، وأكتفي هنا بما ذكره المقرئ في مقدمة كتابه " المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار"، حين قال : " كانت مصر هي مسقط رأسي وملعب أترابي ، ومجمع ناسي ، ومغنى عشيرتي وحاميتي ، وموطن خاصتي وعامتي ، وجوؤجوي الذي ربي جناحي في وكره ، وعش مأربي ، فلا تهوى الأنفوس غير ذكره ، ولا زالت منذ شذوت العلم وأتاني ربي الفطان والفهم . أرغب في معرفة أخبارها . وأحب الإشراف على الاعتراف من أبارها . وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها . فقيدت بخطي في الأعوام الكثيرة ، وجمعت من ذلك فوائد قل ما يجمعها كتاب ، أو يحويها لعزتها وغرابتها إهاب"^(٣).

اعتنى المصريون منذ القدم بهذا النهر الخالد ، فأقاموا عليه مقياسًا لمعرفة مقدار الزيادة السنوية . ومن طريف ما يذكر ، أن أحد ملوك مصر الفرعونية صنع بركة وركب عليها صورتها عقاب من نحاس ذكر وأنثى يجتمع عندهما كهنتهم وعلماءهم في يوم مخصوص من السنة ويتكلمون بكلام فيصفر أحد العقابين فإن صفر الذكر استبشروا بزيادة النيل، وإن صفرت الأنثى استشعروا عدم زيادته وهيئوا ما يحتاجون إليه من الطعام لتلك السنة^(٤).

ثم أنشأت حاكمة مصر والتي تسميها المصادر التاريخية العربية " العجوز دلوكة "- مقياسين : أحدهما في مدينة [أنصنا] إسنًا^(٥)، والآخر بإخميم^(٦). وقد قدم لنا المقرئ واصفًا رائعًا عن مقياس أنصنا؛ قال عنه: " إنه من بناء دلوكة أحد من ملك مصر ، وكان كالطيلسان وفي دائرة عمد على عدة أيام السنة الشمسية ، كلها من الصوان الأحمر الماتع ، ومسافة ما بين كل عمودين ، مقدار خطوة إنسان ، وكل ماء النيل يدخل إلى هذا الملعب من فوهة عند زيادة الماء، فإذا بلغ ماء النيل الحد الذي كان إذ ذاك يحصل منه ري أرض مصر وكفايتها"^(٧). ثم عملت القبط مقياسًا آخر في قصر الشمع^(٨) عند قيسارية الصوف^(٩).

(١) الكندي: (أبو عمر محمد بن يوسف الكندي ، المتوفى عام : ٣٥٠ هـ / ٩٦١م): فضائل مصر الخروسة تحقيق د . علي محمد عمر ، ط ١ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧م، ص ٤١.

(٢) مروج الذهب، ج١، ص ٩٣.

(٣) المقرئ: (تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد ، المتوفى عام : ٨٤٥ هـ / ١٤٤٣م): المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ط ١ ، ج ١ ، القاهرة، مكتبة الآداب، ١٩٩٦م، ص ٢-٣.

(٤) القلقشندي: (أبو العباس أحمد ، المتوفى عام : ٨٢١ هـ / ١٤١٨م): صبح الأعشى في صناعة الأنشأ، ط ١ ، ج ٣ ، القاهرة ، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٦م، ص ٢٩٧ ، ابن ظهير : (أبو السعادات جلال الدين محمد بن محمد بن الحسين، المتوفى عام : ٨٦١ هـ / ١٤٥٧م): الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، تحقيق: مصطفى السقا، وكامل المهندس، ط ١ ، القاهرة، دار اللثب المصرية مركز تحقيق التراث، ١٩٦٩م، ص ١٤٨.

(٥) إسنًا: مدينة ومركز رئيسي بمحافظة الأقصر بمصر، تبعد ٥٥ كم جنوب الأقصر على الضفة الغربية لنهر النيل . كان لإسنًا عددًا من الأسماء في القدم : أيونيت، تا-سنت، ولانوبوليس. وهي مدينة عامرة طيبة كثيرة النخل والبساتين والتجارة. ياقوت الحموي : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ١٨٩ ، محمد رمزي : نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ١٥١ .

(٦) إخميم: مدينة مصرية، تتبع محافظة سوهاج إداريًا، والمدينة عاصمة مركز إخميم . ياقوت الحموي : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ١٢٤ ، محمد رمزي : نفس المرجع ، نفس الجزء ، ص ٨٩.

(٧) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار: ج١، ص ٣٧٦.

وبعد حكم الروم لمصر أقاموا مقياسًا آخر بالقصر خلف الباب الصغير ، على يمين الداخل بالفسطاط، قال عنه المقريزي: " وأثره قائم إلى اليوم ، وقد بنى عليه وحواليه " (١).

وبعد الفتح الإسلامي ، أقام عمرو بن العاص مقياسًا عند مدينة أسوان جنوب مصر ، ومقياسًا عند مدينة دندرة . ثم بُني في خلافة معاوية بن أبي سفيان [٦٤١ هـ / ٦٨٠ م] مقياسٌ في مدينة أسنا وبقي مستخدمًا حتى شيد والي مصر عبد العزيز بن مروان في خلافة أخيه عبد الملك بن مروان [٨٦٦ هـ / ٧٠٥ م] مقياسًا جديدًا بمدينة حلوان وذلك سنة [٨٠ هـ / ٦٩٩ م]. ثم شيد أسامة بن زيد التنوخي عامل الخراج على مصر مقياسًا كبيرًا في جزيرة الروضة سنة [٩٢ هـ / ٧١١ م] وذلك في خلافة الوليد بن عبد الملك [٨٦ هـ / ٧٠٥ م] قال ابن يونس الصديقي: " وهو الذي بنى مقياس النيل العتيق بجزيرة الفسطاط مصر " (٢). وبعد وفاة الوليد تولى خلافة المسلمين أخيه سليمان بن عبد الملك [٩٦ هـ / ٧١٧ م] وظل أسامة بن زيد التنوخي عاملًا على خراج مصر. فأبطل سليمان العمل بالمقياس الذي وضعه الوليد ، وأمر أسامة ببناء مقياس جديد في جزيرة الروضة (٣) ، فرغ من العمل به سنة [٩٧ هـ / ٧١٨ م].

استمر العمل بمقياس جزيرة الروضة حتى سقطت الدولة الأموية وقامت العباسية. وفي خلافة المتوكل العباسي [٢٣٢ - ٢٤٧ هـ / ٨٤٦ - ٨٦١ م] وبالتحديد في سنة [٢٤٧ هـ / ٨٦١ م] أمر بإنشاء المقياس الحالي ، والذي عرف بالهاشمي أو بالمقياس الجديد أو بالمقياس الكبير أو بمقياس الروضة (٤) ، والذي شيده المهندس العبقرى محمد بن كثير القُرغاني في ولاية يزيد بن عبد الله التركي على مصر.

والغريب أن بعض المؤرخين المعاصرين ، قد وقع خطأ في أصل هذا المهندس العبقرى فذكر أنه كان قبطنيًا من أهل مصر (٥). وبعضهم أخطأ في ذكر اسمه (٦) لأنه اعتمد على رواية ابن خلكان الذي ذكره باسم " أحمد بن محمد الحاسب الفرصاني " (٧).

(١) قصرُ الشَّمع: وهو قصر كان في موضع الفسطاط من مصر قبل تمصير المسلمين لها، وكان من حديثه: أن الفرس لما اشتد ملكها وقويت على الروم حتى تملك الشام ومصر بدأت الفرس ببناء هذا القصر وجعلت فيه هيكلًا لبيت النار فلم يتم بناؤه على أيديهم، فلما ظهرت الروم تمت ببناءه وحصنته وجعلته حصنًا مانعًا ولم تزل فيه إلى أن ناله المسلمون مع عمرو بن العاص ٣ ففتحته، وهيكل النار هو القبة المعروفة فيه بقبة الدخان وتحت مسجد معلق أحدثه المسلمون، وهذا القصر يعرف ببابلون، قال ياقوت: " ولا أدري لم سمي بالشمع ". معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٥٨.

(٢) لم أعثر على ترجمة وافية لها فيما تحت يدي من مصادر.

(٣) المصدر السابق ، نفس الجزء، ص ١٠٨.

(٤) الخطيب البغدادي: (أبو بكر أحمد بن ثابت ، المتوفى عام: ٤٦٣ هـ / ١٠٣٧ م): المتفق والمفترق، تحقيق ودراسة: د. محمد صادق الحامدي، ط ١، ج ٢ ، بيروت، دار القادري، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م، ص ١٥ .

(٥) يرجع بعض المؤرخين فعل سليمان بن عبد الملك بإبطال المقياس القديم لرغبته في زيادة الخراج المفروض على أهل مصر . ابن منظور: (محمد بن مكرم المعروف بابن منظور ، المتوفى عام: ٧١١ هـ / ١٣١١ م): مختصر تاريخ دمشق، تحقيق: مجموعة من الباحثين، ط ١، ج ٤ ، دمشق، دار الفكر، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م، ص ٢٥٦ .

(٦) ياقوت الحموي: معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٣٠٤ ، ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ، ص ١٧٨ . وذكر القلقشندي : خطأ إنه من بناء المأمون ، انظر صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٢٩٨ .

(٧) د . فريد شافعي: العمارة العربية في مصر الإسلامية ، ط ١، ج ١ ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٠ م، ص ٣٨٩ .

(٨) د. أحمد عبد الرازق أحمد: تاريخ وآثار مصر الإسلامية ، ط ١، القاهرة ، دار الفكر العربي، ١٩٩٣ م، ص ٧٨.

وأعتقد ، أولاً : أن هذا المهندس فرغاني الأصل وليس قبطيًا ، وثانيًا : إن أحمد بن محمد الحاسب ، الذي ذكره ابن خلكان ، هو نفسه محمد بن كثير الفَرْغَانِيّ ، فهما شخص واحد ، وأن " الحاسب " وصف يُطلق على مَنْ يعمل في مجال الحساب والهندسة . ثم ذكر بعد ذلك لقبه " الفرصاني " ولعلها محرفة عن " الفَرْغَانِيّ " . وثالثًا : إن لقب " الحاسب " يؤكد أنه كان أيضًا مشرفًا إداريًا وماليًا ، خاصة ونحن نعلم أن ابن الفَرْغَانِيّ كان أحد المشاهير في علم الرياضيات، وترك لنا كتاب " الجمع والتفريق " (١).

• وصف المقياس :

استطاع ابن الفَرْغَانِيّ أن يبني لمصر مقياسًا على نيلها الخالد في الطرف الجنوبي الشرقي من جزيرة الروضة ؛ وهو يعد من أهم آثار عصر الولاة [١٥٠ هـ / ٨٦٤ م]. وهو عبارة عن عمود رخام أبيض مئمن في موضع منحصر فيه الماء عند انسيابه إليه ، وهذا العمود مقسم على اثنين وعشرين ذراعًا ، كل ذراع (٢) مقسم على أربعة وعشرين قسمًا متساوية ، وهي مقياس نيل مصر كما يقول المقرئزي (٣).

هذا العمود الرخامي المدرج المئمن ، يتوسط بئرًا مربعة مشيدة بأحجار مهذبة ، روعي في بنائها أن يزيد سمكها كلما زاد العمق فقد شيدت البئر من ثلاث طبقات السفلى على هيئة دائرة ، يعلوها طبقة مربعة ضلعها أكبر من قطر الدائرة، والمربع العلوي والأخير ضلعه أكبر من ضلع المربع الأوسط . وهذا التدرج في سمك الجدران يدل على معرفة المسلمين بالنظرية الهندسية الخاصة بازدياد الضغط الفقي للأتربة كلما زاد العمق إلى أسفل .

ومن الجدير بالذكر ، أن أسلوب نحت الحجارة يدل على كفاية ودقة فائقة ، بالإضافة إلى حُسن انتقاع نوع المونة التي استخدمت في لصق الأحجار، فقد ظلت تقاوم التحلل بفعل الماء ما يزيد عن الألف سنة، ويُعد العنصر الرئيسي في المقياس هو العمود الأوسط الرخامي الذي حُفرت عليه علامات الأذرع والقراريط التي تعين مناسب الماء فوق الطبلية الخشبية، ويبلغ ارتفاع العمود نحو ١٠ م.

نعود إلى وصف البئر فنجد ، كما يقول علماء الآثار: يجرى حول جدران البئر من الداخل درج يصل إلى القاع ويتصل بالمقياس بالنيل بواسطة ثلاثة أنفاق يصب ماؤها في البئر من خلال ثلاث فتحات في الجانب الشرقي بعضها فوق بعض حتى يظل الماء ساكنًا في البئر، صممت واجهاتها على هيئة دخلات غائرة في الجدران يعلوها عقود مدببة ترتكز على أعمدة مندوجة في الجدران ذات تيجان وقواعد ناقوسية أو رومانية مقلوبة. ويقوم في وسط البئر عمود من الرخام يعلوه تاج روماني مركب يبلغ طوله ذراعًا ، حفر عليه علامات القياس بالأذرع والقراريط ، يقوم فوق قاعدة من الخشب من جذوع

(١) ابن خلكان: (أبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم، المتوفى عام: ٦٨١ هـ / ١٣٨٣ م): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق: د. مريم قاسم طويل ود. يوسف علي الطويل، ط١، ج٣ ، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م، ص ١١٣ .

(٢) د . أحمد عبد الرازق أحمد: الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى - العلوم العقلية - ، ط١، القاهرة ، دار الفكر العربي، ١٩٩٧ م ، ص ٥٥ .

(٣) قال الماوردي : الذراع السوداء هي أطول من ذراع الدور بأصبع وتلثي أصبع . الماوردي : (أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري، المتوفى عام : ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م): الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ط١، الإسكندرية، دار ابن خلدون، (بدون تاريخ)، ص ١٥٧ . ويرى كراتشكوفسكي: إن مقياس النيل بالقاهرة : يتجاوز نصف المتر بقليل [٥٤.٠] من المتر ، لأن الميل العربي : كان يساوي أربعة آلاف ما يسمى " بالذراع السوداء " ، وكانت أقل من نصف المتر [٣٣٩٤.٠] مترًا ، لدى نالينو ، وهي تساوي [٤٩٣٢.٠] مترًا لدى شوي . انظر : تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، نقله عن الروسية ، صلاح الدين عثمان هاشم ، ط١، ج١ ، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م ، ص ٨٣ .

(٤) المواظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج١ ، ص ٧٥ .

النخيل ومثبت من أعلى بواسطة كمره أو رباط من الخشب المجوف المحشو بالرصاص عليه كتابات كوفية يرتكز على جدران البئر من الداخل المزينة في أعلاها بكتابات كوفية أيضًا تشتمل على آيات قرآنية تعد من أقدم أمثلة الكتابات الأثرية في عمائر مصر الإسلامية^(١).

ومما هو جدير بالذكر، أنه قد جرى العرف على أن كل المراحل الهندسية كان لا بد من الانتهاء منها في الفترة ما بين هبوط النيل إلى الحد الذي يكاد فرع النيل الواقع بين الروضة والفسطاط يجف فيه تمامًا وبين بدء فيضانه مرة أخرى ، أي ما يقرب من ستة أشهر فقط.

وإذا أردنا أن نسأل عن تكلفة هذا العمل ، فإن مؤرخ مصر ابن تغري بردي يُجيب بقوله : " وأما مصروف عمارة هذا المقياس فشيء كثير ، وُئني بعد تعب زائد وكلفة كبيرة يطول الشرح في ذكرها ، وفي النظر إلى بنائه ما يغني عن ذكر مصروف عمارته"^(٢).

ويطول بنا الكلام لو استعرضنا تاريخ المقياس ومقدار زيادته قديمًا وحديثًا. ولكن من طريف ما يُذكر حول مقدار زيادة الماء في المقياس، أن أقل ما وجد فيه من الماء في سنة ١٦٩ هـ (٧٨١ م] وجد فيه ذراع واحد وعشر أصابع. وأكثر ما بلغ في الزيادة سنة ١٩١ هـ [٨١ م] فإنه بلغ ثمانية عشر ذراعًا وتسعة عشر إصبعًا.

هذا ، وقد أبدى جميع المؤرخون والرحالة قديمًا وحديثًا إعجابهم بهذا المقياس . فقال عنه ابن تغري بردي: " وهذا المقياس هو المعهود الآن، وبطل بعمارته كل مقياس كان بني قبله من الوجه القبلي والبحري بأعمال الديار المصرية"^(٣). وقال عنه علماء الحملة الفرنسية عام ١٢١ هـ/ ١٧٩٩ م : " لا شك أن جميع المهندسين قد أعجبوا بالمقياس لا سيما أنه كان موضع احترام وإجلال من كافة المصريين"^(٤).

هكذا ، يتضح لنا أن العالم المهندس أحمد بن كثير الفَرغَانِيّ قد أسهم بشكل فعال في إثراء التبادل الثقافي بين مصر وبلاد ما وراء النهر ، فكانت له بصمة كبيرة على أرض مصر ما زلنا نراها إلى الآن ، وهي مقياس النيل. ولا أستبعد أن يكون الفَرغَانِيّ قد تعلم هندسة البناء تلك في بلاده ؛ أعني بلاد ما وراء النهر والتي كانت تسمى الأنهار. يقول الإصطخري: " وهي من أطيب أرض الله ، كثيرة الأشجار ، غزيرة الأنهار .. في عامة مساكنهم البساتين والحياض والمياه الجارية . قل ما تخلو سكة أو دار من نهر جار"^(٥). ووجود مثل هذه الأنهار الضخمة تطلب من أهل هذه البلاد العمل المستمر على صيانة وحفظ هذه

(١) د. عائشة التهامي : جولات سياحية بين آثار القاهرة القبطية والإسلامية ، ط١، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠١٠ م ، ص ٣٩.

(٢) النجوم الزاهر، ج١ ، ص ٢٥٤.

(٣) نفس المصدر، نفس الجزء، نفس الصفحة.

(٤) أمين سامي باشا : تقويم النيل ، ط١، ج١، القاهرة ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، ٢٠٠٩ م ، ص ٢٨ .

(٥) الإصطخري: (أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي، المتوفى عام : ٣٤٠ هـ / ٩٥١ م): المسالك والممالك، تحقيق : د. محمد جابر عبدالعال الحيني،

مراجعة: د. محمد شفيق غربال، ط١، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة سلسلة الذخائر العدد(١١٩)، ٢٠٠٤م، ص ١٦٥ .

الجسور وشق القنوات. لدرجة إن بلاد ما وراء النهر كان فيها أميرٌ للمياه^(١) ، عنده جماعة كانت مهمتهم إصلاح وصيانة السدود ومجاري الأنهار^(٢).

صفوة القول ، أن المهندس الفَرْعَانِيّ قدم خدمة جلييلة لمصر هي مقياس النيل. ومصر لا تنسى من قدم لها معروفاً ، لذلك فقد وافق محافظ القاهرة على إقامة تمثال للمهندس الفَرْعَانِيّ يشارك في تصميمه فنانون من أوزبكستان ومصر، والتمثال ما زال موجوداً في القاهرة شاهداً على عظمة وعبقريّة هذا الرجل.

• عصر الدولة الطولونية :

وفد أحمد بن طولون إلى مصر نائباً عن " باكباك " التركي الذي ولى إقطاعها من قبل الخلافة العباسية ، واستغل ابن طولون ضعف الخلافة في بغداد وأعلن استقلاله بمصر ، مؤسساً بذلك " الدولة الطولونية " ٢٩٢٢٥ هـ / ٩٠٥٨٦ م [والتي حكمت مصر ما يقرب من ثمانية وثلاثين عاماً .

ولست في حاجة إلى أن أذكر تفاصيل قيام الدولة الطولونية ولا أحداثها ، إنما يشغلنا في المقام الأول شخصية بارزة في عصر هذه الدولة ، قدمت كثيراً من الأعمال الجلييلة لهذا الوطن، بيد أنها لم تأخذ حقها في الذكر والانتشار، إنه سعيد ابن كاتب الفَرْعَانِيّ ، المنسوب إلى بلاد فرغانة إحدى بلاد ما وراء النهر.

وللأسف الشديد لم تمدنا المصادر التاريخية بشيء عن حياته ، غير أنني أرجح نسبه إلى جده محمد بن كثير الفَرْعَانِيّ ، الذي استوطن مصر حتى وفاته. ومن ثم عرفت أسرته بأبناء الفَرْعَانِيّ والذين كان منهم سعيد المذكور.

• قناطر المياه :

كان سعيد يعمل مهندساً وكان معاصراً لأحمد بن طولون وقد قدّم لمصر أعمالاً معمارية رائعة تدل على عبقرية فذة وعلم لا يستهان به ، ما زالت آثارها ماثلة للعيان. ومن أشهر هذه الأعمال؛ قناطر المياه [عين الماء] التي أقامها أحمد بن طولون عام ٢٥٩ هـ / ٨٧٢ م [بمنطقة المعافر جنوب شرق الفسطاط ، والتي لم يكن لها نظيراً في ذلك الوقت. وكانت " عبارة عن برج للمأخذ مشيد من الحجر بداخله بئر مفرغ مفتوح إلى السماء ، وعلى جانبيه غرفتان يغطيهما قبوان ، وينقسم البئر إلى قسمين ويسحب الماء منها بواسطة ساقيتين ترفعا نهر إلى المجرى فوق ظهر البرج ، ثم يسير منه في مجرى فوق القناطر التي تخرج من البرج في انحراف يبلغ أربعة عشر درجة على جانب البرج الشمالي، وبعد نحو سبعة عشر متراً ينحرف اتجاه القناطر من الشمال الغربي إلى الشمال بميل قليل نحو الغرب ، ثم ينحرف مرة أخرى بعد [١٢] متراً نحو الشمال بميل إلى الشرق ، ويمتد بعد ذلك في خط مستقيم نحو مأذنة شاهين أغا الحلواني ، وعقود هذه القناطر التي تهدم أغلبها من النوع المدبب وتشبه عقود الجامع الطولوني، أي إنها عقود مدببة ذات مركزين^(٣).

وهذا يدل على عبقرية وضخامة هذا البناء ، مع هندسة معمارية رائعة ، تتماشى مع طبيعة المكان الذي بُنيت فيه .

(١) السمعاني: (عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي، المتوفى عام: ٥٦٢ هـ / ١١٦٦ م): الأنساب تحقيق: عبد الله عمر البارودي، ط ١، ج ٣ ، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، ص ١١٣ ، تحت لفظ "الريحاني"، النرشخي: (أبو بكر محمد بن جعفر، المتوفى عام: ٣٤٨ هـ / ٩٥٨ م): تاريخ

بُخَارَى ترجمه عن الفارسية وحققه د. أمين عبد المجيد بدوي، د. نصر مبشر الطرازي، ط ٣، القاهرة، دار المعارف، ١٩٩٣ م، ص ١٧ .

(٢) د. محمود محمد خلف: بلاد ما وراء النهر في العصر العباسي، ط ١، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٤ م، ص ١٨٦ .

(٣) د. أحمد عبد الرازق: تاريخ وآثار مصر الإسلامية، ط ١، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٩٣ م، ص ١١٧ .

• جامع ابن طولون:

لم تكن هذه القناطر هي العمل الوحيد الذي قدمه سعيد القُرغانيّ لمصر ، بل إنه يرجع إليه الفضل في بناء جامع أحمد بن طولون على جبل يشكر ، تلکم الجامع الذي ما زال محتفظاً بأغلب عناصره المعمارية ، منذ أن شيده أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية في الطرف الجنوبي لمدينة القطائع؛ والتي شيدها إلى الشمال الشرقي من مدينة العسكر لتكون عاصمة لدولته.

تذكر لنا بعض المصادر التاريخية ، إن أحمد بن طولون عندما عزم على بناء مسجد جامع يحمل اسمه ، ويكون مبنياً بطريقة فنية تحفظه من الغرق أو الحريق ، ويكون في نفس الوقت أجمل ما بني من نوعه . استدعى المهندسين والخبراء وشاورهم في أمر بنائه ، فرأوا أن الجامع يحتاج إلى حوالي ثلاثمائة عمود ، ولا يمكن الحصول عليها إلا من الكنائس والمعابد المقامة في مصر. وعندما سمع ابن القُرغانيّ بهذا وهو بالسجن ولم تذكر لنا المصادر التاريخية سبب سجنه-وخوفاً على الكنائس والمعابد ، كتب لأحمد بن طولون بأنه في استطاعته بناء الجامع بغير حاجة إلى أكثر من عمودين لا غير وجعل دعائم من الآجر مكان الأعمدة المتبقية^(١).

وقبل أن نواصل القول مع هذه الرواية، أقول: إنها رواية لا تعدو إلا أن تكون أسطورة الغرض منها النيل من الإسلام والمسلمين عن طريق تصوير النصارى بأنهم كانوا مضطهدين تحت الحكم الإسلامي ، وأنهم كانوا يعانون من تخريب كنائسهم للاستيلاء على عمدتها واستخدامها في عمائر المسلمين. مع أن العكس هو الصحيح ؛ فقد تمتع أهل الذمة بحرية كبيرة في ظل التاريخ الإسلامي عامة ، وفي ظل الدولة الطولونية خاصة . فلم تسجل لنا رواية واحدة تم الاعتداء فيها على الكنائس أو المعابد اللهم إلا في أعمال فردية لا تعد شاهداً تاريخياً^(٢).

يضاف إلى ذلك ، أن ابن القُرغانيّ كان مسلماً ، وليس نصرانياً كما يدعي بعض الباحثين فلا حاجة للمسلمين في هدم الكنائس والمعابد . نعلم جيداً أن أبناء مصر من الأقباط كان لهم دور فني بارز ورائع في أعمال البناء والتشييد في العصر البطلمي والروماني والقبطي بل والإسلامي أيضاً ، ولكن لا يعني ذلك أن كل عمل فني رائع ينسب إلى أحد المهندسين الأقباط . فالحق أقول: إن سعيد ابن القُرغانيّ كان مهندساً مسلماً ، نشأ وتربى في مصر ، وإن كانت أصوله ترجع إلى بلاد ما وراء النهر.

يضاف إلى ذلك ، أن أحمد بن طولون قد بنى مسجده متأثراً بمسجد أبي دلف في سامراء تلکم المدينة التي نشأ فيها أحمد بن طولون ، وتربى في ربوعها وقد رأى جامعها قد بني من الآجر ، ولم تُتخذ فيه أساطين أو أعمدة رخامية. وهو نفس الأسلوب الذي استخدمه ابن طولون في بناء مسجده ، أعني أن نفس المواد التي استخدمت في بناء جامع سامراء ، هي بعينها التي استخدمت في بناء جامع ابن طولون.

وعلى ذلك فإنني أرى أن عدم اتخاذ ابن طولون أساطين الرخام في بناء المسجد ، لا يرقى أن يكون دليلاً على أن مهندسه نصرانيّ.

نعود إلى بناء المسجد ، فنجد أن أحمد بن طولون عندما سمع بفكرة ابن القُرغانيّ ، استدعاه وقبل العمل بمشورته ، ثم طلب منه عمل نموذج [مُجَسَّم] لذلك قبل تنفيذ البناء. وبالفعل صممه ابن القُرغانيّ من الجلد يقول المقرئزي : " فأعجب

(١) المقرئزي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ج ٤ ، ص ٣٦ ، السيوطي : حُسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٢١٥ .

(٢) د. قاسم عده قاسم: أهل الذمة في مصر العصور الوسطى-دراسة وثائقية-، ط ١، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٧م ، ص ٤٥ .

ابن طولون واستحسنه وأطلقه وخلع عليه " (١) ثم عهد إليه ببناء الجامع ، ووضع ابن طولون تحت يده مائة ألف دينارًا ، على أن تزداد عند الحاجة ، وتعهد ذلك المهندس بالعمل إلى أن أتمه في رمضان سنة ٢٦٩ هـ ٨٧٩ م [، وبذلك يكون ابن الفرغاني هو أول من وضع فكرة عمل النماذج المُجَسِّمة المعمارية في مصر .

ولا بأس أن ألقى بعض الضوء على الوصف المعماري لجامع أحمد بن طولون ، كي نقف على عبقرية ابن الفرغاني في الهندسة المعمارية .

يعد جامع ابن طولون من أكبر جوامع مصر الإسلامية مساحة ، إذ يغطي مع الزيادات التي تحيط به من الشمال والجنوب والغرب ما يقرب من ستة أفدنة ونصف تأخذ شكل مربعًا يبلغ طول ضلعه حوالي ١٦٢ م [، يشغل المسجد منها شكلاً مستطيلًا تبلغ أطواله حوالي ١١٣/١١٨ م [. على حين ترتفع الجدران من منسوب أرضية الأروقة الداخلية إلى قمة شرفاته العليا إلى ما يقرب من ١٣ م [، والمسجد على شكل مربع ، يتوسط صحن مكشوف مربع الشكل أيضًا تحيط به الأروقة من جهاته الأربع ، أكبرها رواق القبلة الذي يتكون من خمسة صفوف من البوائك ، عقودها المدببة محمولة على دعائم مبنية من الحجر ، وفي أركانها أعمدة مدلجة ، أما الأروقة الأخرى فكل منها يحتوي على صفيين من البوائك ذات العقود المدببة أيضًا وأسوار المسجد عالية مرتفعة ، تتسم بالبساطة وتنتهي بعرائس أو شرفات ، ويحتوي المسجد على عدد كبير من الأبواب يبلغ عددها ٢١ بابًا ، وعدد أكبر من النوافذ يبلغ عددها ١٢ نافذة (٢).

هذا ، ويعتبر جامع ابن طولون أقدم مسجد في العالم يحتوي على لوحة تذكارية من البازلت الأسود كتب عليها بالخط الكوفي البارز اسم الأمير أحمد بن طولون وتاريخ الفراغ من إنشاء الجامع سنة ٢٦٩ هـ ٨٧٩ م [على إحدى دعائم رواق القبلة.

ويطول بنا الحديث لو استعرضنا الوصف التفصيلي لهذا المسجد الجامع . وأقول: إن يوم افتتاح الجامع كان يومًا مشهودًا عند جميع المصريين (٣) ، فقد أنعم عليهم ابن طولون بكثير من الهدايا والعطايا ، وأخذ ابن الفرغاني عشرة آلاف دينارًا مكافأة له على ما قدم ثم جعلها ابن طولون راتبًا شهريًا له حتى مات (٤).

صفوة القول ، أن أسرة الفرغاني قد أسدت للمصريين خدمات هندسية جليلة تتمثل في مقياس النيل ، وقناطر المياه ، وجامع ابن طولون . وهي أعمال معمارية تدل على عبقرية فذة وعقل هندسي جبار . وإن تأثرت بعض المنشآت الهندسية بفعل الزمان فإن المسجد الجامع (٥) استطاع أن يقاوم الحدثان وأن يظل شامخًا محتفظًا بحالته الأصلية مقارنة بجامع عمرو بن العاص ٣ الذي توالت عليه كثير من الإصلاحات.

(١) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ج٤ ، ص ٣٨ .

(٢) د. حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ، ط ١ ، ج١ ، القاهرة ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، ٢٠١٤ م ، ص ٣٢ - ٣٤ ، د . سعاد ماهر محمد : مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ، ط ١ ، ج١ ، القاهرة ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، ٢٠٠٩ م ، ص ١٤٤ - ١٤٥ . د. كمال الدين سامح : العمارة الإسلامية ، ط ١ ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٧ م ، ص ٨ - ١٠ .

(٣) لمزيد من التفاصيل انظر: ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، ج ٣ ، ص ١٠ ، السيوطي: حُسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٢١٧ .

(٤) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ج ٤ ، ص ٣٧ .

(٥) ظل جامع ابن طولون موضع اهتمام الخلفاء والأمراء على مر العصور والدهور ، تعرض في بعضها إلى الإهمال وامتدت يد العبث إليه ، ولكنه سرعان ما عاد إلى سابق مجده ، وذلك بعد الجهود المضنية التي قامت بها لجنة حفظ الآثار العربية ، استمر العمل به من سنة [١٣٠٨ - ١٣٣٧ هـ / ١٨٩٠ - ١٩١٨

● خاتمة:

أوجزها، وأركزها في النقاط التالية:

أولاً: أثبت البحث أن علم الهندسة علم عرفه الإنسان منذ قديم الزمان لاحتياجه لضروري لمعرفة المساحات والبناء. وإن كان علماء اليونان والهنود والفرس وقدماء المصريين قد وضعوا أساس هذا العلم، فإن علماء المسلمين قد ترجموا معظم مؤلفاتهم واستفادوا منها، ثم شهد هذا العلم تطوراً ملحوظاً على يد هؤلاء العلماء في ظل الحضارة الإسلامية.

ثانياً: أثبت البحث أن أبناء بلاد ما وراء النهر ويأتي في مقدمتهم أسرة الفَرَّغَانِي قد تركوا لنا بصمات واضحة على أرض مصر، تشهد لهم بالعبقريّة والذكاء، وتثبت في نفس الوقت مدى قوة ومتانة العلاقات الثقافية بين البلدين الإسلاميين، والتي ندعو إلى دعمها وزيادتها في الوقت الحاضر.

ثالثاً: ناقش البحث بالتفصيل تاريخ العلاقة الثقافية بين مصر وبلاد ما وراء النهر في مجال " الهندسة المعمارية"، ولعل الكثير لا يعرف أن بعض المنشآت المعمارية في مصر الإسلامية، من أمثال: مقياس النيل، وقناطر المياه التي أقامها أحمد بن طولون، بل وجامعه الشهير كانت من تخطيط وتنفيذ علماء أفذاذ من بلاد ما وراء النهر، وتمثال الفَرَّغَانِي القابع عند مقياس النيل بالقاهرة أكبر دليل على عمق هذه العلاقات بين البلدين.

رابعاً: أثبت البحث أن المهندس المشرف على هندسة بناء مقياس النيل هو المهندس محمد بن كثير الفَرَّغَانِي الأصل، وأن أحمد بن محمد الحاسب، الذي ذكره ابن خلكان في كتابه: "وفيات الأعيان"، هو نفسه محمد بن كثير الفَرَّغَانِي، فهما شخص واحد، وأن لفظ "الحاسب" الذي استخدمه ابن خلكان هو وصف يُطلق على مَنْ يعمل في مجال الحساب والهندسة، وأما لقب "الفرصاني" فهو محرف عن "الفَرَّغَانِي".

خامساً: أثبت البحث بما لا يدع مجالاً للشك أن المهندس المعماري المشرف على تصميم وبناء جامع أحمد بن طولون هو سعيد الفَرَّغَانِي، وأنه كان مسلماً وليس قبطياً. وأن أحمد بن طولون لم يتعرض في بناء مسجده إلى هدم الكنائس المصرية، فهذه أقوال مغرضة لا ترقى إلى كونها حقيقة تاريخية، بل لا تعدو أن تكون أسطورة الغرض منها النيل من نسيج الشعب المصري الواحد.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً: المصادر العربية:

١. ابن تغرى بردى: (أبو المحاسن يوسف الأتابكي، المتوفى عام: ٨٧٤هـ/١٤٦٩م): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ط١، الهيئة العامة لقصور الثقافة، طبعة مصورة عن دار الكتب المصرية، القاهرة، ٢٠٠٧م.
٢. ابن خردادبه: (أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله، المتوفى عام: ٢٣٢هـ/٨٤٦م): المسالك والممالك، تحقيق: دي جويه، ط١، ليدن المحروسة، بريل، ١٨٨٩م.
٣. الخطيب البغدادي: (أبو بكر أحمد بن ثابت، المتوفى عام: ٤٦٣هـ/١٠٣٧م): المتفق والمفترق، تحقيق ودراسة: د. محمد صادق الحامدي، ط١، دار القادري، بيروت، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.

م [] ، وما زال جامع أحمد بن طولون يحظى باهتمام ملحوظ من هيئة الآثار المصرية ، د . سعاد ماهر : مساجد مصر ، ج١ ، ص ١٤٦ . د . أحمد عبد الرازق : تاريخ وآثار مصر الإسلامية ، ص ١٣٠ .

٤. ابن خلدون: (عبد الرحمن بن خلدون ، المتوفى عام: ٨٠٨هـ/١٤٠٥م): المقدمة، تحقيق: د. علي عبد الواحد وافي، ط١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٦م.
٥. ابن خلكان: (أبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم، المتوفى عام: ٦٨١هـ/١٣٨٣م): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: د. مريم قاسم طويل، ود. يوسف علي الطويل، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.
٦. السيوطي: (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، المتوفى عام: ٩١١هـ/١٥٠٥م): حُسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤١٨هـ - ١٩٨٨م.
٧. ابن عبد الحكم: (المتوفى عام: ٢٥٧هـ / ٨٧١م): فتوح مصر والمغرب، تحقيق: عبد المنعم عامر، ط١، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة الذخائر، العدد (٤٩)، القاهرة، ١٩٩٩م.
٨. ابن العبري: (غريغوريوس أبو الفرج هارون الملقب ، المتوفى عام: ٦٨٥هـ/١٢٨٦م): تاريخ مختصر الدول، تحقيق: أنطون صالحاني العيسوي، ط٣، دار المشرق، بيروت، ١٩٩٢م.
٩. ابن القفطي: (أبو الحسن علي بن يوسف ، المتوفى عام: ٦٢٤هـ / ١٢٢٧م): إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ط١، مكتبة المثني، بغداد، ١٩١٩م.
١٠. القلقشندي: (أبو العباس أحمد ، المتوفى عام: ٨٢١هـ/١٤١٨م): صبح الأعشى في صناعة الأنشا، ط١، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٦م.
١١. الكندي: (أبو عمر محمد بن يوسف الكندي ، المتوفى عام: ٣٥٠هـ / ٩٦١م): فضائل مصر المحروسة، تحقيق: د. علي محمد عمر، ط١، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧م.
١٢. المسعودي: (أبو الحسن علي بن الحسين، المتوفى عام: ٣٤٦هـ/ ٩٥٩م): مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: مصطفى السيد بن أبي ليلى، ط١، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ٢٠٠٣م.
١٣. المقرئ: (تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد ، المتوفى عام: ٨٤٥هـ / ١٤٤٣م): المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ط١، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٩٩٦م.
١٤. ابن النديم: (أبو الفرج محمد بن إسحاق النديم، المتوفى عام: ٣٨٣هـ/ ٩٩٣م): الفهرست، تحقيق: الشيخ إبراهيم رمضان، ط٢، دار المعرفة، بيروت، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.
١٥. ياقوت الحموي: (شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي ، المتوفى عام: ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م): معجم البلدان، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.

ثانيًا: المرجع العربية والمُعربة:

١٦. أحمد عبد الرازق أحمد: (دكتور): الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى -العلوم العقلية ، ط١، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٧م.
١٧. تاريخ وأثار مصر الإسلامية، ط١، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٣م.
١٨. دوزي: (رينهات): تكملة المعاجم العربية، ترجمة د. محمد سليم النعيمي، ط١، دار الرشيد ، العراق، ١٩٨٠م.
١٩. سعاد ماهر محمد: (دكتورة): مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، ط١، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة ، ٢٠٠٩م.

٢٠. عائشة التهامي:(دكتورة): جولات سياحية بين آثار القاهرة القبطية والإسلامية ، ط١، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة، ٢٠١٠ م.
٢١. فريد شافعي:(دكتور): العمارة العربية في مصر الإسلامية ، ط١، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٠م.
٢٢. قاسم عبده قاسم:(دكتور): أهل الذمة في مصر العصور الوسطى-دراسة وثائقية-، ط١، دار المعارف، القاهرة ، ١٩٧٧م.
٢٣. لسترنج:(كي): بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة: بشير فرنسيس ، وكوركيس عواد، ط٢، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
٢٤. محمد رمزي : القاموس الجغرافي للبلاد المصرية ، ط١، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة، ٢٠١٠م.
٢٥. محمود محمد خلف(دكتور): بلاد ما وراء النهر بين حقائق المؤرخين وأوهام المستشرقين، ط١، دار المعارف، القاهرة، ٢٠١٥م.
٢٦. بلاد ما وراء النهر في العصر العباسي، ط١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٤م.
٢٧. هيل:(دونالد): العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية، ترجمة د. أحمد فؤاد باشا، ط١، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، عالم المعرفة، العدد (٣٠٥)، الكويت، ٢٠٠٤م.

الملاحق

→ جامع أحمد بن طولون



→ مقياس النيل من
الداخل



→ مقياس النيل من الخارج



فعالية برنامج إرشادي قائم على رواية القصة وتخفيض عدد ساعات مشاهدة التلفزيون في تعديل السلوك العدواني للطفل

د. لكحل مصطفى/جامعة سعيدة، الجزائر د. بن حليم أسماء/جامعة سيدي بلعباس، الجزائر

ملخص :

يهدف البحث الحالي إلى معرفة مدى فعالية برنامج إرشادي قائم على رواية القصة وتخفيض عدد ساعات مشاهدة التلفزيون في تعديل السلوك العدواني للطفل، تكونت العينة من مجموعتين، تجريبية وضابطة وتكونت كل مجموعة من (١٠) أطفال تراوحت أعمارهم ما بين (٦-٨ سنوات).

استخدمت الدراسة مقياس السلوك العدواني للأطفال من إعداد العميرة عبد الكريم (١٩٩٦) والبرنامج الإرشادي الذي صمم للتقليل وتعديل السلوك العدواني يتكون من (١) جلسة إرشادية من إعداد الباحثين وتوصلت النتائج إلى :

-توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسطات درجات أفراد المجموعة التجريبية قبل تطبيق البرنامج الإرشادي ومتوسطات درجات أفراد نفس المجموعة بعد تطبيق البرنامج على مقياس تقدير السلوك العدواني لصالح التطبيق البعدي.

-لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسطات درجات أفراد المجموعة الضابطة قبل تطبيق البرنامج الإرشادي ومتوسطات درجات أفراد نفس المجموعة بعد تطبيق البرنامج على مقياس تقدير السلوك العدواني.

-توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسطات درجات أفراد المجموعة التجريبية ومتوسطات درجات أفراد المجموعة الضابطة بعد تطبيق البرنامج الإرشادي على مقياس تقدير السلوك العدواني لصالح المجموعة التجريبية.

وهذا يدل على نجاح البرنامج في التقليل من مستوى السلوك العدواني لدى أفراد المجموعة التجريبية.

مقدمة:

تعتبر مرحلة الطفولة من أهم مراحل نمو الفرد ونظرا لأهمية هذه المرحلة وما يترتب عنها من آثار تربوية تحدد المعالم الأساسية للشخصية الإنسانية فلن من أولويات البحث الاهتمام بكل ما يحقق التكيف والنمو السليم للطفل ففي مرحلة الطفولة تنمو قدرات الطفل وتتفتح مواهبه ويكون قابلا للتأثر والتوجيه والتشكيل وقد أصبح الاهتمام بالطفل وسلوكه من المواضيع التي نالت اهتمام الباحثين والدارسين بشكل كبير، وفهم هذا السلوك وتعديل المضطرب منه بما يتلاءم مع متطلبات الحياة، حيث تتميز مرحلة الطفولة بظهور مجموعة من المشكلات السلوكية التي تعيق عملية النمو والتعلم لدى

الطفل ويقصد بالمشكلة السلوكية بأنها: "سلوك يصدر من الطفل ويكون هذا السلوك غير مرغوب وتكون نتائجه غير مرضية للآخرين المحيطين به، ويتصف هذا السلوك بال تكرار وتحدد المشكلات السلوكية في التبول اللاإرادي، العدوان، التمرد، الكذب، مشكلات الطعام" ومن المسلم به أن المشكلات السلوكية تنتشر بصورة كبيرة بين كثير من الأطفال و الشباب المراهقين وبصورة خاصة مشكلة السلوك العدواني .

١- طرح الإشكال :

يعد السلوك العدواني لدى الأطفال من المشكلات الأساسية التي تحول دون اندماجهم مع الآخرين كونه سلوك غير مقبول اجتماعيا يشكل عقبة في مسار التفاعل الاجتماعي الايجابي بين الأطفال فيما بينهم أو بين الأفراد المحيطين بهم ،ولهذا فقد ركزت العديد من الدراسات حول إيجاد حلول للخفض من هذا المشكل السلوكي عن طريق تقديم برامج علاجية وإرشادية وأخرى تدريبية تساعد الطفل على التكيف مع المجتمع وتعديل سلوكه كالعلاج السلوكي الذي يهدف إلى تحقيق تغييرات في سلوك الفرد تجعل حياته وحياه المحيطين به أكثر فاعلية وإيجابية² ويؤكد دونلاب وبيرس Dunlap & Pierce (١٩٩) أنه: " يمكن التغلب على السلوك العدواني عن طريق تحسين مستوى التفاعلات الاجتماعية ومدتها لدى الأطفال التوحدين وذلك من خلال الاهتمام بتنمية المهارات ذات الأهمية في سياق الحياة اليومية وذلك من خلال استراتيجيات لتنمية قدرة الفرد على التواصل، وفهم اللغة، وعلى حدوث التفاعلات الاجتماعية في المواقف المنزلية والمدرسية والمجتمعية"³

حيث يشير (قنديل وبدوي) إلى أن القصص وكتب الخيال العلمي تساعد على تنمية التفكير العلمي والذكاء عامة والقصص التي تتناول مواضيع علمية وتربوية تساهم في تطوير قدرات الطفل العقلية واللغوية وتساعد أيضا على التعرف على أساليب التفكير السليم⁴. كما أجرى زياد احمد بدوي (٢٠٠٩) دراسة اعتمدت على فن القصة في خفض السلوك العدواني بعنوان "فاعلية برنامج إرشادي قائم على فن القصة في خفض السلوك العدواني لدى المعاقين عقليا القابلين للتعلم " حيث تحددت فاعلية البرنامج بقدرته على خفض السلوك العدواني لدى المعاقين عقليا. والجدير بالذكر أن السلوك العدواني يتأثر بنوع الألعاب التي يشاهدها الطفل أو يمارسها فاللعب يحتل جزء كبير من وقته وبناء على ذلك أعدت الكثير من الدراسات حول فعالية اللعب في خفض السلوك العدواني منها دراسة بعنوان فاعلية برنامج مقترح بالألعاب التعاونية في تقليل السلوك العدواني لدى أطفال ما قبل المدرسة لبيرفان عبد الله محمد سعيد المفتي⁵ (٢٠٠٩) استخدام المنهج التجريبي للملائمة لطبيعة البحث، فالعينة كانت من أطفال روضة الرياحين التمهيدي المسجلين للعام الدراسي (2001-2002) ممن تتراوح أعمارهم ما بين (٦٩) سنوات والبالغ عددهم (34) طفل وطفلة واستعمل مقياس السلوك العدواني للعبدي⁶ (١٩٩٩) وبرنامج الألعاب التعاونية المقترح ووحدة الخبرة المتكاملة والنتائج المتحصل عليها أن البرنامج المقترح ذو تأثير ايجابي وفعال

¹ محمد، هناء أحمد، العلاقة بين تطبيق برنامج تدريبي للأهميات البديلات بالمؤسسات الإيوائية وتنمية معارفهن عن المشكلات السلوكية للأطفال. مجلة كلية الاداب جامعة حلوان، ٢٠٠٣ (١٣-١٤)، (٢٠٠٣)، ص٤٠٥.

² ابراهيم، عبد السرتار، العلاج السلوكي للطفل. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٣، ص: ٣١.

³ بحش، اميرة طه، فعالية برنامج تدريبي لتنمية مهارات التفاعل الاجتماعي في خفض السلوك العدواني لدى الاطفال التوحدين، ١٩٩٨.

⁴ قنديل، محمد متولي و بدوي، رمضان مسعد، مهارات التواصل بين البيت والمدرسة. عمان: دار الفكر، ٢٠٠٥، ص١٤٩.

⁵ المفتي، بيرفان عبد الله محمد سعيد، فاعلية برنامج مقترح بالألعاب التعاونية في تقليل السلوك العدواني لدى اطفال ما قبل المدرسة. مجلة التربية الرياضية، ١١، (٤) ١٣١٠-١٥٤، ٢٠٠٢، ص١٣٢.

في تقليل السلوك العدواني لأطفال المجموعة التجريبية وتفوق أطفال المجموعة التجريبية في الاختبار البعدي على أطفال المجموعة الضابطة في تقليل السلوك العدواني .

ودراسات أخرى اعتمدت على أساليب تعديل السلوك المختلفة كدراسة عمر فواز عبد العزيز^(٢٠٩) "فاعلية استخدام أسلوب التعزيز الرمزي والعزل في تعديل السلوك العدواني لدى عينة من الأطفال المعاقين عقليا " ودراسة عبد الله بن عبد العزيز بن فهد العسري^(٢٠٩) "فاعلية استخدام أسلوب التعزيز الرمزي في ضبط المشكلات السلوكية لدى ذوي متلازمة داون في جمعية النهضة النسائية الخيرية بالرياض" يعتقد الأطفال العدوانيين أن العالم كله مكان عدائي وان الآخرين يتصرفون اتجاههم بشكل عدائي ويسئون تفسير سلوك الآخرين فيعتقدون أنهم يتربصون بهم ويفضلون حلول عدوانية للمشاكل الخاصة بالعلاقات بين الأشخاص^١ ويرجع انتشار السلوك العدواني بين الأطفال إلى عدة أسباب منها: التعلم و التقليد قد تكون مرتبطة بنموذج مباشر كالأهل و الأقران أو غير مباشر مرتبط بالعنف التلفزيوني، باعتبار أن العنف ظهر كأحد المواضيع الرئيسية للتلفزيون في العالم^٢ من خلال مشاهدة برامج و أفلام تتميز بالعنف فالتلفزيون يقدم سلوكيات يمكن أن تقلد وتكون قيم الطفل ويقدم صور تحث على بعض الأفعال العدوانية^٣

يشير كبار^(٢٠٩) أن "السلوك العدواني له قابلية واحتمال كبير لكي يكتسب ويتم تعلمه من التلفزيون"^٤ وهو ما يسمى بالعنف التلفزيوني الذي يقدم في الصور التي تبين العدوان الجسدي أو النفسي لأفراد معينين على آخرين أو على أنفسهم^٥ وقد بينت أبحاث Gerbner "أن الأفراد الذين يتعرضون لبرامج التلفزيون وبالخصوص البرامج ذات المحتوى العنيف يرون العالم على انه عالم عنيف ويحسون أنهم في خطر وعدم أمان"^٦ كما يمكن أن يكون السلوك العدواني نتيجة الإحباط وغياب الأب أو العنصر السلطوي في البيت او استخدام أساليب عقابية من طرف الأهل أو المعلم والعامل العائلي المتمثل في نظام التربية داخل الأسرة من بين أهم عوامل ظهور السلوك العدواني.^٧ كما يرجع إلى عوامل فسيولوجية فنقص النوم والجوع وعدم السماح للطفل بممارسة بعض الألعاب الرياضية بحرية خارج المنزل يدفعه إلى نوبات من الغضب^٨ ترى نظرية التعلم الاجتماعي بزعامه باندورا في تفسيرها للسلوك العدواني والتي ركزت على التفاعل بين الفرد وبيئته من خلال ملاحظة أنماط سلوك الأفراد أن التعلم عملية اجتماعية تلخص فكرته في أن البيئة الخارجية تقدم للفرد نماذج كثيرة من السلوك التي يقوم الفرد بتقليدها (فنلاحظ مثلا إن الطفل الصغير يحاول دائما ان يقلد سلوك الكبار) وهو يفترض أن الإنسان كائن اجتماعي يتأثر باتجاهات الآخرين وتصرفاتهم وسلوكهم ويتعلم منهم نماذج سلوكية عن طريق والتقليد وقد قام باندورا بعدة تجارب في هذا المجال أهمها تجربة المجموعات الخمس وهي : المجموعة الأولى لاحظت رجلا يعتدي جسديا ولفظيا علي دمية كبيرة بحجم إنسان مصنوعة من المطاط والمملوءة بالهواء

^١ عبد الرحمن ،معد السيد وحسن ،منى خليفة علي .تدريب الأطفال ذوي الاضطرابات السلوكية على المهارات النمائية .القاهرة:دار الفكر العربي،٢٠٠٣.ص٢٩.

^٢ Lacroix, J.-M. (1997). violence et télévision. paris: presses de la sorbonne nouvelle p :41

^٣ berros, J. B. (2008). Mon enfant et la télévision. (P. Couderchon, Trad.) Bruxelles: de boeck.p :59.

^٤كبار ،أسامة ظافر، برامج التلفزيون والتنشئة التربوية والاجتماعية للطفل.بيروت:دار النهضة العربية،٢٠٠٣.ص٢٦٨.

5 berros, J. B p :15.

6 Fourquet, D. C.-p. (2003). La télévision et ses influences. Bruxelles: de boeck p :183

^٧ debarbieux, e. (2008). les dix commandements contre la violence à l'école. paris: odile jacob. P :88.

^٨العمارة ،محمد حسن المشكلات الصفية السلوكية التعليمية الأكاديمية ط٢. عمان: دار المسيرة،٢٠٠٧، ص ١٢٠.

المجموعة الثانية مشاهدة الأحداث نفسها مصورة في فيلم سينمائي.

المجموعة الثالثة مشاهدة الأحداث نفسها مصورة في فيلم كرتوني.

المجموعة الرابعة مجموعة ضابطة لم تتعرض لمشاهد عدوانية .

المجموعة الخامسة شاهدت رجلا مسلما غير عدواني.

بعد الانتهاء من عرض النماذج تم وضع كل طفل في وضع مشابه للنموذج الملاحظ وقام الملاحظون بتسجيل سلوك الأطفال عبر الزجاج وتم استخراج معدل الاستجابات العدوانية الذي كان في المجموعات الثلاثة الأولى يفوق المجموعة الرابعة والمجموعة الخامسة استجاباتها كانت اقل من استجابات المجموعات الأخرى من خلال التجربة استنتج باندورا مصدرين للتعلم الاجتماعي هما:

تفاعل مباشر : نماذج حية.

تفاعل غير مباشر : وسائل الإعلام المسموعة والمقروءة والمرئية والقصص والروايات.

فالطفل لا يتأثر فقط بالنماذج الحية بل كذلك بالصور الرمزية والسينما وهي تقوم بوظيفة النموذج الحي.¹

يرى باندورا Bandura أن هناك ٤ عمليات تتحكم في التعلم الاجتماعي هي : الانتباه -الحفظ-التقليد-الدافعية.²

اعتمادا على هذه النظرية أقيمت دراسات اعتمدت على تقنية النمذجة في خفض السلوك العدواني وهذا ما أثبتته نتائج دراسة فيوليت فؤاد إبراهيم (١٩٩) "مدى فاعلية برنامج لتعديل سلوك الأطفال المتخلفين عقليا والمصابين بأعراض داون من فئة القابلين للتعلم " ودراسة جيل (١٩٨) "مدى فاعلية أساليب ضبط السلوك المدرسي عن طريق فنية لعب الدور والنمذجة ومشاهدة الفيديو في تعديل مفهوم الذات السالب لدى الأطفال المتخلفين عقليا"

الدراسات السابقة المذكورة اعتمدت على مختلف أساليب وفنيات العلاج السلوكي من نمذجة وتعزيز وتشكيل وغيرها وعلى اللعب في تعديل السلوك واعتمادا على الإرشاد السلوكي الذي يعتبر إعادة تعلم ويعمل على حل المشكلات السلوكية وتعديل السلوك المضطرب ويقوم على أساس أن كل سلوك هو سلوك متعلم سواء كان هذا السلوك سوي أو مضطرب³ وعلى نظرية التعلم الاجتماعي وتحديدا على النمذجة الغير مباشرة وما جاءت به من أسس ومبادئ وانطلاقا من فكرة ان السلوك العدواني هو سلوك متعلم خاصة من خلال تقليد نماذج غير مباشرة (مشاهدة برامج تلفزيونية عنيفة) فإذا كان السلوك العدواني متعلم ومقلد عن طريق النمذجة الغير مباشرة (مشاهدة البرامج العنيفة) وناتج عن نقص في معرفة السلوكات المقبولة اجتماعيا قمنا ببناء برنامج إرشادي قائم على رواية القصة وتخفيض عدد ساعات مشاهدة التلفزيون في تعديل السلوك العدواني للطفل ومنه فإن التساؤل المطروح هو: ما أثر برنامج قائم على رواية القصة وتخفيض عدد ساعات مشاهدة التلفزيون في تعديل السلوك العدواني لدى الطفل؟ وتتفرع عنه التساؤلات الآتية:

- هل توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسطات درجات أفراد المجموعة التجريبية قبل تطبيق البرنامج الإرشادي ومتوسطات درجات أفراد نفس المجموعة بعد تطبيق البرنامج على مقياس تقدير السلوك العدواني؟

¹ خالد، عز الدين، السلوك العدواني عند الأطفال. عمان: دار اسامة للنشر، ٢٠١٠، ص ٥٤-٥٥.

^٢ الروسان، فاروق ، تعديل وبناء السلوك الانساني. ط ٣. عمان: دار الفكر، ٢٠١٢، ص ١٣٦.

^٣ الداهري، صالح حسن، علم النفس الإرشادي نظرياته وأساليبه الحديثة. عمان: دار وائل للنشر، ٢٠٠٥، ص ٤٤٠.

هل توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسطات درجات أفراد المجموعة الضابطة قبل تطبيق البرنامج الإرشادي ومتوسطات درجات أفراد نفس المجموعة بعد تطبيق البرنامج على مقياس تقدير السلوك العدواني؟

هل توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسطات درجات أفراد المجموعة التجريبية ومتوسطات درجات أفراد المجموعة الضابطة بعد تطبيق البرنامج الإرشادي على مقياس تقدير السلوك العدواني.

٢- الفرضيات:

١- توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسطات درجات أفراد المجموعة التجريبية قبل تطبيق البرنامج الإرشادي ومتوسطات درجات أفراد نفس المجموعة بعد تطبيق البرنامج على مقياس تقدير السلوك العدواني.

٢- لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسطات درجات أفراد المجموعة الضابطة قبل تطبيق البرنامج الإرشادي ومتوسطات درجات أفراد نفس المجموعة بعد تطبيق البرنامج على مقياس تقدير السلوك العدواني.

٣- توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسطات درجات أفراد المجموعة التجريبية ومتوسطات درجات أفراد المجموعة الضابطة بعد تطبيق البرنامج الإرشادي على مقياس تقدير السلوك العدواني.

٣- الهدف:

يهدف البحث الحالي إلى الكشف عن فعالية برنامج إرشادي في تعديل السلوك العدواني لدى الطفل، من خلال الاعتماد على رواية القصة والخفض من ساعات مشاهدة التلفزيون.

٤- الأهمية:

تتجلى أهمية البحث في بناء برنامج إرشادي لتعديل السلوك العدواني لدى الطفل، من خلال الاعتماد على رواية القصة والخفض من ساعات مشاهدة التلفزيون.

التركيز على فئة الأطفال، وفترة الطفولة كونها فترة حساسة بالنسبة للطفل فيها تتكون شخصيته، وتحدد ميوله واهتماماته.

٥- الإطار النظري للدراسة:

١.٥ مفهوم السلوك العدواني:

تتعدد مفاهيم السلوك العدواني نظرا لكون العدوان سلوك معقد حيث لا يوجد اتفاق أو تعريف موحد له فكل باحث ينظر إليه من وجهته و ميوله وتعود الجذور الأولى للاهتمام بمجال العدوان إلى محاولات W.mcdugal (١٩٩٨) في كتابه مقدمة في علم النفس الاجتماعي ثم بعد ذلك تأتي محاولات أخرى ل بص و بيركوفيش Buss & Berkowitz (١٩٦٦) ثم جاءت في السبعينات دراسات باندورا Bandura (١٩٦٧) و بارون Baron (١٩٧٧) و جونسون Johnson (١٩٧٧).^١

يعرفه بص buss (١٩٦٦) بأنه: "سلوك يصدره الفرد لفظيا أو ماديا صريحا أو ضمنيا مباشرا أو غير مباشر ناشطا أو سلبيا و يترتب على هذا السلوك إلحاق الأذى البدني أو المادي بالشخص نفسه صاحب السلوك العدواني أو بالآخرين".^٢

^١ العقاد، عصام عبد اللطيف، سيكولوجية العدوانية وترويضها. القاهرة: دار غريب للطباعة، ٢٠٠١، ص ٩٥.

^٢ بدوي، زياد أحمد. فاعلية برنامج إرشادي قائم على فن القصة في خفض السلوك العدواني لدى المعاقين عقليا القابلين للتعلم. رسالة ماجستير. الجامعة الإسلامية. غزة. ٢٠٠١، ص ٣٦.

يعرفه بيركوفيتش Berkowitz^٢ (١٩٦) ^١ بأنه: "أي نوع من السلوك سواء أكان بدنيا أو لفظيا و الذي يصدر بقصد إصابة شخص ما بأذى". يعرفه فيشباخ Feshbach^٢ بأنه: "هو كل سلوك ينتج عنه إيذاء لشخص آخر أو إتلاف لشيء ما وبالتالي فالسلوك التخريبي هو شكل من أشكال العدوان الموجه نحو الأشياء "

يعرفه بندورا Bandura (1963)^٣ بأنه: "سلوك يهدف إلى إحداث نتائج تخريبية أو مكروهة أو إلى السيطرة من خلال القوة الجسدية أو اللفظية على الآخرين و هذا السلوك يعرف اجتماعيا أنه عدواني"

٢٥ أشكال السلوك العدواني:

إن العدوان يأخذ عدة أشكال نذكر منها:

١-٢٥ العدوان من حيث الشكل:

١-٢٥ العدوان الايجابي: يعتبر المحرك الأمثل للإنسان في أداء وظائفه مثلا في حالة الضغط أثناء القيام بعمل ما أين يوجد أجل محدد لإنجازه هنا تكون العدوانية ايجابية و أحيانا يطلق عليها اسم التوكيد أو السلوك التوكيدي.^٤

٢-٢٥ العدوان السلبي: نقول على سلوك عدواني أنه سلبي إذا كان يقود إلى التدمير وتخريب الأشياء أو يشكل تهديد للآخر أو يوجه نحو الذات.^٥

٣-٢٥ العدوان اللفظي: يشمل مختلف أنواع الكلام مثل التهديد التشهير، السب، الاستهزاء، الاحتقار^٦

٤-٢٥ العدوان الجسدي: هو استخدام القوة الجسدية اتجاه الآخر باستخدام شيء كالعصا، الحصى، رصاصة أو بدون ذلك كالضرب، الدفع، اللكم، العض والأفعال كاستعمال أفعال مثل يقاتل، يهاجم، يتدمر تستخدم غالبا لتلخيص هذا النوع من العدوانية^٧.

٥-٢٥ العدوانة نحو الممتلكات: يقصد به تخريب ممتلكات الآخرين وإتلافها مثل تكسير و حرق أو سرقة الممتلكات والاستحواذ عليها.

٢-٢٥ العدوان من حيث الغرض:

١-٢٥ اتجاه عدائي أي العدوان الموجه نحو الآخرين والهدف منه إيقاع الأذى بالآخرين مثلا إذا تعمد الطفل الانزلاق على السطح المائل كي يصدم طفلا آخر أمامه انتقاما منه أي عقد نية مسبقة للإيذاء.^٨

^١ الروسان، فاروق. ٢٠١٢. مرجع سابق ص. ١٢٢.

^٢ خالد، عزالدين. ٢٠١٠، مرجع سابق ص. ٠٩.

^٣ خالد، عزالدين، ٢٠١٠. مرجع سابق ص. ٠٩.

^٤ Lekeu, R & all (2004). l'agressivité chez les personnes âgées. Bruxelles : Kluwer p :5.

^٥ Lekeu, R & all (2004).p :6.

^٦ الزغول، عبدالرحمن، الاضطرابات الانفعالية والسلوكية لدى الأطفال. عمان: دار الشروق. ٢٠٠٦، ص ١٦٨.

^٧ Tremblay, r., Hartup, w., & Archer, j. (2005). developmental origins of aggression. new york: the guilford press .p :83.

^٨ الروسان، فاروق . ٢٠١٢. مرجع سابق ص ١٢٥.

٢٢٢٥ موجه نحو الذات : يهدف إلى إيقاع الضرر بالذات وإيذاء النفس مثل شد الشعر، ضرب الرأس، حرق أجزاء من الجسم... إلخ^١

٣٢٢٥ عدوان هجومي: عدوان موجه نحو الآخرين و إيقاع الأذى بهم.

٤٢٢٥ عدوان وسيلي: دفاعي الدفاع عن النفس من أجل الحياة.

٣٢٥ العدوان من حيث التوجيه:

١٣٢٥ عدوان مباشر : توجيه العدوان نحو المصدر الأصلي للإحباط .

٢٣٢٥ الغير المباشر: توجيه الأذى نحو جهة أخرى لها علاقة بالمصدر الأصلي مثلا الاعتداء على ممتلكات الشخص المقابل موضع الإحباط وإتلافها وتدميرها^٢

٣٥ أسباب السلوك العدواني:

للعدوان أسباب نفسية واجتماعية وأخرى بيولوجية :

١٣٥ الأسباب النفسية: الحرمان الإحباط الانفعالات الشديدة كالغضب والخوف الصدمات النفسية السادية والتعصب ودافع القتال.

٢٣٥ الأسباب الاجتماعية التنشئة الاجتماعية الخاطئة منها أساليب المعاملة الوالدية الغير سوية كالإهمال، القسوة، العقاب، غياب الأب عن الأسرة، البيئة العدوانية، الرفض الاجتماعي والشعور بالتهديد.

٣٣٥ الأسباب البيولوجية ارتفاع الهرمونات الذكورية، القوة العضلية، العاهات، التشوهات، اضطراب نظام السيادة الهمسفيرية.^٣

٤٥ النظريات المفسرة للسلوك العدواني:

النظرية البيولوجية: تركز على العوامل البيولوجية للكائن الحي مثل الصبغيات، الهرمونات، الغدد الصماء والأنشطة الكهربائية في المخ التي قد تكون مثيرة للسلوك العدواني

نظرية التحليل النفسي: يرى فرويد أن العدوان سلوك غريزي يهدف إلى تصريف الطاقة العدائية الموجودة داخل الإنسان ويجب إشباعها تماما كالطاقة الجنسية التي تلح في الإشباع ولا تهدأ إلا إذا اعتدى على غيره بالضرب أو الإيذاء أو اعتدى على نفسه بالإهانة والتحقير فينخفض توتره النفسي ويعود إلى اتزانه الداخلي

في حين ترى الفرويدية الحديثة أن العدوان يرجع إلى الصراعات الداخلية، المشاكل الانفعالية، المشاعر غير الشعورية، الخوف، عدم الأمان، عدم المواءمة، الشعور بالنقص.

نظرية الإحباط: يحدث العدوان نتيجة احباطات يواجهها الفرد وهذه الأخيرة تقوم بالتحريض على القيام بلسلوك العدواني مما يجعل الفرد يلجأ إلى سلوكيات عدوانية موجه نحو المصدر المسبب للإحباط وهنا يوصف العدوان بأنه مباشر وعندما لا

^١ المرجع نفسه ص ١٢٧.

^٢ خالد، عزالدين. ٢٠١٠. مرجع سابق ص ٢٤.

^٣ سري، إجلال محمد. الأمراض النفسية الاجتماعية. القاهرة: عالم الكتب، ٢٠٠٣، ص ٤٣-٤٦.

يمكن توجيه العدوان نحو المصدر الأصلي للإحباط، فإنه يلجأ إلى توجيه العدوان نحو مصدر آخر له علاقة مباشرة أو رمزية بالمصدر الأصلي، فالمعلم الذي يحبط من قبل مديره يوجه عنفه نحو الطلبة لأنه لا يستطيع أن يعتدي على المدير والزوجة التي يعنفها زوجها تقسو على أطفالها.

النظرية السلوكية:

السلوك العدواني سلوك متعلم إذا ارتبط بالتعزيز فإذا اعتدى الأخ الأكبر على أخيه الأصغر وحصل على ما يريد فإن احتمال تكرار السلوك العدواني يقوى.¹

نظرية التعلم الاجتماعي:

تفترض هذه النظرية أن الأشخاص يتعلمون السلوك العدواني بنفس الطريقة التي يتعلمون بها أنماط السلوك الأخرى، وأن عملية التعلم هذه تبدأ بالأسرة.

الفرضيات الأساسية لنظرية التعلم الاجتماعي:

- السلوك العدواني يتم تعلمه داخل الأسرة والمدرسة ومن وسائل الإعلام .

- العديد من الأفعال الأبوية أو التي يقوم بها المعلمون والتي تستخدم العقاب بهدف التربية والتهديب غالباً ما تعطى نتائج سلبية.

- العلاقة المتبادلة بين الآباء والأبناء والخبرات التي يمر بها الطفل في مرحلة الطفولة المبكرة، تشكل شخصية الفرد عند البلوغ، لذلك فإن السلوك العدواني ينقل عبر الأجيال.

- إساءة معاملة الطفل في المنزل يؤدي إلى سلوك عدواني تبدأ بذوره في حياته المبكرة ويستمر في علاقته مع أصدقائه وإخوته، وبعد ذلك مع والديه ومدرسية.

٤٥ تعديل السلوك:

١.٤٥ مفهوم تعديل السلوك ومبادئه :

يقصد به تغيير السلوك الغير مرغوب فيه إلى سلوك مرغوب فيه حتى يتلاءم مع الظروف المحيطة بالفرد، ويخضع تعديل السلوك إلى مجموعة من المبادئ هي:

- السلوك تحكمه نتائجه فإذا كانت النتائج ايجابية زاد احتمال حدوث وتكرار السلوك مستقبلاً، وإذا كانت النتائج سلبية قلت حظوظ حدوثه مستقبلاً.

- التركيز على السلوك القابل للملاحظة المباشرة.

- التعامل مع السلوك على أنه هو المشكلة وليس مجرد عرض لها.

- السلوك المقبول وغير المقبول تحكمه نفس القوانين.

- السلوك الإنساني ليس عشوائياً ويخضع لقوانين معينة.

- لتعديل السلوك منهجية تجريبية.

¹ زيادة أحمد رشيد عبد الرحيم، العنف المدرسي، عمان: الوراق للنشر، ٢٠٠٧، ص ٢٨-٣٠.

٢٤٥ خطوات تعديل السلوك:

يمر تعديل السلوك بسلسلة من الخطوات المتتابعة هي:

- تحديد السلوك المستهدف.
- تعريف السلوك المستهدف بدقة.
- قياس السلوك المستهدف.
- تحديد العوامل المرتبطة وظيفيا بالسلوك المستهدف.
- تصميم خطة العلاج.
- تنفيذ خطة العلاج.
- تقييم فعالية البرنامج العلاجي.
- متابعة الحالة دوريا حتى بعد إنهاء معالجتها لمعرفة ما طرأ عليها من تغير.
- تقييم التغير الذي طرأ على السلوك المستهدف.¹

٣-٤٥ بعض أساليب تعديل السلوك:

١.٣-٤٥ النمذجة:

أو التعلم عن طريق التقليد من الأساليب المنهجية في تعديل السلوك عن طريق ملاحظة النموذج المباشر أو الغير مباشر والاستجابة لا تكون بالضرورة فورية فقد تحدث لاحقا، أي أنها عملية تقليد استجابات الأفراد الملاحظة مسبقا مع تهيئة الظروف اللازمة لتقليد هذه الاستجابة² وهي تهدف إلى:

- زيادة تكرار السلوك المرغوب فيه.
- كف أشكال السلوك الغير المرغوب.
- تسهيل ظهور أشكال جديدة من السلوك.

تعد من الأساليب المفيدة في تغيير السلوك الغير مرغوب فيه إلى سلوك مرغوب فيه كأن يشاهد الأطفال فيلم يلعب فيه أطفال آخرون بسعادة دون عدوانية فيقوم الأطفال بتقليد النموذج ويتم تعزيز سلوكهم إذا تصرفوا بنفس الطريقة.³

٢.٣-٤٥ العقاب:

هو تقديم حادث مؤلم أو استبعاد حادث إيجابي سعيد لإنقاص احتمال حدوث السلوك الغير مرغوب فيه وهو نوعان عقاب ايجابي يشمل تعريض الفرد لحادث مؤلم أو منفر وعقاب سلبي يشمل سحب حادث مريح أو سعيد أو حدث مرغوب فيه من الفرد بعد الاستجابة الغير المرغوبة ومن بين أساليب العقاب:

¹ بحري، منى يوسف وقطيشات، نازك. مدخل إلى تربية الطفل. عمان: دار صفاء، ٢٠٠٨، ص ص ١٨٣-١٨٥.

² الخطيب، جمال و الحديدي، منى ، التدخل المبكر في التربية الخاصة في الطفولة المبكرة. عمان: دار الفكر، ١٩٩٨، ص ٢٧٣.

³ الخطيب، جمال. تعديل السلوك القوانين والإجراءات. عمان: دار الفكر، ١٩٨٧، ص ١٢٧.

- استخدام الأحداث المنفرة بعد الاستجابة الخاطئة يعاقب الفرد بتقديم شيء غير مرغوب فيه أو إحداث حدث مؤلم كالتوبيخ، التأنيب، الصدمة الكهربائية.
 - استبعاد الأحداث المرغوبة من خلال سحب ما يرغب به وما يحبه عقب السلوك الخاطئ وهو ما ينتج عنه نقص السلوك الغير مرغوب فيه ومن أساليبه الحرمان وثمان الاستجابة .
 - التصحيح الزائد أي الممارسة المكثفة للسلوك الصحيح¹
- ٣٣-٤٥ الانطفاء :

التوقف عن تقديم التعزيز بعد الاستجابة وبالتالي نقص هذه الاستجابة مثال التوقف عن الانتباه عند حدوث الاستجابة غير المرغوب فيها والتي لظنت قد عززت من قبل بشكل غير مناسب في البيئة الطبيعية ويكون فعالا خاصة عند تعزيز السلوك المناقض.

- ٤٣-٤٥ التعزيز الايجابي: تقديم معززات عقب الاستجابة المرغوبة لتثبيت سلوك مرغوب فيه جديد أو تقوية حدوثه وتأخذ المعززات أشكالا منها الأطعمة والحلوى وهي تتأثر بنوع الطعام المستخدم لذلك يجب تحديد ما يفضل الفرد من أطعمة قبل تعزيز السلوك والتغذية الراجعة والاستحسان الاجتماعي (المدح، إبداء الاهتمام، تعبيرات الوجه كالابتسامة) واستخدام السلوكيات الأكثر احتمالية وفيش التعزيز². ويعتبر التعزيز التفاضلي من أنجع أساليب التعزيز فاعلية في خفض السلوك العدواني من خلال تعزيز السلوكيات الاجتماعية المرغوب فيها وتجاهل السلوكيات الاجتماعية الغير مرغوب فيها³.
- ٥٣-٤٥ التعزيز السلبي:

من الأساليب الفعالة لتعديل السلوك و هناك فرق بين التعزيز السلبي و العقاب فالأول يقوي العلاقة بين المثير والاستجابة في حين العقاب يضعف هذه العلاقة و التعزيز السلبي يمكن ان يقدم قبل أو بعد حدوث الاستجابة في حين العقاب يحدث بعد الاستجابة الخاطئة فقط.

للتعزيز السلبي أهمية كبيرة في حياتنا اليومية و الحفاظ على سلامتها و يعمل على تقوية العلاقة بين المثير و الاستجابة إذا ما استخدم في الوقت المناسب⁴

التعريفات الإجرائية:

السلوك العدواني: هو سلوك غير مقبول اجتماعيا يمكن ملاحظته وقياسه ويظهر في صورة عدوان بدني أو لفظي وتتوفر فيه الاستمرارية والتكرار ويهدف إلى إلحاق الأذى بالذات وبالآخرين أو بالملكات كما يعرف إجرائيا بأنه الدرجة التي يحصل عليها الفرد على مقياس السلوك العدواني لعبد الكريم العميرة¹ (١٩٩).

¹ الشناوي، محمد محروس، التخلف العقلي الأسباب التشخيص البرامج . القاهرة: دار غريب، ١٩٩٨، ص ٤٤٩-٤٥٢.

² الشناوي، محمد محروس ، مرجع سابق، ١٩٩٨، ص ص ٤٤١-٤٤٦.

³ يحيى، حولة أحمد، الاضطرابات السلوكية والانفعالية. عمان: دار الفكر، ٢٠٠٠، ص ١٩١.

⁴ الروسان، فاروق ، تعديل وبناء السلوك الانساني. ط٣. عمان: دار الفكر. ٢٠١٢، ص ص ١١٩-١٢٥.

البرنامج الإرشادي:

يعرفه زهران^١ (١٩٩) بأنه "برنامج مخطط ومنظم في ضوء أسس علمية لتقديم الخدمات الإرشادية المباشرة والغير مباشرة فردياً وجماعياً لجميع من تضمهم الجماعة أو المؤسسة بهدف مساعدتهم في تحقيق النمو السوي والقيام بالاختيار الواعي المتعلق لتحقيق التوافق النفسي داخل الجماعة وخارجها".

يعرف إجرائياً بأنه برنامج مخطط ومنظم في ضوء أسس علمية وتربوية، يستند إلى مبادئ وفنيات النظرية السلوكية، يضم مجموعة من الإجراءات والأنشطة الإرشادية المعتمدة على رواية القصة والتقليل من ساعات مشاهدة التلفزيون بهدف خفض السلوك العدواني لدى الأطفال وتعديل سلوكهم.

رواية القصة: هي عبارة عن حكاية تروى للطفل تتضمن أهداف سلوكية من أجل إكسابه السلوك السوي والمقبول اجتماعياً ومحو السلوك الغير مرغوب فيه تتضمن جوانب تربوية وأخلاقية وترويحية وعلاجية واجتماعية .

تخفيض عدد ساعات مشاهدة التلفزيون: يقصد به التقليل من ساعات مشاهدة البرامج التلفزيونية ذات الطابع العنيف والعدواني في المعدل اليومي وتعويضها بأنشطة أخرى محببة لدى الطفل.

٦- إجراءات البحث:

منهج الدراسة: استخدم المنهج التجريبي ملائمة لطبيعة البحث وذلك باستخدام مجموعة تجريبية ومجموعة ضابطة مع التطبيق القبلي والبعدي.

العينة:

تتكون عينة البحث من ١٦ طفل تم اختيارهم بطريقة قصدية ممن كانت درجاتهم على مقياس السلوك العدواني أعلى من ٢٠ درجة تتراوح أعمارهم بين (٨٦) سنوات عددهم ١٦ طفل تم تقسيمهم إلى مجموعتين إحداهما ضابطة عدد أفرادها (٨) والأخرى تجريبية عدد أفرادها (٨) وتمت مجانسة أفراد المجموعتين من حيث العمر ودرجة السلوك العدواني.

٧- أدوات الدراسة :

- مقياس السلوك العدواني للأطفال لأحمد عبد الكريم العمارة^١ (١٩٩).
- البرنامج الإرشادي القائم على رواية القصة وتخفيض ساعات مشاهدة التلفزيون في تعديل السلوك العدواني للطفل.

متغيرات الدراسة :

المتغير المستقل: برنامج إرشادي قائم على رواية القصة وتخفيض ساعات مشاهدة التلفزيون في تعديل السلوك العدواني لدى الأطفال.

المتغير التابع: السلوك العدواني المقاس من خلال مقياس السلوك العدواني.

البرنامج الإرشادي:

^١ زهران ،حامد عبد السلام، التوجيه والإرشاد النفسي، ط٣. القاهرة: عالم الكتب، ٢٠٠٢. ص ١١.

قام الباحثين بالإعداد للبرنامج بعد الاطلاع على البرامج والدراسات والأطر النظرية السابقة التي تناولت بناء البرامج العلاجية والتدريبية و الإرشادية والسلوكية المختلفة. وذلك باستخدام فنيات و مبادئ المنحني السلوكي وقد اعتمد البرنامج على رواية القصة وتخفيض ساعات مشاهدة التلفزيون في تعديل السلوك العدواني لدى الأطفال والتعزيز الإيجابي وذلك بهدف تعزيز السلوكيات الايجابية و خفض من السلوكيات غير المرغوب فيها بالخصوص العدوانية وكذا الاعتماد على نظرية التعلم الاجتماعي لإكساب الطفل السلوك المرغوب وتم تنفيذ البرنامج من خلال رواية القصة وتخفيض ساعات مشاهدة التلفزيون.

أهمية البرنامج:

- يسهم البرنامج في مساعدة هؤلاء الأطفال على التفاعل الجيد والتواصل مع الآخرين وزيادة المحصول اللغوي لديهم مما يؤدي إلى خفض السلوك العدواني.
- تحديد اثر رواية القصة في تعلم الطفل واكتسابه للسلوك المرغوب فيه ودور التخفيض من ساعات مشاهدة التلفزيون في الكف عن تقليد السلوكيات الغير مرغوب فيها المهارات لدى الأطفال.
- تظهر أهمية البرنامج من طبيعة الفئة المستهدفة فيه وهم فئة الأطفال.

الهدف من البرنامج:

يهدف البرنامج إلى قياس فاعلية برنامج إرشادي يعتمد على رواية القصة وتخفيض ساعات مشاهدة التلفزيون في تعديل السلوك العدواني لدى الأطفال.

كما يهدف إلى توفير وسيلة لخفض السلوك العدواني، وزيادة التواصل مع الأقران باعتبار هذه المشكلة السلوكية تحول دون تواصل الأطفال مع بعضهم البعض، وبالتالي تحسين العلاقات الاجتماعية، وتنمية روح الجماعة والتفاعل مع الآخرين، بالإضافة إلى تحسين المستوى اللفظي والحصيل اللغوي للطفل من خلال رواية القصص.

مدة البرنامج :

يستغرق البرنامج ٤ أسابيع بمجموع ١٦ جلسة إرشادية بواقع ٤ جلسات بالأسبوع.

مضمون جلسات البرنامج:

تضمنت الجلسات الستة عشرة مجموعة من القصص الهادفة والتربوية والمسلية، والتي تهدف في مجملها إلى تنمية روح الجماعة، التعاون، تعلم الاحترام والتقدير للكبير والأقران والوالدين، كذلك مضمون القصص يسعى إلى توضيح وبيان عاقبة السلوكيات العدوانية الصادرة عن شخصيات القصة ومآلها وسوء عاقبتها كقصة النملة والصرصور، قصة ليلى والذئب، قصة التلميذ المطيع وغيرها من القصص التي تنمي روح التعاون، إطاعة الوالدين والأوامر، مساعدة الآخرين، الجد والمثابرة، وتكسب الطفل جملة من السلوكيات المرغوب فيها التي تزيد من تواصله مع الآخرين، وتسهل تعامله معهم، وبالتالي تعديل السلوك العدواني الناتج عن نقص في التواصل، بالإضافة إلى قصص أخرى توضح النتائج السلبية للسلوكيات العدوانية والغير مرغوبة فيها والعقاب الذي يتحصل عليه الطفل بعد ممارسته لها.

كما يعتمد البرنامج على التقليل من ساعات مشاهدة التلفزيون، وخاصة البرامج التي يضم محتواها مشاهد عدوانية واستخدام العنف والأسلحة، والتي يقوم الطفل بتقليدها وتعويضها بأنشطة أخرى كالرسم واللعب بالدمى أو مع الأصدقاء أو ممارسة نشاط محب للطفل ومن الأساليب التي اعتمدها الباحثان في تطبيق البرنامج الإرشادي هي :

التعزيز الايجابي ولكي يكون ذو فعالية يعطى مباشرة بعد القيام بالسلوك المرغوب فيه كمساعدة الأم وسماع كلامها وإطاعة الأوامر الموجهة إليه وفي حالة الامتناع عن السلوك الغير مرغوب فيه كالامتناع عن مشاهدة برامج الأطفال العنيفة وكذلك في الوقت الذي يظهر فيه تحسن في الأداء أو السلوك المرغوب فيه ومن بين المعززات المستخدمة : الأطعمة والحلوى استخدام كلمات الاستحسان والشكر والابتسامه وتقديم المعززات المادية كالهدايا والنقود أو مكافئته بالقيام بنزهة وممارسة الهوايات المفضلة لديه.

٨- عرض وتحليل النتائج:

١٨ نتائج فرضية البحث الأولى :

توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسطات درجات أفراد المجموعة التجريبية قبل تطبيق البرنامج ومتوسطات درجات أفراد نفس المجموعة بعد تطبيق البرنامج على مقياس تقدير السلوك العدواني.

للتحقق من صحة هذا الفرض تم حساب دلالة الفروق بين المتوسطات باستخدام اختبار "ت" T- test والجدول رقم (٠) يوضح ذلك:

جدول رقم (٠): يوضح دلالة الفروق بين الاختبارين القبلي والبعدي في تعديل السلوك العدواني لأطفال المجموعة التجريبية

المجموعة	(ن)	المتوسط	الانحراف المعياري	قيمة (ت)	مستوى الدلالة
المجموعة التجريبية قبل تطبيق البرنامج	٨	٢٣.٣	١٧.٩	٣.٥	دالة عند (٠.٠٥)
المجموعة التجريبية بعد تطبيق البرنامج	٨	١٩	٦		

يتضح من نتائج الجدول رقم (٠) وجود فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسطات الدرجات التي حصل عليها أفراد المجموعة التجريبية في القياس القبلي والقياس البعدي على مقياس السلوك العدواني، وذلك لصالح القياس القبلي، حيث أن متوسط درجات المجموعة التجريبية في القياس القبلي بلغ (٢٣.٣)، في حين أنخفض متوسط درجات نفس المجموعة في القياس البعدي إلى (١٩)، كما أن قيمة (ت) المحسوبة بلغت (٣.٥) وهي أكبر من قيمة (ت) الجدولية (١.٨) عند مستوى دلالة معنوية (٠.٠٥) ودرجة حرية (٧) وهي دالة إحصائياً وهو ما يعني فاعلية البرنامج الإرشادي في خفض السلوك العدواني، مما يشير إلى تحقق صحة هذا الفرض.

٢٨ نتائج فرضية البحث الثانية :

لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسطات درجات أفراد المجموعة الضابطة قبل تطبيق البرنامج الإرشادي ومتوسطات درجات أفراد نفس المجموعة بعد تطبيق البرنامج على مقياس تقدير السلوك العدواني.

وللتحقق من صحة هذا الفرض تم حساب دلالة الفروق بين المتوسطات باستخدام اختبار (ت) T- test والجدول رقم (٠٢) يوضح ذلك:

جدول رقم (٠٢) يوضح دلالة الفروق بين الاختبارين القبلي والبعدي في تعديل السلوك العدواني لأطفال المجموعة الضابطة

المجموعة	(ن)	المتوسط	الانحراف المعياري	قيمة (ت)	مستوى الدلالة
المجموعة الضابطة قبل تطبيق البرنامج	٨	٢٣.٧	١٦.٤	٠.١	غير دالة عند (٠.٠٥)
المجموعة الضابطة بعد تطبيق البرنامج	٨	٢٤	١٨		

يتضح من نتائج الجدول السابق رقم (٠٢) عدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسطات الدرجات التي حصل عليها الأفراد في كل من القياس القبلي والقياس البعدي للمجموعة الضابطة حيث بلغت قيمة (ت) المحسوبة (٠.١) عند مستوى دلالة معنوية (٠.٠٥) وهي أكبر من (ت) الجدولية (١.٨) وهي غير دالة إحصائياً.

٣.٨ نتائج الفرضية الثالثة:

توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسطات درجات أفراد المجموعة التجريبية ومتوسطات درجات أفراد المجموعة الضابطة بعد تطبيق البرنامج الإرشادي على مقياس تقدير السلوك العدواني.

وللتحقق من صحة هذا الفرض تم حساب دلالة الفروق بين المتوسطات باستخدام اختبار (ت) T- test والجدول رقم (٠٣) يوضح ذلك:

جدول رقم (٠٣) يوضح دلالة الفروق للاختبار البعدي في تعديل السلوك العدواني لأطفال المجموعة التجريبية والضابطة

المجموعة	(ن)	المتوسط	الانحراف المعياري	قيمة (ت)	مستوى الدلالة
المجموعة التجريبية بعد تطبيق البرنامج	٨	١٩	٦	٢.٧	دالة عند (٠.٠٥)
المجموعة الضابطة بعد تطبيق البرنامج	٨	٢٤	١٨		

يتضح من نتائج الجدول رقم (٠٣) وجود فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسطات درجات أفراد المجموعة التجريبية ومتوسطات درجات أفراد المجموعة الضابطة على مقياس السلوك العدواني بعد تطبيق البرنامج الإرشادي وذلك لصالح المجموعة الضابطة حيث أن متوسط درجات المجموعة التجريبية (١) قد انخفض عن متوسط المجموعة الضابطة (٢) بعد تنفيذ البرنامج الإرشادي وبلغت قيمة (ت) المحسوبة (٢.٧) وهي قيمة دالة إحصائياً عند مستوى دلالة معنوية (٠.٠٥) وهي أكبر من (ت) الجدولية (٢.١) مما يشير إلى تحقق صحة هذا الفرض.

-مناقشة النتائج:

أشارت نتائج الدراسة الحالية إلى فعالية البرنامج الإرشادي في تعديل السلوك العدواني لدى الطفل وذلك من خلال انخفاض مستوى السلوك العدواني لدى أفراد المجموعة التجريبية بعد تطبيق البرنامج الإرشادي أي من خلال نتائج القياس البعدي بعد نهاية البرنامج الإرشادي بالمقارنة مع مستوى السلوك العدواني قبل تطبيق البرنامج الإرشادي (القياس القبلي)، وهذه النتائج تشير إلى كفاءة وفاعلية البرنامج الإرشادي في خفض مستوى السلوك العدواني ونتائج الدراسة الحالية تتفق مع نتائج العديد من الدراسات التي تناولت خفض درجة السلوك العدواني وتعديل السلوك لدى فئات متعددة كفئات ذوي الاحتياجات الخاصة وفئة الأحداث والأطفال التوحديين وغيرهم ومع فئات عمرية مختلفة من أطفال ومراهقين وشباب ومن بين تلك الدراسات التي أثبتت دور أساليب تعديل السلوك المختلفة من تعزيز ونمذجة مباشرة وغير مباشرة (كالقصص والأفلام) في خفض السلوك العدواني:

دراسة فواز عبد العزيز^(٢٠٩) التي تناولت فاعلية استخدام أسلوب التعزيز الرمزي والعزل في تعديل السلوك العدواني لدى عينة من الأطفال المعوقين عقليا وكذلك دراسة سعد بن عبد الرحمن سعد الشهرري^(٢٠٩) بعنوان "اثر برنامج تدريبي قائم على اللعب بالتشكيل في خفض السلوك العدواني لدى عينة من الأطفال المتخلفين عقليا" ودراسة سعد بن محمد بن سعد آل رشود^(٢٠٩) بعنوان فاعلية برنامج إرشادي نفسي في خفض درجة السلوك العدواني لدى طلاب المرحلة الثانوية ودراسة أميرة طه بخش^(١٩٩) التي هدفت إلى دراسة فعالية برنامج تدريبي لتنمية مهارات التفاعل الاجتماعي في خفض السلوك العدواني لدى الأطفال التوحديين ودراسة لنفس الباحث بحث بعنوان فاعلية برنامج تدريبي مقترح لأداء بعض الأنشطة المتنوعة على تنمية المهارات الاجتماعية للأطفال المعاقين عقليا القابلين للتعلم" ودراسة عايذة شعبان صالح وأنور محمود البنا^(٢٠٩) تحت عنوان " فعالية برنامج إرشادي لخفض حدة السلوك العدواني لدى الأطفال المعاقين عقليا القابلين للتعلم " كما تتفق أيضا نتائج هذه الدراسة فيما يخص دور رواية القصة وتنمية القدرات اللغوية في تعديل السلوك العدواني وزيادة التواصل والتفاعل الاجتماعي دراسة جمال عبد الناصر سليمان عبد الباقي الجندي^(٢٠٩) بعنوان فعالية برنامج تدريبي في تنمية مهارة الاستخدام الاجتماعي للغة وأثره على سلوك إيذاء الذات لدى المراهقين المعاقين عقليا " ودراسة زياد احمد بدوي^(٢٠٩) التي أثبتت الدور الفعال لرواية القصة من خلال الدراسة التي قام بها الموسومة بفعالية برنامج إرشادي قائم على فن القصة لخفض السلوك العدواني لدى المعاقين عقليا القابلين للتعلم ودراسة أسماء سعيد عبد العزيز احمد^(٢٠٩) "فعالية برنامج قائم على الأنشطة المتعددة في خفض السلوك العدواني لدى أطفال الروضة المعاقين عقليا القابلين للتعلم. أيضا دراسات عدة أثبتت دور أسلوب اللعب في خفض السلوك العدواني منها دراسة بيرفان عبد الله محمد سعيد المفتي^(٢٠٩) بعنوان فعالية برنامج مقترح بالألعاب التعاونية في تقليل السلوك العدواني لدى أطفال ما قبل المدرسة كما أن للأنشطة الفنية اثر في خفض السلوك العدواني وهذا ما أثبتته نتائج دراسة فالنتينا وديع سلامة الصايغ^(٢٠٩) تحت عنوان فاعلية الأنشطة الفنية في تخفيض السلوك العدواني لدى الأطفال الصم في مرحلة الطفولة المتأخرة ودراسة هانيا الشنواني^(١٤٢ هـ) حول فاعلية برنامج إرشادي قائم على فن القصة للتقليل من درجات السلوك العدواني والخجل الاجتماعي لدى عينة من الأطفال من الفئة العمرية^(٦٩) سنوات بمدينة الرياض كما أن من النتائج المتوصل إليها اثر خفض ساعات مشاهدة التلفزيون في تعديل السلوك العدواني ذلك لما له من اثر على الطفل من خلال التقليد وعليه فان تقليل تعريض الطفل للتلفزيون وبالخصوص للبرامج والأفلام ذات الطابع العدواني والعنيف والتي تبث مشاهد عراك واستخدام للأسلحة والضرب وغيرها من مظاهر السلوك العدواني وبالتالي فان تقليل من التعرض لهذه المشاهد وتعويبها بأنشطة أخرى مفيدة للطفل تحد من شدة السلوك العدواني وتساهم بشكل كبير في تعديل سلوكه

وإكسابه سلوكات جديدة مقبولة اجتماعيا وهذه النتائج تتفق مع الدراسة التي أجراها مركز البحوث التربوية والمناهج بوزارة التربية بدولة الكويت^١ (١٩٩) والتي توصلت وجود ارتباط إيجابي بين السلوك العدواني ومشاهدة أفلام العنف ودراسة علي سعد علي اله طيلة٢٠٠٩ بعنوان "تأثير برامج القنوات الفضائية على اكتساب السلوك الجانح لدى الأحداث (عادات المشاهدة وأنماطها). دراسة أخرى لنايف الشبول (٢٠١٠) تحت عنوان " اثر الدراما الفضائية في ظاهرة العنف عند الأطفال".

ويفسر الباحثان هذه النتائج في إطار الاعتماد على البرنامج الإرشادي المستخدم في هذه الدراسة والذي يستند على رواية القصة وتخفيض عدد ساعات مشاهدة التلفزيون ، كما تفسر النتائج التي تم التوصل إليها من خلال تنوع الأساليب التي اتبعها البرنامج الإرشادي في إدارة الجلسات الإرشادية ، فقد اعتمد البرنامج الإرشادي على فنيات معرفية وسلوكية، فمن الفنيات المعرفية التي اعتمدها البرنامج فنيات كالحوار والمناقشة والتعزيز.

كما يفسر الباحثان هذه النتيجة في ضوء السمة الهامة من سمات الشخصية السوية وهو أن الفرد يعدل من سلوكه دائما بناء على الخبرات التي تمر به، فهو يغير ويعدل من سلوكه حسب ما تعلمه من المواقف السابقة ، وبشكل خاص المواقف ذات العلاقة بالموقف الذي يقف فيه ، فكل موقف يمر به يضيف له مجموعة من الخبرات الجديدة مما يجعله قادر على مواجهة المواقف التالية:^١

يفسر الباحثان ثبات مستوى السلوك العدواني لدى أفراد المجموعة الضابطة في القياس البعدي نتيجة عدم تلقيهم البرنامج الإرشادي، واستمرار الوسط الأسري بالشكل السابق للطفل وعدم إحداث أي جوانب تغير في ذلك الوسط.

ساهمت فنية النمذجة في مساعدة أعضاء المجموعة الإرشادية على محاكاة نماذج السلوك السوي والتي تتسم بالقبول ومحاولة التخلص من النماذج السلوكية غير السوية من خلال النمذجة الغير مباشرة لنموذج سلوكي كرواية القصة أو نموذج كتابي وهنا يشير عقل^٢ " إلى أن النمذجة تستخدم في بناء السلوكيات المرغوبة ، وتعديل السلوكيات الرديئة وتظهر النمذجة كأسلوب لتعديل السلوك في ابسط صورة في مدارسنا ، فإذا أردنا أن نعلم طالبا الانضباط الصفي ، أو النظافة أو المشاركة أو القيام بالواجبات عمدنا إلى نقله إلى جانب طالب مجد، ومحب له ، يعتبره نموذجا له ، فيلاحظه ويقتدي به، ويتعلم منه السلوكيات المرغوبة".

كما ساعدت فنية التعزيز على مساعدة أفراد المجموعة التجريبية على ضبط سلوكهم ، وزيادة تعلمهم للسلوكيات المرغوبة، فالتعزيز أداة فعالة لتقوية العلاقة الرابطة بين المثير والاستجابة وهو يزيد من تكرار حدوث السلوك وقلته تؤدي إلى انطفاء السلوك وكلما كان الوقت قصيرا بين الاستجابة والتعزيز كلما زادت فاعليته في تثبيت الاستجابة^٣ وهنا يذكر زهران أن سكينر Skinner أكد على أنه من الأفضل والأكثر فاعلية تعزيز التعليم الصحيح بإثابته أكثر من العقاب على التعلم غير الصحيح.^٤

^١ كفاي علاء الدين. الصحة النفسية والإرشاد النفسي. الرياض: دار النشر الدولي. ٢٠٠٣، ص ٢٥.

^٢ عقل، محمود عطا. الإرشاد النفسي والتربوي. الرياض: دار الخريجي للنشر والتوزيع، ٢٠٠٢، ص ٣١٤.

^٣ العزة، سعيد حسني وعبد الهادي، جودت عزت. نظريات الارشاد والعلاج النفسي. عمان: دار الثقافة للنشر، ١٩٩٩، ص ٧٨.

^٤ زهران حامد عبد السلام، ٢٠٠٢، مرجع سابق ص ١٠٤.

قائمة المراجع:

- ١- ابراهيم ، عبد الستار، العلاج السلوكي للطفل. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٦.
- ٢- الخطيب ، جما، تعديل السلوك القوانين والاجراءات. عمان: دار الفكر، ١٩٨٧.
- ٣- الخطيب، جمال و الحديدي، منى، التدخل المبكر في التربية الخاصة في الطفولة المبكرة. عمان: دار الفكر، ١٩٩٦.
- ٤- الدايري ،صالح حسن، علم النفس الإرشادي نظرياته وأساليبه الحديثة. عمان: دار وائل للنشر، ٢٠٠٠.
- ٥- الروسان، فاروق، تعديل وبناء السلوك الانساني. ط٣. عمان: دار الفكر، ٢٠٠١.
- ٦- الزغلول ،عبدالرحمن، الاضطرابات الانفعالية والسلوكية لدى الاطفال. عمان: دار الشروق، ٢٠٠٠.
- ٧- الشناوي، محمد محروس، التخلف العقلي الاسباب التشخيص البرامج. القاهرة: دار غريب، ١٩٩٦.
- ٨- العزة ،سعيد حسني وعبد الهادي ،جودت عزت، نظريات الإرشاد والعلاج النفسي. عمان: دار الثقافة للنشر، ١٩٩٦.
- ٩- العقاد ،عصام عبد اللطيف، سيكولوجية العدوانية وترويضها. القاهرة: دار غريب للطباعة، ٢٠٠٠.
- ١٠- العميرة ،محمد حسن، المشكلات الصفية السلوكية التعليمية الاكاديمية ط٢. عمان: دار المسيرة، ٢٠٠٠.
- ١١- المفتي ،بيرفان عبد الله محمد سعيد ، فاعلية برنامج مقترح بالألعاب التعاونية في تقليل السلوك العدواني لدى اطفال ما قبل المدرسة. مجلة التربية الرياضية ١١ (٤) ٣٠٥-٣١٠، ٢٠٠٠.
- ١٢- بحري ،منى يوسف وقطيشات ،نازك، مدخل الى تربية الطفل. عمان: دار صفاء، ٢٠٠٠.
- ١٣- بخش ،اميرة طه. فعالية برنامج تدريبي لتنمية مهارات التفاعل الاجتماعي في خفض السلوك العدواني لدى الاطفال التوحديين، ١٩٩٦.
- ١٤- بدوي ،زياد احمد. فاعلية برنامج ارشادي قائم على فن القصة في خفض السلوك العدواني لدى المعاقين عقليا القابلين للتعلم. رسالة ماجستير. الجامعة الاسلامية. غزة، ٢٠٠٠.
- ١٥- خالد ،عزالدين. السلوك العدواني عند الاطفال. عمان: دار اسامة للنشر، ٢٠٠١.
- ١٦- زهران ،حامد عبد السلام. التوجيه والإرشاد النفسي. ط٣. القاهرة: عالم الكتب، ٢٠٠٠.
- ١٧- زيادة، احمد رشيد عبد الرحيم، العنف المدرسي ، عمان: الوراق للنشر، ٢٠٠٠.
- ١٨- سري ،اجلال محمد. الامراض النفسية الاجتماعية. القاهرة: عالم الكتب، ٢٠٠٠.
- ١٩- عبد الرحمن ،محمد السيد وحسن ،منى خليفة علي. تدريب الاطفال ذوي الاضطرابات السلوكية على المهارات النمائية. القاهرة: دار الفكر العربي، ٢٠٠٠.
- ٢٠- عقل ،محمود عطا. الإرشاد النفسي والتربوي. الرياض: دار الخريجي للنشر والتوزيع، ٢٠٠٠.
- ٢١- فاورق ،مصطفى اسامة. مدخل الى الاضطرابات السلوكية والانفعالية: الاسباب التشخيص العلاج. عمان: دار المسيرة، ٢٠٠١.
- ٢٢- قنديل ،محمد متولي و بدوي ،رمضان مسعد. مهارات التواصل بين البيت والمدرسة. عمان: دار الفكر، ٢٠٠٠.
- ٢٣- كباره ،اسامة ظافر. برامج التلفزيون والتنشئة التربوية والاجتماعية للطفل. بيروت: دار النهضة العربية، ٢٠٠٠.
- ٢٤- كفاقي علاء الدين. الصحة النفسية والإرشاد النفسي. الرياض: دار النشر الدولي، ٢٠٠٠.



٢٥- محمد ،هناة أحمد،العلاقة بين تطبيق برنامج تدريبي للأمهات البديلات بالمؤسسات الإيوائية وتنمية معارفهن عن المشكلات السلوكية للأطفال. مجلة كلية الآداب جامعة حلوان..٣٣ (٤١) :٣٠٠٠ .

٢٦- يحيى ،خولة أحمد،الاضطرابات السلوكية والانفعالية.عمان:دار الفكر؛ ٢٠٠٠ .

27- berros, J. B. (2008). Mon enfant et la télévision. (P. Couderchon, Trad.) Bruxelles: de boeck.

28- debarbieux, e. (2008). les dix commandements contre la violence à l'école. paris: odile jacob

29- Fourquet, D. C.-p. (2003). La télévision et ses influences. Bruxelles: de boeck

30- Lacroix, J.-M. (1997). violence et télévision. paris: presses de la sorbonne nouvelle

31- Lekeu, R & all (2004).l'agressivité chez les personnes âgées. Bruxelles : Kluwer.

32- Tremblay, r., Hartup, w., & Archer, j. (2005). developemental origins of aggression. new york: the guilford press

الملاحق

مقياس السلوك العدواني

بين يديك أخي المعلم/المعلمة مقياس به بعض الأنماط السلوكية العدوانية يرجى منك المساعدة في التعرف على الأطفال الذين يظهرون مثل هذه الأنماط وذلك بالاستعانة بالقائمة المرفقة.

حاول من فضلك أن تكون دقيقا في إجابتك وان تحدد مدى انطباق كل عبارة على الطفل وذلك بوضع علامة (x) أمام العبارة في الخانة التي ترى أنها هي الأكثر انطباقا عليه كما نرجو ألا تضع أكثر من علامة واحدة أمام كل عبارة. الرجاء تقييم كل طفل في الصف وحده علما أن البيانات التي ستقدمها تستخدم لأغراض الإرشاد فقط ويتم المحافظة على سريتها.

نشكر لكم حسن تعاونكم.

الاسم	الجنس	التخصص
السن	المدرسة	السنة الدراسية

م	العبرة	لا يحدث	أحيانا يحدث	يحدث باستمرار
١	يسبب الأذى للآخرين بطريقة غير مباشرة.			
٢	يبصق على الآخرين.			
٣	يدفع أو يخمش أو يقرص الآخرين.			
٤	يشد شعر الآخرين أو آذانهم.			
٥	يعض الآخرين.			
٦	يرفس أو يضرب أو يصفع الآخرين.			
٧	يرمي الأشياء على الآخرين.			
٨	يحاول خنق الآخرين.			
٩	يستعمل أشياء حادة ضد الآخرين.			
١٠	يمزق أو يشد أو يمزغ ملابسهم.			
١١	يلوث ممتلكاته.			
١٢	يمزق دفاتره أو كتبه أو أي ممتلكات أخرى.			
١٣	يمزق دفاتر أو كتب أو أي ممتلكات للآخرين.			
١٤	يمزق أو يشد أو يمزغ ملابس الآخرين.			
١٥	يلوث ملابس الآخرين.			
١٦	يمزق المجلات والكتب أو أي ممتلكات عامة أخرى.			
١٧	يتعامل بخشونة مفرطة مع الأثاث كضربه أو رميه على الأرض أو كسره.			
١٨	يكسر النوافذ.			
١٩	يبكي ويصرخ.			
٢٠	يضرب الأشياء بقدميه وهو يصرخ ويصيح.			
٢١	يرمي بنفسه على الأرض ويصيح ويصرخ.			
٢٢	يضرب بقديه أو يغلق الأبواب بعنف.			
٢٣	يقوم بأشياء أخرى (حدها).			

طريقة التصحيح وتفسير النتائج:

- عدد فقرات المقياس (٢٣) فقرة.
- الأوزان:
 - لا يحدث أبدا (صفر).
 - يحدث أحيانا (١).
 - يحدث دائما (٢).
- الدرجة الكلية للمقياس تتراوح بين (صفر إلى ٤٦).
- اعتبرت العلامة (٢) فما فوق مستوى عال من العدوانية.

مكانة المسن في الأسرة الحضرية في ظل التغيرات الاجتماعية الراهنة - قراءة سوسيولوجية -

أ. هشام سبع/جامعة محمد البشير الإبراهيمي، برج بوعريبيج، الجزائر

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى التعرف على مكانة المسن في الأسرة في ظل التغيرات الاجتماعية الراهنة. وذلك بتوضيح جوانب التدهور التي أثرت في تحديد علاقة المسن مع أفراد أسرته ، ولأن المجتمع الجزائري شهد جملة من خلال التغيرات التي طرأت على نظمه وأبنيته الاجتماعية. كالتحوّل الذي شهدته أكبر مؤسسة اجتماعية وهي الأسرة من خلال انتقالها من ممتدة إلى نووية. ومن مجتمع ريفي إلى حضري ، فإن بوادر التغير الاجتماعي بدأت تظهر في الأسرة وخصوصا الحضرية منها في وقتنا الحالي ، كالاستقلالية وحب الانفصال عن العائلة الكبيرة، أدى هذا النمط من التغير إلى حالة لا استقرار وتراجع في مكانة المسنين مع أفراد أسرهم. ونتيجة لهذا الواقع الأليم الذي أضّر بفئة المسنين تأتي هذه الدراسة لتكشف عن المكانة الحقيقية للمسنين مع أفراد أسرهم في ظل التغير الاجتماعي الحالي.

الكلمات المفتاحية: الأسرة، المسن، التغيرات الاجتماعية، مكانة المسنين.

تقديم:

يزخر التراث السوسيولوجي بالعديد من الإسهامات والأدبيات الرائدة بفكرة التغير الاجتماعي، إلا أن الملاحظ هو غياب أو نقص الدراسات والأدبيات التي تركز على ربط مفهوم التغير بمشكلة كبر السن والشيخوخة ، ولأن ظاهرة التغير الاجتماعي لازمت الوطن العربي في الكثير من الأزمنة والمواقف التي مر بها ، فإن الأسرة العربية هي أيضا لم تسلم من ظاهرة التغير من خلال تغير تركيبها الاجتماعية والثقافية، والتي أثرت بشكل مباشر في شريحة كبار السن وشيخوختهم حتى أنها أصبحت هي الأخرى -كبار السن- مرهونة بمدى ما تفرزه تلك التغيرات من قيم ومعايير ثقافية وقيمية داخل الوسط الأسري الحضري المتغير. ولأن الموضوع يحمل أكثر من دلالة سوسيولوجية لإننا نحيطه بالتناول والفحص بطرح الإشكال التالي:

هل غيرت تركيبة الأسرة الحضرية في الجزائر مكانة المسنين ؟

إلى أي مدى تتأثر مكانة المسنين في ظل بروز ظاهرة التغير الاجتماعي داخل الأسرة الحضرية ؟

المحور الأول: قراءة سوسيولوجية في مفاهيم الدراسة.

أولاً : تحديد مفهوم الأسرة:

أ- الأسرة حسب علماء علم الاجتماع:

الأسرة هي المؤسسة الاجتماعية التي تنشأ من اقتران رجل وامرأة بعقد يرمي إلى إنشاء اللبنة التي تساهم في بناء المجتمع، وأهم أركانها، الزوج، والزوجة، والأولاد¹.

والأسرة هي المؤسسة الهامة التي تضمن إنتاج العلاقات الاجتماعية، بحيث تمثل مع باقي المؤسسات الأخرى كالمدرسة، وجماعة الأصدقاء... إلخ من خلال جعلها المجتمع أكثر اجتماعية بانتداب قانون اجتماعي يتخلل غالبية أفعالنا².

والأسرة هي أهم وأخطر مؤسسة تربية في المجتمعات، ففي أحضانها يبدأ النشء بتعلم مبادئ الحياة، والأسرة هي عبارة عن مجموعة من الأفراد يجمع بينهم رابط مقدس وهو الزواج، ونتيجة هذا الرابط تمتد الحياة من خلال الأطفال الذين يواصلون مسيرة الحياة، وهم جميعاً يعيشون في بيت واحد. والأسرة نوعان: النوع الأول هو الأسرة الممتدة أو الأسرة المركبة وهي التي تضم الأبناء والآباء والأجداد وتكون السلطة فيها بطبعة الحال للأب الأكبر سناً من الذكور، وهذا النوع من الأسر كان منتشرًا ولا زال في بعض الأرياف من الجزائر .

والنوع الآخر من الأسر هو الأسرة النووية، وهي منتشرة الآن في دولة الجزائر، وهي عبارة عن أسر صغيرة تضم الأبوين ومن يعملون من أبناء، وتعتبر هذه الأسرة مستقلة بذاتها اقتصادياً واجتماعياً، وتشرف على تربية أبنائها دون تدخل من أطراف أو أفراد آخرين من العائلة الكبيرة.

إن علماء الاجتماع مقتنعون بأن الأسرة هي الوحدة الأساسية لتنظيم الاجتماعي، إلا أن المفهوم لا زال من أكثر المفاهيم المانعة في تعريفها لديهم. وقد حاول بيرجس ولوك في كتابهما (الأسرة ١٩٥٣) أن يضعوا تعريفاً مضموناً: "الأسرة جماعة من الأفراد يربطهم الزواج والدم والتبني يؤلفون بيتاً واحداً ويتفاعلون سوياً ولكل دوره المحدد كزوج أو زوجة، أب، أم أخ وأخت مكونين ثقافة مشتركة" ويعرف كنجزلي ديفز الأسرة بأنها "جماعة من الأفراد تقوم العلاقات فيما بينهم على أساس قرابة النسب وهم أقارب بعضهم للبعض الآخر. ولا تحدد الأسرة التي ينتمي إليها الطفل في أجزاء من ماليزيا مثلاً عن طريق الميلاد، ولكن ذلك يعتمد على أداء بعض الأمور الاجتماعية ففي جزيرة منها يصبح الرجل الذي يدفع للمولود نقوداً أبا للطفل وزوجته تصبح أما للطفل، وفي جزيرة أخرى يعتبر الأب الرجل الذي يزرع الأشجار أمام باب المنزل.

إن ما يؤخذ على تعريف بيرجس أنه يتعاضى عن الاختلافات الحقيقية التي توجد داخل بناء الأسرة سواء بين المجتمعات أو داخل مجتمعات معينة. ويمكن اعتبار تعريفه للأسرة النووية وهي عبارة عن جماعة من الناس مكونة من الزوج والزوجة والأطفال غير البالغين، وتكون وحدة كجزء من المجتمع المحلي.

يعرف كل من بيلى وفاجيلي الأسرة الممتدة في كتابهما " المدخل الحديث للعائلة" بأنها : أي تجمع أوسع من الأسرة النووية تربطه علاقات السلالة، الانحدار" أو الزواج أو التبني"³.

¹ - عبد الله بن أحمد العلاف، العنف الأسري وآثاره على الأسرة والمجتمع، رسالة ماجستير غير منشورة، تخصص العلاج الأسري، قسم علم الاجتماع، الإمارات العربية المتحدة، ص ٣.

² Gilles Ferréol & Jean-Pierre Noreck, **Introduction à la Sociologie**, 7 édition, Armand Colin, Paris, p 120.

³ - عبد الهادي الجوهري، قاموس علم الاجتماع، المكتب الجامعي الحديث، الأزاريطة، ط ٣، الإسكندرية، مصر، ١٩٩٨، ص ١٩، ص ٢٠٠.

يعرف كل من اوغبرن ونيمكوف الأسرة بأنها رابطة زوجية (بين الزوج والزوجة والأبناء) أو رابطة الدم (بين الأباء والأبناء والأقارب) يعيشون في بيت واحد ويحيون حياة اقتصادية مشتركة وهي نظام عالي دائم الوجود كان وما زال مستمر، كما تعرف بأنها جماعة اجتماعية يرتبط أعضاؤها ببعضهم عن طريق روابط الدم أو الزواج أو التبني.¹

تعريف دانيال ميل "الأسرة هي الوحدة الاجتماعية الأولى المسؤولة عن نشأة الطفل وتلعب دورا أساسيا في سلوك الأفراد بطريقة سوية أو غير سوية من خلال النماذج السلوكية التي تقدمها لأبنائها فأنماط السلوك والتفاعلات التي تدور داخل الأسرة هي النماذج التي تؤثر بالإيجاب أو بالسلب في تربية الأبناء"²

ب- الأسرة حسب علماء النفس والبيولوجيا: أنها جماعة اجتماعية بيولوجية نظامية تتكون من رجل وامرأة تقوم بينهما رابطة زواجية مقررة وأبنائهما، ومن أهم الوظائف التي تقوم بها هذه الجماعة إشباع الحاجات العاطفية، وممارسة العلاقات الجنسية، وتهئية المناخ الاجتماعي الثقافي الملائم لرعاية وتنشئة وتوجيه الأبناء ويلاحظ أن الجماعة التي تتكون على الأساس السابق وتمارس هذه الوظائف. يختلف في بنائها اختلافا واضحا ومن ثمة يتعين عند تعريف الأسرة أن يتضمن التعريف الإشارة إلى النماذج المحتملة لهذه الجماعة. وتتألف الأسرة الإنسانية البيولوجية العامة من الأباء وأبنائهم. وقد تشتمل الأسرة البسيطة أبناء بالتبني الرسمي ويطلق على هذا الشكل الأسرة النواة أو الأسرة المباشرة أ البيولوجية أو الأسرة الأولية أو الأسرة المحدودة.³

- الأسرة النواة: نموذج أسري يتميز أعضائه بدرجة عالية من الفردية وبالحرر الواضح من الضبط الأسري، مما يترتب عليهما أن تعلوا مصلحة الفرد مصالح الأسرة ككل. وتمتاز الأسرة النواة بصغر حجمها حيث تتكون عادة من زوج وزوجة وأبنائهما غير المتزوجين ولا يحدث إلا نادرا وفي ظروف استثنائية أن يعيش احد الأبناء المتزوجين مع والديهم. ويرى كثيرا من الباحثين في علم الاجتماع الحضري أن هذا النموذج من الأسرة هو الذي يتزايد انتشاره في المجتمعات الحضرية.⁴

- الأسرة الممتدة: هي أسرة تتكون بنائيا من ثلاث أجيال أو أكثر ولهذا تضم الأجداد وأبنائهم غير المتزوجين وأبنائهم المتزوجين (أو بناتهم) وكذلك أحفادهم وتؤلف الأسرة القرابية (التي تنظم في ضوء علاقة الدم) عادة أسرة ممتدة، بينما لا تؤلف الأسرة الزوجية (القائمة على العلاقة الزوجية) أسرة ممتدة وطبقا لهذا التعريف فإن الأسر النواة التي تنتمي إلى جيل واحد لا تعتبر أسرة ممتدة وإن ارتبطت عن طريق الزواج التعددي.⁵

- تحديد مفهوم الأسرة الجزائرية: الأسرة هي ذلك المكان المفضل والأفضل للإنتاج الاجتماعي، فهي بذلك تمد المجتمع بمدخلات أساسية لا يمكن البتة الاستغناء عنها، وعلى غرار ذلك تتأثر بالوسط الذي تنشأ فيه وتؤثر فيه.

ومما لا شك فيه أن الأسرة الجزائرية كغيرها من الأسر عبر العالم بصفة عامة وبلدان العالم العربي بصفة خاصة شهدت تغيرات وتطورات ملموسة بفعل التغيرات العالمية التي حدثت، وأهمها نيل الكثير من الدول المستعمرة استقلالها ودخولها في

٢- يوسف ضامن الخطايبية، "مشكلات الأسرة الأردنية في شمال الأردن في ضوء بعض المتغيرات الاجتماعية" مجلة العلوم التربوية والنفسية، المجلد ١٤، العدد ١، مركز النشر العربي، جامعة البحرين، مارس، ٢٠١٣، ص ١٣٣.

² - Daniel Mellier, Henri lehall, Psychologie du développement, Dunot, Paris, France, 2002, p 226.

^٣ - محمد عاطف عيث، قاموس علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، الأزاريطة، الإسكندرية، دط، مصر، ٢٠٠٦، ص ١٥٦، ١٥٧.

^٤ - محمد عاطف عيث، المرجع السابق، ص ١٥٩.

^٥ - المرجع نفسه، ص ١٦١.

مرحلة التنمية الشاملة، التي تركزت أساسا على التصنيع والتحديث والتمدن الذي هو نتيجة طبيعية لعملية التصنيع والاتصال الحضاري بالمجتمعات المتقدمة بفعل التقدم الملحوظ في وسائل الإعلام والاتصالات الرقمية¹.

ج- الأسرة الجزائرية حسب الديوان الوطني للإحصاء: يقسم الديوان الوطني للإحصاء الأسرة إلى نوعين رئيسيين هما²:

- الأسرة العادية: تتكون الأسرة العادية من شخص واحد أو مجموعة من لأشخاص يعيشون في نفس المسكن ويحضرون ويتناولون معا أهم الوجبات وتحت مسؤولية رب الأسرة ، غالبا ما يربط هؤلاء الأشخاص قرابة دم أو مصاهرة.

الأسرة الجماعية: تتكون الأسرة الجماعية من شخصين أو أكثر وهي لا تستجيب للمقاييس المذكورة بالنسبة لتعريف الأسرة العادية، يعيش هؤلاء الأشخاص جماعيا في مسكن واحد أو في غرف عادية أو جماعية ، عادة ولأسباب مهنية يمكنهم العيش وتناول الطعام معا ، في هذا النوع من الأسر لا وجود لرب الأسرة .

ويتمثل هؤلاء الأشخاص عادة في عمال يعيشون في نفس المسكن ، مثل مستخدمو مصلحة الفنادق، أعضاء الجالية الدينية ، عمال الورشات المؤقتة لقطاع الأشغال العمومية وحفر الآبار وقواعد شركات النفط، الموسميون الزراعيون (ماعدا الرحل) ، ويجب توفر شرطين للانضمام إلى الأسرة الجماعية:

- مجموعة مكونة من شخصين أو أكثر.

- تكون مدة الإقامة (٥) أشهر على الأقل وبدون انقطاع في السكن الجماعي، الورشة...إلخ³.

الأسرة الراحلة: تعرف الأسرة الراحلة بأنها أسرة تعيش في الخيم وتنتقل دوريا أو باستمرار⁴.

تعقيب: لقد حدد التعريف الأول للأسرة واعتبرها المؤسسة الاجتماعية الأولى في المجتمع، أما التعريف الثاني للأسرة في هذه الدراسة فقد اعتبرها الوحدة الأساسية للتنظيم الاجتماعي في أي مجتمع. في حين أننا نجد كل من السوسولوجيين كينجزي ديفز وبيرجس ولوك والكثير من العلماء السوسولوجيين وحتى الأنثروبولوجيين يرون بان الأسرة هي جماعة من الأفراد يربطهم الزواج والدم والتبني، و في الجزائر " ديموغرافيا" فقد حدد الديوان الوطني للإحصائيات بأن الأسرة هي أنواع، منها الأسرة العادية، الأسرة الجماعية، والأسرة الرحالة في إشارة منه إلى الأسر التي تتشكل في الجنوب الجزائري. والتي تتميز بالتنقل والترحال الدائم طمعا وبحثا عن العشب، وقد حددت إحصائيا واعتبرت اجتماعيا بأنها أسر غير مستقرة ومهاجرة في كثير من المحطات والدراسات.

* إن الباحث ومن خلال التعاريف العلمية سالفة الذكر للأسرة، يستنتج بأن كل التعاريف التي حددها وذكرها الباحثين والمتتبعين لأحوال المجتمعات - سواء كانوا في علم الاجتماع، علم النفس، الثقافة وحتى علم الإنسان- وخاصة تلك المجتمعات المتغيرة يلاحظ بان مفهوم الأسرة يختلف في باطنه وحسب تشكيلة الأسر داخليا " عدد الأفراد" ولكن في ظاهر مجمل التعاريف التي ذكرت في هذه الدراسة والتي تركز على أن الأسرة خلية من الخلايا الأساسية في تشكل وظهور أي

١- إبراهيم عطاري، " أثر العوامل الاقتصادية في التغير الأسري في الجزائر"، المجلة الأردنية للعلوم الاجتماعية مجلد 5، العدد 3، عمان، الأردن، 2012، ص 368.

2 - Office National des Statistiques 5^{eme} Recensement Général De La Population et de L'Habitat, Guide Du Recenseur, Algérie, février 2008, p9.

3 - Ibid, P10.

4 - Ibid, P10.

مجتمع وهي طبعا من بين المؤسسات الاجتماعية في صقل وتشكيل أي مجتمع ومنه يمكن القول بان أي إسهام وتعريف للأسرة قد يخدمنا في ضبط وتتبع حالة الدراسة الراهنة.

ومن خلال ما سبق نقوم بصياغة التعريف الإجرائي للأسرة الجزائرية في هذه الدراسة على النحو التالي:

الأسرة الجزائرية في هذه الدراسة هي الأسرة التي تقيم بالوسط الحضري في كل من بلديتي الدراسة بولاية سطيف وهي التي تحتضن ضمن أفرادها، أفرادا مسنين قد يكونوا شيوخا أو جدات وعجائز كبيرات في السن.

ثانيا- تحديد مفهوم التغيير الاجتماعي:

اهتم الكثير من رواد علم الاجتماع بمفهوم التغيير وتحديد ماهيته ن والمنحى العام لتاريخه ومعناه، وغالبا ما سعوا لشرح التغيير الاجتماعي، ومحاولة التنبؤ بمستقبله وفق نموذج محدد . ومن الرواد الأوائل الذين انصب اهتمامهم حول مفهوم التغيير والمفاهيم المرادفة له، كالتقدم الذي يشير إلى أن (..ما يحدث أو يقع مستقبلا سيكون أفضل مما وقع أو حدث قبله)، والتطور الذي يشير إلى (زيادة في القدرة على استغلال البيئة واستخدام مصادر الثروة التي تحتويها)، والتغيير الذي يشير إلى (انتقال الفرد أو الجماعة من حالة إلى أخرى داخل بناء اجتماعي تتغير معه أنماط العلاقات والنظم الاجتماعية) هيربرث سبنسر، أوجست كونت، فلفيدو باريتو، كارل ماركس وميلر وغيرهم¹، وقد ارتأينا في هذه الدراسة التعرض بصورة موجزة لأفكار بعض هؤلاء الرواد أخذين في الحسبان ما يتلائم مع موضوع بحثنا الحالي في شقيه النظري والميداني.

يعتبر موضوع التغيير الاجتماعي أكثر مشكلات علم الاجتماع صعوبة وسحرا في وقت واحد، فقد بدأ علم الاجتماع مع محاولات أوجست كونت وغيره من علماء القرن التاسع عشر في تفسير أسباب التغيير الاجتماعي ومساره الذي وجد تعبيره الدرامي في كل من الثورة الفرنسية والصناعية في انجلترا وكان يسيطر على علم الاجتماع في القرن التاسع عشر البحث عن النظرية في التغيير الاجتماعي أو الديناميكي الاجتماعي التي ينبغي أن تكشف عن قوانين " حركة المجتمعات" وكان لقيام المجتمع الرأسمالي والثورات الاجتماعية التي صاحبت في ذلك النمو الحضري والسياسة الصناعية وحراك الناس والأفكار الفضل في إثارة الاهتمام الواضح بالتحليل السوسيولوجي للتغيير ويرى علماء الاجتماع في الوقت الحاضر أن التغيير الاجتماعي حالة طبيعية للمجتمع ، وقد لخص ويلبرت مور الصفات الرئيسية للتغيير في المجتمع المعاصر على النحو التالي:

- ١- بحث التغيير الاجتماعي السريع كثيرا أو دائما في أي مجتمع أو ثقافة.
- ٢- ليست التغييرات مؤقتة كما لا يمكن عزلها مكانيا، أي أن التغييرات تحدث في سلسلة متتابعة وليست في صورة أزمت " مؤقتة " ويتبعها فترات هادئة التغيير وتميل النتائج إلى الامتداد في أقاليم بأكملها أو في العالم بأكمله فعلا.
- ٣- إذا كان التغيير الاجتماعي محتمل الحدوث في كل مكان فقد تكون نتائجه هامة في كل مكان كذلك فإن له أساسا مزدوجا .
- ٤- تزداد نسبة التغيير المعاصر كثيرا عن نسبه في العصور السابقة سواء كان التغيير مخططا أو ناشئا عن نتائج ثانوية ناتجة عن الابتكارات المقصودة.²

^١ - الربيع جصاص، الحركات الإسلامية والتغيير الثقافي في المجتمع الجزائري ، دراسة تحليلية لنمو وتطور الحركة الإسلامية ومفهوم التغيير الثقافي في المجتمع الجزائري، رسالة دكتوراه في علم اجتماع التنمية جامعة منتوري ، قسنطينة، الجزائر، ٢٠٠٨ .

^٢ - عبد الهادي الجوهري، مرجع سابق، ص ٦٦، ٦٥.

- يتعرض كل جيرث وملز إلى ماهية التغير الاجتماعي ، ويعتبران أن التغير الاجتماعي : هو التحول الذي يطرأ على الأدوار الاجتماعية التي يقوم بها الأفراد ، وكل ما يطرأ على النظم الاجتماعية ، وقواعد الضبط الاجتماعي التي يتضمنها البناء الاجتماعي في مدة معينة من الزمن. ويذهب "جنزبرج" إلى ان التغير الاجتماعي : هو لك تغير يطرأ على البناء الاجتماعي في الكل والجزء وفي شكل النظام الاجتماعي ، ولهذا فإن الأفراد يمارسون أدوارا اجتماعية مختلفة عن تلك التي يمارسونها خلال حقبة من الزمن ، أي أننا إذا حاولنا تحليل مجتمع في ضوء بنائه القائم، وجب أن ننظر إليه من خلال لحظة معينة من الزمن، أي ملاحظة اختلاف التفاعل الاجتماعي الذي حدث له. هذا هو التغير الاجتماعي.¹

كما أضاف "جنزبرج" يقول "أنا لا أفهم تغيرا يتم، إلا في بناء المجتمع، أي في حجمه وتركيب أجزائه وشكل تنظيمه الاجتماعي ، وحينما يحدث هذا التغير في المجتمع يمارس أفراده مراكز وأدوار اجتماعية مغايرة لتلك التي كانوا يمارسونها خلال فترة زمنية سابقة". والتغير الاجتماعي في نظره هو الذي يتيح للأفراد أوضاعا اجتماعية مغايرة لأوضاعهم السابقة في بنائهم الاجتماعي، وتكون هذه الأوضاع بذاتها عرضة للتغير ، وإن الزمان هو العامل الرئيس في إحداث التغير، ولذا فهو يعرف التغير الاجتماعي مثل الزيادة أو النقص في حجم المجتمع أو في النظم والأجهزة الاجتماعية ، كما يشمل التغيرات في المعتقدات والمواقف.²

- كان الفلاسفة ومن بعدهم علماء الاجتماع متمسكين خلال فترة طويلة بافتراض مؤداه أن التغير الاجتماعي يخضع لنموذج متميز، لا بل متفرد : بالنسبة لماركس ، الذي يتبع هيجل في ذلك، وبالنسبة للماركسيين، ينجم التغير عن "تناقضات" لفكرة التناقض معان متعددة وغالبا غير أكيدة في التقليد الماركسي، وبالنسبة لمؤلفين آخرين مثل سان سيمون وكونت أن جميع المجتمعات تتجه بالضرورة نحو حالة مثالية أفضل، أما الآخرون الذين يعتبرون امتداد لروسو أو على الأقل تفسيرا ممكنا لروسو ، فيميلون على العكس إلى تفسير التغير على أنه تراجع ، ويريد البعض أن يرى في هذا الوجه أو ذاك للأنظمة الاجتماعية أو في هذا العامل أو ذاك.³

إن فهم الوجوه المعقدة للتغير الاجتماعي يؤدي إلى رفض التقاليد التي تريد، على غرار تقليد ماركسي معين ، أن يأخذ التغير بالضرورة شكل الإنقطاعات المتتابعة مع ظهور التناقضات، وهو ينطوي على رفض الفكرة القائلة بأن التغير الاجتماعي قد ينتج عن "أسباب" أساسية مزعومة. وهو ينطوي كذلك على رفض متغيرات "البنوية التي ترغب في أن يكون المستقبل متضمنا في "بنى" الحاضر. وغالبا جدا ما تقوم "البنى" المزعومة سوى بتعيين عناصر النظام التي قرر "البنوي" تعسفا، إضفاء الأولوية عليها.⁴

تعقيب:

لقد ضبط التعريف الأول للتغير الاجتماعي واعتبر بأنه التحول الذي يطرأ على الأدوار الاجتماعية التي يقوم بها الأفراد في أي مجتمع وفي أي بيئة، أما التعريف الثاني والخاص بالباحث جنزبرج فقد نظر إلى التغير الاجتماعي واعتبره- التغير الاجتماعي- هو الذي يتيح للأفراد أوضاعا اجتماعية مغايرة لأوضاعهم السابقة في المجتمع ، أما تعريف كارل ماركس فقد حدد قيمة

¹ - دلال ملحس استيتية، التغير الاجتماعي والثقافي، دار وائل للنشر والتوزيع، ط ١، عمان، الأردن، ص ٢١، ٢٢ .

^٢ - دلال محسن استيتية، مرجع نفسه ، ص ٢٢ .

^٣ - رمون بودون ، فرانسوا بوريكو، المعجم النقدي لعلم الاجتماع ، ترجمة سليم حداد ، ديوان المطبوعات الجامعية ، ط ١، الجزائر، ١٩٨٦، ص ١٦٧،

^٤ - رمون بودون، فرانسوا بوريكو، المرجع نفسه، ص ١٧٢ .

اجتماعية واقتصادية جوهرية لمفهوم للتغير الاجتماعي. لأنه يحقق لطبقة واسعة من المجتمع وهي طبقة العمال العدالة والمساواة الاجتماعية، ثم يحقق راحة واستقرار وعدالة اجتماعية للأفراد إذا أراد المجتمع أن يتغير من الظلام إلى النور، كما أكد كارل ماركس بان مسألة التغير أكثر من ضرورة خصوصاً في المجتمعات الاقتصادية الرأسمالية.

* إن الباحث ومن خلال التعاريف العلمية سألته الذكر للتغير والتغير الاجتماعي يستنتج بأن تطور هذا المفهوم بشكل رهيب من فلسفة إلى أخرى، ومن علم لآخر، ومع تعدد المداخل النظرية والفلسفية التي اجتمعت في تفسيرها وتحليلها وضبطها لمفهوم التغير الاجتماعي ومحاولة حصره حسب أسبقية وظهوره وكذا ميدان دراسته يؤكد الباحث على أن مفهوم التغير الاجتماعي يعرف من خلال السياقات الاجتماعية والتطورات الزمنية الدالة عليه ثقافياً وسوسولوجياً وحتى معيارياً وقيماً.

التعريف الإجرائي للتغير والتغير الاجتماعي: تشير فكرة التغير الاجتماعي في هذه الدراسة إلى التغير والتحول الذي طرأ على المجتمع الحضري الجزائري وفي الأسرة بولاية سطيف على وجه التحديد كتغير حالة الأسرة من ممتدة إلى نووية، وكذا التغير الذي حصل في النظرة إلى الشخص المسن وعدم تقبله لكبر سنه ومرضه، ولتدني حالته لاسيما في ظل بروز فقدان بعض من قيم التضامن لدى بعض الأسر الممتدة في الريف والحضر لولاية سطيف.

ثالثاً- تحديد مفهوم المسن:

أ- لغة: المسن في اللغة العربية بمعنى الكبر، يقال سن الرجل أي كبر، وأسن من هذا أي أكبر منه سناً (ابن منظور، لسان العرب، نقلاً عن: مصطفى محمد أحمد الفقي، ٢٠٠٨، ص ٢٣)، كما تستخدم العرب ألفاظ أخرى لوصف المراحل التي يمر بها كبير السن، فتقول "شيخ" وهو سن استبانته فيه السن وظهر عليه الشيب، ويقال هرم وهو أقصى العمر.¹

المقصود بالشيخوخة هو المرحلة العمرية المتقدمة وبالرغم من اختلاف المحطات التي تهتم بهذه الظاهرة في تحديد عمر وسنة فاصلة لمرحلة الشيخوخة. إلا أن التوافق الواضح فيما بين هذه المحطات والدراسات هو اعتبار أن سن ما بعد الستين هو المقصود بمرحلة الشيخوخة. وأما أصل اشتقاق اللفظ فيرجع إلى شاخ الإنسان: شيخاً وشيخوخة. و الفرد الشيخ هو من أدرك الشيخوخة وهي غالباً عند الخمسين وهي مرحلة فوق الكهولة ودون الهرم وهو ذو المكانة في العلم. أو الفضل أو الرياسة، ويقال هرم الرجل هرمًا أي بلغ أقصى الكبر وضعف فهو هرم.²

أ- التعريف الاصطلاحي للمسن: لقد تعددت تعريفات المسن تبعاً لتعدد التخصصات العلمية، وتنوع المترادفات العلمية لكلمة المسن مع الشيخوخة، الهرم العجز، والتقدم في العمر ومصطلحات كأرذل العمر كما ورد في القرآن الكريم، إلا أنه وفي هذه الدراسة تحديداً سنحاول الوقوف على أهم تلك التعريفات العلمية لمصطلح المسنين مراعين في ذلك تخصصنا وأهم التوجهات النظرية السوسولوجية التي ركزت في ضبطها لتعاريف أكثر إلماماً بهذه الشريحة الاجتماعية.

¹ - مصطفى محمد أحمد الفقي، رعاية المسنين، المكتب الجامعي الحديث، جامعة الأزهر، القاهرة، مصر، ٢٠٠٨، ص ٢٣.

² - مجمع اللغة العربية، المعجم الوجيز، وزارة التربية والتعليم، القاهرة، مصر، ١٩٩٠، ص ١٣٥٥، نقلاً عن: نعيم مطر جمعة الغلبان، "مرحلة الشيخوخة" متغيرات ومتطلبات في الجانب النفسي والبيولوجي"، أطروحة دكتوراه، جامعة عين شمس، القاهرة، مصر، ٢٠٠٨، ص ٣٦.

يؤكد محمد شعلان أن تصنيف المسنين يجب أن يتم وفقاً لأدائهم الوظيفي وإقبالهم على الحياة، وليس أعمارهم الزمنية ويدل على ذلك بقوله أن الشيخوخة قد تأتي في أي سن، بل أن هناك شيخوخة مرضية قد تظهر في سن المراهقة¹.

- المسن من الناحية النفسية والطبية: يرى المنظور النفسي بأن الفرد المسن هو الذي لا يستطيع عند تقدمه في العمر أن يتوافق بطريقة ناجحة باعتبار أن التوافق الذاتي هو التغيير في السلوك من أجل التوافق بنجاح مع تغيير الموقف الاجتماعي، في حين يعرف المسن من المنظور الطبي بأنه " تلك التغيرات الفسيولوجية غير القابلة للرجوع والتي تحدث في الجسم نتيجة تقدمه في العمر وتستمر بصفة تصاعدية.

- المسن من المنظور الاجتماعي: أن المسن هو الشخص الذي بلغ سن الشيخوخة وافتقد المكانة والفاعلية الاجتماعية ليوافق مرحلة ضعف الارتباط بينه وبين المجتمع الأسري أو المجتمع الخارجي .

إن المسن هو الشخص الذي تجاوز الستين من عمره ويزداد اعتماده على غيره بازدياد تراجع وظائفه الجسدية والنفسية والاجتماعية ، ويختلف هذا تبعاً لشخصية المسن والمعايير الاجتماعية والثقافية السائدة في المجتمع².

المسن من منظور الخدمة الاجتماعية: بأن مسن، معمر هو الشخص كبير السن وينطبق هذا التعبير على الفرد الذي يتخطى عمره ٦٥ سنة والمشتغلون بعلم النفس يحددون مجتمع المسنين من السكان بثلاث فئات الفئة الأولى من (٦٤٦ سنة) ويسمونها الشيخوخة المبكرة والفئة الثانية من (٧٤٦ سنة) وتسمى الشيخوخة الوسطى، ومن ٧٤ سنة فما فوق يسمونها الشيخوخة المتأخرة³.

المسن حسب معجم العلوم الاجتماعية: الشيخوخة الهرم هي وصول السكان إلى سن الشيخوخة ويعتبر من المعطيات العامة في البلدان النامية أو المتطورة ، ويعتبر معدل الحياة في الاتحاد الأوروبي ٧٤ سنة بالنسبة للرجال أو ٨١ سنة للمرأة وهذا حسب سنة ٢٠٠٩ بالنسبة إلى الإسقاطات الديموغرافية يكون معدل الحياة بالنسبة لربع السكان في البلدان المتطورة أكثر من ٦٥ سنة. وفي الوقت الذي يشيخ فيه السكان فإن وضعية ونشاط الأشخاص المعمرين قد يختلفان كلياً وإطلاق اسم الإحالة على التقاعد يعتبر كلياً عن هذا الأمر، فإن انقطاع النشاط يؤدي إلى انحصار العلاقات الاجتماعية وإلى البقاء في البيت وفي الدائرة الأسرية المحدودة⁴.

تحديد مفهوم كبار السن: عرف علماء الطب المسن بأنه " هو كل من تجاوز سن الشباب وتظهر عليه حالة من التدهور الصحي والإدراكي مع ضعف عام لوظائف الأعضاء الحيوية للجسم ، وعرف علماء الخدمة الاجتماعية المسن بأنه هو " كل من تعدى سن الخامسة والستين واقتصر القدرة على تسيير أنشطته الحياتية ويتطلع إلى عون المؤسسات الاجتماعية⁵.

¹ - مصطفى محمد أحمد الفقي ، مرجع سبق ذكره، ص ٢٥ .

² - كمال يوسف بلان، " دراسة مقارنة لسمة القلق عند المسنين المقيمين في دور الرعاية أو مع أسرهم "، مجلة جامعة دمشق، المجلد ٢٥، العدد (٢٠١) ٢٠٠٩، دمشق، سوريا، ص ٢١.

³ - أحمد شفيق السكري، قاموس الخدمة الاجتماعية، دار المعرفة الجامعية، الأزاريطة، مصر، ٢٠٠٠.

⁴ - فرانسوا دورتيه، معجم العلوم الإنسانية ، ترجمة جورج كنورة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط ١، الإمارات العربية المتحدة، ٢٠٠٩، ص ٥١٨.

⁵ - خالد عطية السعودي، " صور كبار السن في كتب التربية الإسلامية في مرحلتى التعليم الأساسي والثانوي في الأردن : دراسة تحليلية" ، المجلة الأردنية للعلوم الاجتماعية، المجلد ٥، العدد ٢، عمان، الأردن، ٢٠١٢، ص ٢٤٩.

* إن الباحث ومن خلال تلك التعاريف العلمية سألقة الذكر للمسن يستنتج بأن التحديد العلمي للمسن جاء وفق تخصصات عديدة منها النفسية والاجتماعية والطبية وحتى البيولوجية. وكلها تتفق في مضمونها على أن المسن مرحلة من المراحل العمرية التي يمر بها الشخص الذي عادة ما يفوق سنه ستون سنة فما فوق ، وهو السن القانوني للتقاعد تقريبا في كل دول العالم. وذلك راجع لتدني المستوى الصحي وكذا البدني من الناحية الفيزيولوجية ، مع تدني مستوى الصبر والاستيعاب والقدرة الجسدية على التحمل، لما لهذه المراحل العمرية من بداية الأفول والعوز الجسدي والاستطاعة وخرف الشيخوخة، ومجمل التغيرات التي تظهر على الشخص المسن ما فوق ستون سنة.

٣- التحديد الإجرائي لمفهوم المسن: يظهر تعريف المسن في هذه الدراسة من خلال التحديد العمري للشخص المسن، والذي يفوق ٦٠ سنة، ومن خلال هذا التحديد تشمل هذه الدراسة الأشخاص كبار السن سواء تعلق الأمر بالمسنين ذكورا وإناث (شيوخ وعجائز)

المحور الثاني: مشكلات الأسرة العربية المتغيرة وكبار السن.

يشارك كبار السن في الأسرة العربية أبناءهم المسكن والمعيشة ولا سيما الأبناء الذكور، إذ يعد الابن الكبر مسؤولا عن والديه ، وخاصة الأم في حالة وفاة الأب. وبالتغير الاجتماعي وانحصار حجم الأسرة وتقلصها، وخروج المرأة إلى العمل، وظهور الاستقلالية، بدأ الأبناء يحاولون التنصل من مسؤولياتهم اتجاه آبائهم ، وخاصة مشاركتهم في المسكن، وهكذا بدأ كثيرون من كبار السن يعانون مشكلات مالية، خاصة أولئك الذين لم يدخروا في شبابهم ما يكفيهم في مثل هذه الظروف ، لذا فإن معظم المسنين في العديد من الأسر يعانون الفقر والعوز¹.

فقد كان نتاج التغير التكنولوجي، الذي شهدته المجتمعات العربية في مجال الرعاية الطبية وتحسن خدماتها، أن ارتفعت معدلات متوسط الأعمار، وبالتالي حدثت زيادة في أعداد المسنين بالقياس إلى عدد السكان. وأبرزت هذه الظاهرة العديد من الظواهر المصاحبة لها كتغير مكانة الأب ومركزه الاجتماعي والاقتصادي ، فقد أدى كبر سن الأب إلى إحالته إلى التقاعد وبالتالي فقد وظيفته التي كانت تمنحه القوة وضعف مركز السيادة الذي كان يتحلى به في المجتمعات التقليدية سابقا. ويؤدي هذا الوضع الجديد غالبا إلى تغير في نوع المعاملة التي كان يلقاها أفراد الأسرة المسنون ، ففقدوا مكانتهم كجماعة توجيه وإرشاد (جماعة مرجعية)، توجه أفراد الأسرة ، ويستمتع إلى نصائحها وإرشاداتها، وفقدت الجدة مكانتها كجليسة مفضلة للأطفال قديما وحل محلها شريط الفيديو أو الخادمة والمربية.

إن المشاكل الأسرية تختلف من أسرة لأخرى وهذا يكون بحسب المجتمعات التي تنتمي إليها، وما تحتويه هذه المجتمعات من اعتقادات وأفكار وثقافات. فما هو مشكلة في أسرة ومجتمع قد لا يكون مشكلة في مجتمع آخر ، ولا شك أن الأسرة في عصرنا الحديث تتعرض لعدد من المشاكل نتيجة التغيرات الاجتماعية والثقافية التي يعبرها البعض شديدة الوطأة على نظام الأسرة الحديث. وتشير سناء الخولي إلى أنه من النادر أن تكون حياة الأسرة والزواج كاملة طوال دورة حياتهما، ولأن كثيرا من الأحداث التي تتعرض لها الأسرة تؤدي إلى حدوث المشكلات هي غالبا ، تلك التي ليس لها الإمكانيات الملائمة بمواجهة الأحداث².

ومن هذا المنطلق يمكن أن نبين أهم المشكلات التي تتعرض لها الأسرة والتي تؤثر بدورها على مكانة المسنين ما يلي:

¹ - نخبه من المختصين، علم الاجتماع الأسري، الشركة العربية المتحدة للتسويق والتوريدات، دط، القاهرة، مصر، ٢٠٠٨، ص 621.

² - أحمد عبد اللطيف أبو أسعد وسامي محسن الختاتنة، سيكولوجية المشكلات الأسرية، دار المسيرة للنشر، ط ٢ ، عمان، الأردن، ٢٠١٤، ص ٥٢ .

أ- المشكلات النفسية وتأثيرها على المسن داخل الأسرة :

تؤثر المشكلات النفسية في العلاقات الأسرية بين الزوج وزوجته أو بين الوالدين وأبنائهما، تأثيراً سلباً في بعض الأحيان، حيث تظهر في سوء التوافق النفسي للفرد وفي علاقاته مع غيره من الأفراد، وعدم قدرته على التفاهم مع أسرته¹. وفي الجو الأسري، تنشأ تيارات المشاعر الانفعالية، حيث يشعر الطفل بنوع من الحب نحو والديه، إذا ما توفر له قدر من الإشباع والشعور بالسعادة، ويشعر بنوع من الكراهية إذا ما لم يتوافر ذلك الإشباع، كما أن أسلوب الآباء في التعبير عن الحب لبعضهما، أو لأطفالهما يؤثر في تحديد الجو الانفعالي للأسرة. وقد أشار "ريكسون" إلى ضرورة أن نصل بالطفل إلى حالة وسط بين الثقة وعدم الثقة بالعالم الخارجي، ذلك أن الحالة الأولى تجعله غير قادر على إدراك الأخطار الحقيقية في الخارج، بينما الحالة الثانية تدفع به إلى العزلة وكلا الحالتين غير مرغوب فيهما.

ب- المشكلات الاجتماعية وتأثيراتها على فئة المسنين مع أسرهم :

غالبا ما تنشأ المشكلات من اضطراب العوامل البيئية للأسرة، فتضعف من تماسكها وتفقد قوة العلاقات بين أفرادها. ومن أهم هذه المشكلات التي تنشأ نتيجة سوء العلاقة بين الآباء والأبناء، أو المشكلات الناتجة من قصور تشريعات أحوال الشخصية في حفظ الحقوق والواجبات وانحياز بناء الأدوار الاجتماعية لفشل دور أو أكثر في أداء واجباته الأسرية بكفاءة، والمشكلات الناتجة عن طريق الظروف السيئة ونجد من بين هذه المشكلات الاجتماعية²:

- مشكلة الفقر في الأسرة العربية وعلاقتها بالتغير :

إن معاناة الأسرة من مشكلة انخفاض الدخل يؤدي إلى العديد من المشاكل الأسرية مثل نقص التغذية، وما يترتب عليه من أمراض ومشكلات. فانتشار تلك الأمراض يساعد على انخفاض متوسط حياة الفرد. كما أن عدم إمكانية توفير الغذاء الكافي للأطفال يعرضهم لأمراض خطيرة، كما أن قلة الدخل يدفع بالأطفال للخروج من أجل العمل وهذا برغم صغرهم في السن، فيتركون مقاعد الدراسة من أجل مزاولة الأعمال، ويدفع الفقر البعض الآخر إلى الإجرام والسرقة.

- مشكلة الطلاق وتأثيرها في تغير الأسرة:

إن أسباب الطلاق يمكن إرجاعها إلى عدة عوامل، ومنها عدم التوافق الزوجي واختلاف المستوى الثقافي والاجتماعي بين الزوج والزوجة، والعقم وغير ذلك، أما عن أثر الطلاق على الأطفال فنجد له تأثير ضار عليهم فهؤلاء الأطفال يتعرضون لكثير من المآسي والضياع نتيجة لعدم كفاية المؤسسات والتنظيمات التي يكون مهامها أساسية رعاية هؤلاء الأطفال، وحتى إن كان أحد الأبوين هو الذي يهتم بالأطفال فلا شك أن الطفل في حاجة لرعاية أبوية معاً، فالأم وما تقدمه من حنان ورعاية على الطفل والأب والرعاية الدائمة له وتوجيهه أمر هام بالنسبة للطفل، والطلاق يعتبر من مخاطر الحياة الزوجية داخل الأسرة التي ينعدم فيها التكيف بين الزوجين³.

إن الطلاق مشكلة اجتماعية ونفسية وهو ظاهرة عامة في جميع المجتمعات حيث ازداد انتشاراً في مجتمعنا العربي في الأزمنة الحديثة والطلاق وما يترتب عليه من آثار سلبية في تفكك الأسرة وازدياد العداوة والبغضاء، والآثار السلبية على الأطفال

¹ - مرجع نفسه، ص ٥٤ .

² - محمد أحمد البيومي، علم الاجتماع العائلي، دراسة التغيرات في الأسرة العربية، دار المعرفة الجامعية، الأزاريطة، مصر، ٢٠٠٣، ص ٢٩ .

³ - السيد أحمد المخزنجي، " الأثر السيكولوجي والتربوي لعمل المرأة على شخصية الطفل العربي "، مجلة رسالة الخليج، العدد ٣٤، مكتبة التربية العربية، الرياض المملكة العربية السعودية، ١٩٩٢، ص ٥٦ .

ومن ثم الآثار الاجتماعية والنفسية العديدة بدءاً من الاضطرابات النفسية إلى السلوك المنحرف والجريمة وغير ذلك . ومما لا شك فيه أن تنظيم العلاقة بين الرجل والمرأة وتكوين الأسرة قد نال اهتمام المفكرين منذ زمن بعيد، ونجد في كل الشرائع والقوانين والأخلاق فصولاً واسعة لتنظيم هذه العلاقة وضمان وجودها واستمرارها ، ويهتم الدين ورجال الفكر وعلماء الاجتماع والنفس بهذه العلاقة فكل منهم يحاول ان يقدم ما يخدم نجاح هذه العلاقة لأن في ذلك استمرار الحياة نفسها وسعادتها وتطورها.

- مشكلة سوء التنظيم الأسري:

يشير سوء التنظيم الأسري إلى تحطيم الأسرة إلى تحلل بناء الأدوار وفشل واحد أو أكثر في القيام بدور طريقة ملائمة، ويدخل تحت هذا المحتوى العديد من المشكلات الأسرية مثل فساد الأبوة أو فقدانها، فذلك يؤدي إلى عدم القيام بالدور الذي يجب القيام به. وتعمل الأسرة بكل طاقاتها.

ج- المشكلات التربوية داخل الأسرة :

إن بداية مسؤولية تربية الأبناء تقع على الوالدين في الأسرة، وإن الأسلوب الشائع في معظم الأسر هو الأسلوب المفروض من الأب على الأبناء. فالأب في الأسرة مازال ذو قيمة وسلطة في تعاملنا بالوسط العربي ، وهو في بعض الأحيان سلبية على الأبناء، كما أن اللين قد يجعلهم يسيئون فهم الكثير من الأمور في حياتهم اليومية. ولذلك يجب على الآباء في أسرهم ان لا يكونوا قاسين في معاملتهم مع الأبناء بل يتفهمون مشكلات الأبناء بكل رحابة الصدر ودراية تامة.

د- المشكلات الاقتصادية وتغير الأسرة :

تتمثل المشكلات الأسرية في العديد من المؤشرات الاقتصادية كتدني المستوى المعيشي والفقير، وقد ذكر حسين عبد الحميد أحمد رشوان في كتابه " الأسرة والمجتمع " أن الفقر ، والذي ينظر إليه البعض على انه عدم القدرة على إشباع الحاجات الأساسية والبيولوجية التي تشكل حاجات يجب إشباعها¹ ، ويبدوا الفقر في حالة البطالة . أو قلة الدخل بما لا يكفي حاجات الإنسان، والفقر له تأثير حتمي على العلاقات الأسرية . فمن خلاله يسوء التصرف في الدخل ، وينخفض المستوى الاقتصادي للأسرة وتسود أمراض سوء التغذية، والضعف التام.

إن العامل الاقتصادي في كثير من المجتمعات مسؤولاً إلى حد كبير عن المشكلات الأسرية، فالفقر أو البطالة يؤديان إلى نقص الموارد المادية مما يخلق المشكلات الأسرية التي تسبب لأفراد الأسرة الشعور بالقلق والخوف².

وقد تضطر الأسرة الفقيرة بسبب انخفاض هذا المستوى إلى تشغيل الأطفال في سن مبكرة، الأمر الذي يحرم الطفل من فرصة التعليم، ويعرضه لعوامل الانحراف في المجتمع ، ويعد انخفاض المستوى الاقتصادي مسؤول عن التجاء الأسرة للعيش في مساكن سيئة من الناحية الصحية تؤدي إلى نشأة ألوان المرض قد تعوق رب الأسرة عن الاستمرار في عمله أو ترفع من زيادة احتياجات الأسرة بسبب حاجة أفرادها للعلاج وللأدوية.

¹ - حسين عبد الحميد أحمد رشوان، الأسرة والمجتمع " دراسة في علم اجتماع الأسرة " ، مؤسسة شباب الجامعة، د ط، الإسكندرية، مصر، ٢٠١٢، ص ١٠٥.

² - أحمد عبد اللطيف أبو أسعد و سامي محسن الختاتنة، مرجع سابق ، ص ٥٤.

ويبدو الجانب الاقتصادي وتأثيراته على الأسرة في الحالات التي تقل فيها الموارد الاقتصادية والمادية فلا تصبح ملائمة لمواجهة جوانب الإنفاق المختلفة كما يبدو في عدم الإنفاق في الحياة الزوجية على أسلوب الإنفاق وتحديد المسؤول في موارد الأسرة الاقتصادية. كأن يصر الزوج مثلاً على أن يكون المسؤول عن الإنفاق في المنزل ، وقد يكون الإسراف أو البخل من طرف الزوج وتصبح المشكلة معقدة عندما ينعدم الدخل . وتعتبر المشكلات الاقتصادية من أكبر المشكلات الأسرية لأنها تولد مشكلات أخرى كانهخفاض دخل الأسرة الذي يؤدي إلى التفكك الأسري¹.

المحور الثالث: - تغير التركيبة السكانية في العالم وتأثيرها على المسنين.

طراً تغير جذري على التركيبة السكانية في العالم في العقود الأخيرة. ففي الفترة ما بين عام ١٩٥٠ وعام ٢٠١٠، ارتفع العمر المتوقع في جميع أنحاء العالم من ٤٦ عاماً إلى ٦٨ عاماً، ويتوقع أن يزيد ليبلغ ٨١ عاماً بحلول نهاية هذا القرن. ويجدر بالملاحظة أن عدد النساء يفوق عدد الرجال في الوقت الحالي بما يقدر بنحو ٦٦ مليون نسمة فيما بين السكان الذين تبلغ أعمارهم ٦٠ سنة أو أكثر. ومن مجموع من بلغوا ٨٠ سنة أو أكثر، يصل عدد النساء إلى ضعف عدد الرجال تقريباً، ومن بين المعمرين الذين بلغوا من العمر مائة سنة يصل عدد النساء إلى ما بين أربعة أو خمسة أضعاف عدد الرجال. وللمرة الأولى في تاريخ البشرية، سيزيد عدد الأشخاص الذين تجاوزوا الستين عن عدد الأطفال في العالم في عام ٢٠٢٥².

وهناك الآن ما يربو على ٧٠ مليون نسمة تزيد أعمارهم عن ٦٠ عاماً. وبحلول عام ٢٠٥٠، سيكون هناك بليوناً نسمة، أي ما يزيد عن ٢٠ في المائة من مجموع سكان العالم، تبلغ أعمارهم ٦٠ عاماً أو أكثر. وستكون زيادة عدد كبار السن أكثر وأسرع في بلدان العالم النامي، وستصبح آسيا المنطقة التي تضم أكبر عدد من كبار السن، وتواجه أفريقيا أكبر زيادة متناسبة في هذا الصدد. ومع مراعاة هذا، من الواضح أنه يلزم إيلاء المزيد من الاهتمام للاحتياجات والتحديات الخاصة التي يواجهها العديد من كبار السن. بيد أن المساهمة الجوهرية التي يمكن أن يسهم بها أغلبية كبار السن من الرجال والنساء في أعمال المجتمع إذا توفرت ضمانات كافية، تتسم بالقدر نفسه من الأهمية. وتكمن حقوق الإنسان في صميم جميع الجهود المبذولة في هذا الشأن.

وخلال العقد الماضي، أدت شيخوخة السكان إلى الأخذ بسياسات وبرامج جديدة، احتل فيها القطاع الاجتماعي مكان الصدارة، كما يتبين من أغلبية المساهمات التي قدمت من أجل إعداد هذا التقرير. وصممت العديد من الحكومات في بلدان ذات اقتصاديات متقدمة النمو ونامية أو بدأت سياسات ابتكارية في النظم الصحية أو الضمان الاجتماعي أو الرعاية الاجتماعية. وبالإضافة إلى هذا، تم سن العديد من الوثائق الإطارية المتعلقة بالسياسات العامة، بما في ذلك خطط عمل وطنية معنية بالشيخوخة

استنتاجات ختامية:

لا شك أن للتغير الاجتماعي آثار وتبعات في العديد من مناشط الحياة الاجتماعية. وفي هذه القراءة السوسولوجية يتبين بان شريحة كبار السن قد تأثرت بفعل عوامل التغير الاجتماعي جراء تدهور المكانة والدور الحقيقيين للمسنين في الأسرة داخل الوسط الحضري ، ومع تدني الأوضاع الصحية ونقص موارد الدخل وانعدامها في بعض الأحيان وتغير تركيبة وبنية الأسرة الحضري هو الذي عجل بظهور تحولات في النظرة إلى المسن من قيمة اجتماعية مضافة داخل الأسرة إلى عبئ إضافي

¹ - حنان عبد الحميد العاني، الطفل والأسرة والمجتمع، دار الصفاء للنشر والتوزيع، ط ١، عمان، الأردن، ص ٦٩، ٧٠ .

² - <http://www.un.org/ar/events/olderpersonsday/background.shtml>

قد يكون منسي وقد يكون غير مرغوب فيه في بعض الحالات. لذلك لا بد من تضافر جهود الأفراد والأسر والمؤسسات للحفاظ على هذا المورد البشري والموروث الجمالي للأسرة. خصوصاً العربية منها لأن المسن في الوسط المجتمعي يبقى محك ومضرب للقوة والمثل والحكمة حيثما وجد.

قائمة المراجع:

- ١- محمد عاطف عيث، قاموس علم الاجتماع ، دار المعرفة الجامعية، الأزاريطة، الإسكندرية، دط، مصر، ٢٠٠٦،
- ٢- دلال ملحس استيتية، التغيير الاجتماعي والثقافي، دار وائل للنشر والتوزيع، ط١، عمان، الأردن، ٢٠١٢
- ٣- ريمون بودون ، فرانسوا بوريكو، المعجم النقدي لعلم الاجتماع ، ترجمة سليم حداد ، ديوان المطبوعات الجامعية، ط١، الجزائر، ١٩٨٦.
- ٤- مصطفى محمد أحمد الفقي، رعاية المسنين، المكتب الجامعي الحديث، جامعة الأزهر، القاهرة، مصر، ٢٠٠٨.
- ٥- مجمع اللغة العربية ، المعجم الوجيز ، وزارة التربية والتعليم، القاهرة، مصر، ١٩٩٠، ص ١٣٥٥، نقلًا عن :نعيم مطر جمعة الغلبان، "مرحلة الشيخوخة" متغيرات ومتطلبات في الجانب النفسي والبيولوجي"، أطروحة دكتوراه، جامعة عين شمس، القاهرة، مصر، ٢٠٠٨.
- ٦- أحمد شفيق السكري، قاموس الخدمة الاجتماعية، دار المعرفة الجامعية، الأزاريطة، مصر، ٢٠٠٠.
- ٧- فرانسوا دورتيه، معجم العلوم الإنسانية، ترجمة جورج كتورة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط١، الإمارات العربية المتحدة، ٢٠٠٩.
- ٨- نخبة من المختصين، علم الاجتماع الأسري، الشركة العربية المتحدة للتسويق والتوريدات، دط، القاهرة، مصر، ٢٠٠٨.
- ٩- أحمد عبد اللطيف أبو أسعد وسامي محسن الختاتنة، سيكولوجية المشكلات الأسرية، دار المسيرة للنشر، ط ٢ ، عمان، الأردن، ٢٠١٤.
- ١٠- محمد أحمد البيومي، علم الاجتماع العائلي، دراسة النظريات في الأسرة العربية، دار المعرفة الجامعية، الأزاريطة ، مصر، ٢٠٠٣.
- ١١- حسين عبد الحميد أحمد رشوان، الأسرة والمجتمع " دراسة في علم اجتماع الأسرة" ، مؤسسة شباب الجامعة، د ط، الإسكندرية، مصر، ٢٠١٢.
- ١٢- حنان عبد الحميد العناني، الطفل والأسرة والمجتمع، دارالصفاء للنشر والتوزيع، ط١، عمان، الأردن.
- ١٣- عبد الهادي الجوهري، قاموس علم الاجتماع، المكتب الجامعي الحديث، الأزاريطة ، ط٣، الإسكندرية، مصر، ١٩٩٨.

- ١٤ - الربيع جصاص، الحركات الإسلامية والتغير الثقافي في المجتمع الجزائري، دراسة تحليلية لنمو وتطور الحركة الإسلامية ومفهوم التغير الثقافي في المجتمع الجزائري، رسالة دكتوراه في علم اجتماع التنمية جامعة منتوري ، قسنطينة، الجزائر، ٢٠٠٨.
- ١٥ - عبد الله بن أحمد العلاف، العنف الأسري وآثاره على الأسرة والمجتمع، رسالة ماجستير غير منشورة، تخصص العلاج الأسري، قسم علم الاجتماع، الإمارات العربية المتحدة، دت.
- ١٦ - كمال يوسف بلان، "دراسة مقارنة لسمة القلق عند المسنين المقيمين في دور الرعاية أو مع أسرهم"، مجلة جامعة دمشق، المجلد ٢٥، العدد (٢+١) ٢٠٠٩، دمشق ، سوريا.
- ١٧ - يوسف ضامن الخطيبية، "مشكلات الأسرة الأردنية في شمال الأردن في ضوء بعض المتغيرات الاجتماعية" مجلة العلوم التربوية والنفسية، المجلد ١٤، العدد ١، مركز النشر العربي ، جامعة البحرين، مارس، ٢٠١٣.
- ١٨ - إبراهيم عطاري، أثر العوامل الاقتصادية في التغير الاجتماعي في الجزائر، المجلة الأردنية للعلوم الاجتماعية، المجلد ٥، العدد ٣، عمان، الأردن، ٢٠١٢.
- ١٩ - خالد عطية السعودي، " صور كبار السن في كتب التربية الإسلامية في مرحلتي التعليم الأساسي والثانوي في الأردن : دراسة تحليلية" ، المجلة الأردنية للعلوم الاجتماعية ، المجلد ٥، العدد ٢، عمان ، الأردن، ٢٠١٢ .
- ٢٠ - السيد أحمد المخزنجي، "الأثر السيكولوجي والتربوي لعمل المرأة على شخصية الطفل العربي"، مجلة رسالة الخليج، العدد ٣٤، مكتبة التربية العربية، الرياض المملكة العربية السعودية، ١٩٩٢.
- ٢١ - Gilles Ferréol & Jean-Pierre Noreck, **Introduction à la Sociologie** , 7 édition , Armand Colin , Paris .
- ٢٢ - Daniel Mellier, Henri lehall, Psychologie du développement, Dunot , Paris , France , 2002.
- ٢٣ - Office National des Statistiques 5^{eme} Recensement Général De La Population et de L'Habitat, Guide Du Recenseur, Algérie, février 2008.
- ٢٤ - <http://www.un.org/ar/events/olderpersonsday/background.shtml>

دور الإذاعة المحلية في التوعية المرورية

أ.وليدة حدادي/جامعة محمد لمين دباغين سطيف ٢

ملخص:

يمتاز الإعلام المحلي بقدرة كبيرة على تلبية الحاجات المختلفة للمواطن المحلي، لارتباطه بثقافة البيئة المحلية وظروفها الواقعية، بحيث تكون قيمها الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية أسلوب وشكل ومضمون الإعلام المحلي، فهو يستطيع في إطار سياسة إعلامية محددة المعالم والأهداف أن يساهم في تشكيل الملامح الحضارية للمجتمع المحلي، من خلال تغيير العادات والسلوكيات غير السليمة. وتعتبر الإذاعة المحلية أهم وسائل الإعلام المحلي التي تمارس دورا فعالا في تنمية المجتمع المحلي وتوعية أفراده ليكونوا على إدراك ووعي بمشكلات بيئتهم، خاصة المشكلة المرورية أو ما يسمى بإرهاب الطرقات، الذي أصبح يهدد أمن الفرد والمجتمعات، نظرا للأثار البشرية والمادية الخطيرة التي تنجر عن عدم احترام شروط السلامة المرورية.

الكلمات المفتاحية، الإعلام المحلي، الإذاعة المحلية، التوعية المرورية، الأمن المروري، المشكلة المرورية.

مقدمة:

إن للإعلام مكانة هامة في أي مجتمع من المجتمعات لما له من دور فعال في تشكيل وتفعيل مظاهر الحياة المختلفة، وربط قنوات الاتصال بين الأفراد والشعوب والأمم ومعالجة القضايا المتعلقة بالإنسان الاقتصادية والسياسية والثقافية والأمنية.

ويعتبر الإعلام المسموع من العوامل الرئيسية في ظهور وتطور الوعي المروري، بفضل ما يمتاز به من قدرة على مخاطبة كل الشرائح الاجتماعية على اختلاف مستوياتهم وتوجهاتهم والتأثير فيهم، خاصة مع انتشار الإذاعات المحلية، ومواكبتها للتطورات التكنولوجية الحديثة، التي ساهمت في عودة الإذاعة إلى ساحة المنافسة كواحدة من أهم وسائل الإعلام، فلم تعد وسيلة للترفيه فقط بل صار بإمكانها معالجة المواضيع المختلفة، ومنها موضوع التوعية من مخاطر حوادث المرور باستخدام أساليب جذابة وتقنيات متطورة للتأثير في اتجاهات وقيم وسلوكيات المستمعين.

وقد أصبحت المشكلة المرورية من أخطر المشكلات التي تهدد أمن الفرد والمجتمع، حيث أدت إلى خسائر مادية وبشرية فادحة، أثرت سلبا على أمن واقتصاد الدول، إذ أصبحت تسمى بإرهاب الطرقات، وهذا ما تعكسه إحصائيات حوادث المرور بوضوح، "فإحصاءات الحوادث المرورية المسجلة في العالم تفيد بأن عدد المصابين يصل سنويا إلى أرقام خيالية،

حيث أن هذه الحوادث مسئولة عن إزهاق أرواح حوالي مليون وأربعمائة ألف شخص، في حين يصل عدد الجرحى والمصابين إلى نحو 50 مليون شخص بينهم نحو خمسة ملايين يصابون بحالة عجز دائم، بينما تصل الخسائر المادية إلى حوالي ٨٠ مليار دولار سنويا، أي ما يكفي لمعالجة مشاكل المجاعة والفقر والتخلف في عدة دول، وهذه الأرقام مرشحة للارتفاع، ما لم يتم وضع حلول جذرية للحد من الحوادث القاتلة التي تعود أسبابها الأساسية إلى العنصر البشري وتحديدا إلى السائقين، الذين تؤكد الدراسات والأبحاث المختلفة أنهم يتحملون نسبة تتراوح ما بين ٧٥ إلى ٨٥% من الحوادث المرورية، وتتوزع النسبة الباقية على أخطاء المشاة ونقائص العربات ومساوئ الطرقات وعدم توفير قواعد السلامة اللازمة لها. وفي البلاد العربية على وجه الخصوص، أصبحت حوادث المرور والآثار الوخيمة الناتجة عنها تتفاقم يوما بعد يوم. وتشير الإحصائيات المتوفرة أن العالم العربي يفقد سنويا أكثر من ٢١ ألف شخص نتيجة حوادث السير، في حين يصل عدد المصابين والجرحى إلى حوالي ٢١ آلاف شخص، ناهيك عن الأضرار الجسيمة التي تتسبب فيها تلك الحوادث التي يصل عددها إلى أكثر من نصف مليون حادث في السنة^١. "والجزائر كغيرها من الدول تتكبد الكثير من الضحايا جراء حوادث المرور، فخلال الأشهر السبعة الأولى من سنة ٢٠١ تم تسجيل ٢٣٩ حادثا خلفا ٢٤٤ قتيلًا، و٣٨٠٦ جريحًا"^٢، كما أكد وزير النقل أن الجزائر تخسر أكثر من ١٠ مليار دينار سنويا بسبب حوادث المرور التي أدت إلى وفاة ٤٥٤ شخصا وجرح ٦٩٥٨ آخرين في ٤٢٨٦ حادثا مروريا خلال سنة ٢٠١^٣. لئما يتوقع أنه بحلول عام 2020 سوف تزيد الوفيات بسبب حوادث المرور حوالي 80% في البلدان ذات الدخل المنخفض والمتوسط^٤. وهنا تبرز أهمية الإذاعة المحلية إضافة إلى المؤسسات الأمنية والاجتماعية في التوعية بخطورة الوضع من خلال البرامج التحسيسية والإرشادية، التي تنمي الشعور بالمسؤولية واحترام قواعد المرور وقوانين السير، والالتزام بشروط السلامة المرورية، من أجل الحد من فداحة الخسائر المادية والبشرية.

أولا- تحديد المفاهيم:

١- الإذاعة المحلية:

هي جهاز إعلامي يخدم مجتمعا محليا، خاصا، محدود العدد، يعيش فوق أرض محدودة المساحة، متناسقا من الناحية الاقتصادية والثقافية والاجتماعية، تبث برامجها لتلبية الحاجات المختلفة للمواطن المحلي، وإن كانت وسيلة إعلام وتثقيف وترفيه فإن عليها التزاما خاصا يربطها بنوعية الحياة في المجتمع المحلي^٥. كما تعرف الإذاعة المحلية على أنها أحد روافد الإعلام المحلي الذي ينبثق من بيئة معينة ومحددة، ويوجه إلى جماعة بعينها ترتبط مع بعضها البعض، بحيث يصبح الإعلام مرتبطا ارتباطا وثيقا بحاجة هؤلاء الناس، ومتصلا بثقافة البيئة المحلية وظروفها الواقعية، مما يجعله انعكاسا للتراث الثقافي والقيمي في هذه البيئة، بحيث تكون قيمها الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية أسلوب وشكل ومضمون الإعلام المحلي^٦.

١. أحمد مطهر عقبات: دور وسائل الإعلام في نشر التوعية المرورية، مركز الدراسات والبحوث، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، الرياض، ٢٠٠٧، ص: ٥.

٢. المركز الوطني للوقاية والأمن عبر الطرق، إحصائيات حوادث المرور الجسمانية خلال الأشهر السبعة الأولى من سنة ٢٠١١، ص: ٤-٦.

٣. جريدة النصر، حوادث المرور تكبد الجزائر خسائر بأكثر من ١٠ آلاف مليار سنويا، عدد ١٤٣٠٤٤، يومية، ١٠/٢/٢٠١٤، ص: ٤.

٤. رحيمة حوالت: التكاليف الاقتصادية والاجتماعية لحوادث المرور بالجزائر، عدد ١١، مجلة الباحث، ٢٠١٢، ص: ١٠٣.

٥. عبد المجيد شكري: تكنولوجيا الاتصال (إنتاج البرامج في الراديو والتلفزيون)، ط ١، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٦، ص: ١٣-١٤.

٦. منى سعيد حديدي وسلوى إمام علي: الإعلام والمجتمع، ط ٢، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ٢٠٠٤، ص: ١٦٢.

٢- التوعية المرورية:

هي جهود إعلامية تربوية تثقيفية لتكوين ثقافة مرورية لدى الأفراد، تجعلهم يلتزمون بالقواعد والقوانين المرورية المختلفة، ويتحملون المسؤولية الكافية للوقاية والتقليل من حوادث المرور، والمساهمة في توفير الأمن المروري.

إذ تعتبر التوعية من الوسائل الناجعة في الوقاية فهي مكملية لمهمة التربية والتكوين، حيث تتضمن تذكيرا لمستعمل الطريق بالأخطار المحدقة به، وتحذيره منها بتزويده بنصائح دقيقة لتفاديها، إلا أن ذلك يتطلب أن تكون مواضيعها مستقاة من نتائج علمية، ومستندة للمناهج العلمية الحديثة لتشخيص العوامل المختلفة المتسببة في حوادث المرور، لذا تكون برامجها التوعوية مستندة إلى نتائج البحوث الميدانية ودراسة وتحليل كل المعطيات المتعلقة بالحوادث المرورية، ونجاحها يتوقف على حسن انتقاء الوسائل المناسبة من مطويات ولافتات وملصقات وغيرها.¹

ثانيا- خصائص الإذاعة المحلية:

تعتبر الإذاعة على العموم من أهم وسائل الإعلام في مجال التوعية والإقناع، من خلال قدرتها على الوصول إلى عقول وقلوب المستمعين من مختلف شرائح المجتمع، خاصة في ظل التطورات التكنولوجية المتلاحقة، نظرا للخصائص التي تتمتع بها، وهي:

- قدرة الإرسال الإذاعي على تجاوز واختراق كل الحواجز الطبيعية مثل الجبال والأنهار والبحار والصحاري، ونتيجة لذلك فإن الحكومات كانت ومازالت تلجأ إلى الإذاعة وتتخذها سلاحا لتحقيق أهداف مختلفة وذات أبعاد متعددة في الداخل والخارج، نظرا للميزة الخاصة باتساع التغطية الجغرافية للإرسال الإذاعي، التي تجعل الكلمة المسموعة تصل إلى أكبر عدد ممكن من الجماهير.²

- تتميز الإذاعة المسموعة بالحيوية، فهي تنبض بصوت الإنسان إضافة إلى الموسيقى والمؤثرات الصوتية، لتقدم للجمهور المتلقي في قالب فني جذاب وممتع.³ فالراديو له القدرة على التأثير الوجداني في جمهور المستمعين من خلال الكلمة المسموعة والإيقاع النفسي، الذي يوفر لهم الراحة والاسترخاء، ويخفف من حدة التوتر والضغطات النفسية التي يعيشونها في حياتهم اليومية.

- تساهم الإذاعة في رسم الإطار النفسي للمستمعين، فالبرامج الصباحية تهيئ للناس اليقظة للعمل والتفأول، بينما تقوم برامج السهرة بالترفيه والاستمتاع، وفي النهاية تخلق جوا من الاسترخاء والاستسلام للنوم، وبذلك فهي تخلق جوا إيقاعيا لاستقبال يوم جديد.⁴

- أجهزة الإذاعة من أسهل الوسائل الإعلامية استخداما، لسهولة نقلها وخفتها، ولتعدد أحجامها، حيث أصبحت توجد في ساعات اليد وفي علب السجائر المعدنية، وفي الآلات الحاسبة، وفي الهواتف النقالة، وهي سهلة التشغيل بالبطاريات في حالة تعذر وجود الكهرباء.¹

¹ . الهاشمي بوطالي: مهام المركز الوطني للوقاية و الأمن عبر الطرق و إستراتيجيته في عملية الوقاية، العدد ٢٥ ، مجلة الوقاية والسياقة، المركز الوطني للوقاية و الأمن عبر الطرق، 2003 ، ص:58.

² . ماجي الحلواني: مدخل إلى الفن الإذاعي والتلفزيوني والفضائي، ط3، عالم الكتب، القاهرة، ٢٠٠٨، ص:١٨.

³ . سهر جاد وسامية أحمد علي: البرامج الثقافية في الراديو والتلفزيون، دار الفجر، القاهرة، ١٩٩٩، ص: ٢٦.

⁴ . محمد نصر مهنا: النظرية العامة للمعرفة الإعلامية للفضائيات العربية والعولمة الإعلامية والمعلوماتية، المكتبة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٣، ص: ١٢٣.

تساهم الإذاعة في خلق الإحساس الجمعي لدى الأفراد وعدم الشعور بالوحدة، فأصبح الفرد يحس أنه عضو في جمهور كبير من المستمعين يمكن التفاعل معه من خلال هذه الوسيلة.² حيث تكون الإذاعة ومذيعها همزة وصل بين المستمعين الذين يتفاعلون ويشاركون في حوارات حول مواضيع متنوعة، تؤدي إلى تكوين روابط وعلاقات إنسانية قوية بينهم.

تتميز الإذاعة بقدرتها على احتواء المستمع، وإثارة حاسة التخيل لديه، فهذا الإيحاء يدفعه دائما أثناء الاستماع للإذاعة للتخيل وتصور الأحداث والوقائع والشخصيات، ومنها يكون صور ومشاهد من خلال الأصوات التي يستقبلها.³ ذلك أن الإذاعة لا تقدم صور توضيحية مكتملة للأحداث لأنها تعتمد على حاسة السمع فقط.

إضافة إلى ما سبق فإن الإذاعة المحلية باعتبارها جهازا إعلاميا هاما يخاطب مجتمعا محليا يتميز بارتباط أفرادها مع بعضهم البعض لوجود قيم ثقافية واجتماعية واقتصادية وسياسية مشتركة بحيث يشكل بيئة متجانسة، من أجل تقديم مضامين بنفس مكوناتها الثقافية والقيمية، من خلال تقديم الأخبار التي تمهمهم وعرض القضايا والموضوعات التي تمس حياتهم اليومية، وفتح المجال واسعا أمامهم للمشاركة والتفاعل وإبداء آرائهم، لتفعيل دورهم في مختلف الأنشطة والفعاليات حتى يحسوا بالانتماء والتوافق الاجتماعي والثقافي، الذي يسهم في استقرار النسق الاجتماعي ككل. خاصة أن الإذاعات المحلية استفادت من ثورة المعلومات التي مكنتها من تجاوز البعدين الزماني والمكاني، من خلال خلق فضاءات افتراضية للمشاركة والحوار وتبادل الأفكار، وهذا ما يحول دور المتلقي السلبي إلى دور المشارك الإيجابي.

وتتميز الإذاعة المحلية بقدرتها على التأثير في جمهور المستمعين، من خلال علاقة الألفة والجو النفسي المريح الذي يحيط بعملية الاتصال، والذي يساهم في الاقتراب أكثر فأكثر من جمهور المستمعين.

كما تتميز بدورها الفعال كوسيط بين كل من السلطة والمواطن في المناطق التي تكون في بعض الأحيان شبه معزولة عن الإعلام إلا في المناسبات والأحداث الوطنية الكبرى.⁴

وتستطيع الإذاعة المحلية أن تمس كل الفئات في المجتمع المحلي باختلاف مستواهم الاجتماعي والتعليمي أكثر من الإذاعات المركزية، ثم إن معظم الشرائح الاجتماعية داخل البوادي والصحاري أين تزداد نسبة الأمية تجد ملاذها في الإذاعة المحلية.⁵

وفي ظل التطورات التكنولوجية الهائلة في مجال الإعلام والاتصال، وظهور العولمة الثقافية والإعلامية استطاعت الدول والحكومات التصدي للزخم الكبير من المعلومات والأفكار المستحدثة، نتيجة تعدد الوسائل الإعلامية من حيث الكم والنوع بفضل الإذاعات المحلية. وفي هذا الصدد يقول "دين أنتوطي" رئيس لجنة برامج الإذاعة في اتحاد الإذاعات الأوروبية خلال ندوة اتحاد إذاعات الدول العربية: " أن الإذاعة في أوروبا بتشجيعها فكرة الإذاعات المحلية وإذاعات المجتمعات الصغيرة، تمكنت من البقاء في وجه تحديات التقنيات المعاصرة واكتسبت المزيد من القوة الذاتية"، حيث أثبت هذا النمط

١. عواشة محمد حقيق: الرأي العام بين الدعاية والإعلام، الجامعة المفتوحة، مصر، ١٩٩٤، ص: ١٥٧.

٢. مصطفى حميد كاظم الطائي: الفنون الإذاعية والتلفزيونية وفلسفة الإقناع، ط ١، دار الوفاء، الإسكندرية، ٢٠٠٧، ص: ٢٢.

٣. محمد منير حجاب: وسائل الاتصال نشأتها وتطورها، دار الفجر، القاهرة، ٢٠٠٧، ص: ١٧٩.

٤. صالح بن بوزة: الصحافة الجهوية (المفهوم الخصائص والوظائف)، العدد ٣، حويلات الجامعة، ١٩٩٤، ص: ١٧٣.

٥. محمد الأمين موقي: الإذاعات المحلية (الفضاء الآخر)، العدد ٢، مجلة الإذاعات العربية، تونس، ١٩٩٨، ص ص: ٢٧-٢٨.

من الاتصال فاعليته، فالشخصية المحلية لهذا النوع من الإذاعات تساعد الأفراد على الاستجابة تلقائيا للموضوعات المتصلة بحياتهم.¹

ثالثا- وظائف الإذاعة المحلية:

تلعب الإذاعة المحلية كوسيلة إعلامية ذات أهمية كبيرة دورا فعالا في تحسين ظروف المجتمعات الصغيرة، من خلال رفع مستواهم الثقافي، وزيادة درجة الوعي لديهم بالقضايا الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية التي تهمهم، وذلك بحكم قربها من مستمعها، لأنها تخاطب المجتمع المحلي بلغته ورموزه، معتمدة على التبسيط والتصوير والواقعية الحية، ما ينعكس إيجابا على محتوى رسائلها الإعلامية، التي تكون في اتجاه خدمة المستمع وتلبية حاجاته ومتطلباته، لتحقيق التنمية الشاملة، ومواجهة تحديات الوضع الراهن. وتمثل وظائف الإذاعة عموما والإذاعة المحلية خصوصا في:

١- الوظيفة الإخبارية:

إن الخبر هو العمود الفقري في الخدمة الإعلامية، ولقد أصبح البحث عن الأخبار، والتقاطها، والسبق إليها، ونشرها، جوهر صناعة الإعلام المعاصرة، فالخبر هو أساس المعرفة ومن خلاله يمكن فهم كل ما يجري حولنا في عالمنا المعاصر.² فالإذاعة كوسيلة إعلامية تعمل على تحذير المجتمع من الأخطار الطبيعية مثل الهجوم أو الحرب أو الوباء، وتنقل معلومات نفعية كالأخبار الاقتصادية والجوية والتنموية وتلبي حاجة الفرد وفضوله في استطلاع البيئة ومعرفة ما يحيط به.³

٢- وظيفة نقل التراث (التعليم، التربية، التثقيف):

إن عملية التعليم هي إحدى وسائل التنشئة الاجتماعية للفرد، وتسعى الإذاعة في العديد من المجتمعات إلى عرض حصص تعليمية لأطفال المدارس وطلاب الثانويات والجامعات حتى يتمكنوا من فهم المقرر التعليمي للطور الذي ينتمون إليه.

كما تقوم الإذاعة كإحدى أهم وسائل الإعلام بدور تربوي من تعليم وتهذيب وحماية التراث الثقافي للأمة، ونقله من جيل إلى جيل، وتقوم بنشر المعرفة وتكوين الوعي الصحي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي والمروري، وغير ذلك من أنواع التثقيف الأخرى.

وفي هذا الصدد يؤكد "أوديغار" (Hodgar) أنه من المستحيل فهم الرأي العام في أمة ما ما لم ندخل في اعتبارنا تلك القوى المادية والأدبية التي تشكل شخصية هذه الأمة، وللتعرف على اتجاهاتها وآرائها يجب علينا الاهتمام بدراسة المنظمة الاجتماعية التي تعطي للفرد معتقداته وتشكل اتجاهاته، فالإنسان في المجتمع يتأثر بالأسرة، الدين، التقاليد، نظام الدولة، الأصدقاء، والجماعات ذات النفوذ كالأحزاب والهيئات ووسائل الإعلام.⁴

١. سعد لبيب: الإذاعة في عصر التلفزيون وأقمار الاتصال (رؤية من الغرب)، العدد ١٧٦، مجلة الفن الإذاعي، القاهرة، أكتوبر ٢٠٠٤، ص ٨-٩.

٢. محمد سيد محمد: وسائل الإعلام من المناادي إلى الانترنت، دار الفكر العربي، القاهرة، ٢٠٠٨، ص: ١٧.

٣. عبد الله بوجللال: الدور الوظيفي لوسائل الإعلام، عالم الاتصال (سلسلة الدراسات الإعلامية)، ط ١، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٩٢، ص: ١٠.

٤. المرجع نفسه، ص: ١٣.

٣- وظيفة التوجيه والإرشاد:

ترتبط عملية التوجيه والإرشاد بتكوين الاتجاهات، وفي نفس الوقت أيضا تتطلب عملية تكوين الاتجاهات الفكرية المرغوبة عند الأفراد التنسيق بين المسؤولين في الإذاعة والحكومة والمجتمع بمؤسساته المختلفة، وخاصة إذا كان المجتمع يمر بمرحلة إصلاح أو تغيير واسع النطاق، الأمر الذي يترتب عليه ظهور قيم واتجاهات جديدة فيه، وتستطيع الإذاعة أن تؤدي دورا هاما في إكساب الفرد اتجاهات جديدة، أو تعديل وتغيير اتجاهاته القديمة بما يتلاءم مع طبيعة المجتمع، والتي تسمى بالاتجاهات المرغوبة، ويتوقف ذلك على حسن اختيار المادة الإعلامية.¹

٤- الوظيفة الترفيحية:

يحتاج الإنسان إلى قدر كبير من التسلية والترفيه من أجل أن يكون الاعتدال أو التوازن النفسي للفرد في حياته، ولهذا نجده يسعى إلى تحقيق هذه العملية بشتى الوسائل المتوفرة في مجتمعه، وللإذاعة دور كبير في التنفيس عن المتعب، وشغل أوقات الفراغ.

٥- وظيفة الشرح والتفسير:

بما أن تكوين الرأي العام مرتبط في الأساس بما تقدمه وسائل الإعلام من معلومات وأخبار، فقد أصبح من الضروري تفسير وشرح هذه المعلومات، فالفرد في المجتمع الحديث لا يملك الوقت أو الجهد أو المال ما يمكنه الوصول إلى مدلولات دقيقة لجميع المعارف أو تكوين صور حقيقية للعالم الذي حوله.²

٦- الوظيفة التنموية:

تستطيع الإذاعة أن تؤدي دورا هاما في تحقيق التنمية الشاملة، فالتنمية ظاهرة متعددة الجوانب، ويمكن تقسيمها إلى جوانب فرعية، ولكنها في الواقع ترتبط ببعضها البعض، فهناك التنمية الثقافية والاقتصادية والإدارية والسياسية، حيث تسهم الإذاعة في المجال الاجتماعي في عملية التنمية من خلال ترشيد الاتجاهات وتعديلها نحو الإنتاج، والاهتمام بالقيم الإيجابية ومعالجة القيم السلبية، وغرس القيم التكنولوجية الحديثة، والقضاء على المشاكل الاجتماعية التي تعيق التنمية مثل مشكلة محو الأمية، التي تعيق التنمية اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا. كما تسهم الإذاعة في المجال الاقتصادي بغرس قيم العمل المنتج لدى أفراد المجتمع، كما يستطيع نشر القيم الاقتصادية الجديدة، والتي تعتمد على استخدام التكنولوجيا الحديثة في الإنتاج، وللإذاعة أهمية متعددة الجوانب في المجال السياسي، حيث تقوم الإذاعة أيضا بشرح وتفسير الاتجاهات السياسية المختلفة حتى يتعرف عليها المجتمع، وتستخدمها الحكومة في نشر سياساتها داخل المجتمع، كما يستخدم الراديو في الحرب النفسية والإعلام السياسي، وتوضيح العلاقات الدولية بين الدول.³

٧- وظيفة الإعلان والتسويق:

تكتسي هذه الوظيفة أهمية كبيرة لأطراف السوق البائع والمنتج وحتى المستهلك، حيث يكون هدفها تجاري، دعائي واستهلاكي.

١. طه عبد العاطي نجم: الاتصال الجماهيري في المجتمع العربي الحديث (الموضوع والقضايا)، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٥، ص: ١١٩.

٢. عبد الله بوجلال: المرجع السابق، ص: ١١.

٣. طه عبد العاطي نجم: المرجع السابق، ص: ١٢٣.

رابعاً- وسائل تحقيق الأمن المروري:

وللحد من العواقب الكبيرة لحوادث المرور التي تهدد أمن الفرد والمجتمع، تبرز ضرورة وجود تساند وظيفي بين مختلف مؤسسات التنشئة الاجتماعية من أجل توعية الجماهير من مخاطر الطرقات وتحقيق أقصى شروط السلامة المرورية، خاصة الإذاعة المحلية التي تعتبر من أهم وسائل الإعلام وأكثرها قرباً من المجتمع المحلي بمختلف شرائحه وفئاته، وذلك من خلال البرامج الإرشادية والتحسيسية التي تتضمن نشر المعلومات عن أنظمة وقوانين المرور وأنواعها وعقوباتها، والحرص التربوية التي تنطوق للمشكلة المرورية في شكل بحوث وحوارات ومناقشات، إضافة إلى الدور الذي تقوم به بقية المؤسسات كوزارة النقل، والمركز الوطني للوقاية والأمن عبر الطرقات، ومنظمات المجتمع المدني، والمؤسسات الأمنية التي تعمل على التطبيق الصارم للإجراءات المنصوص عليها في قانون المرور، وغيرها من المؤسسات كالأُسرة والمدرسة والجامعة التي تلعب دوراً في التربية المرورية للأطفال والشباب من أجل خلق قيم إيجابية وسلوكيات سليمة في التعامل مع الطرقات، من خلال تعريف النشء بالقانون، وغرس قيم المسؤولية الاجتماعية لضبط السلوك الاجتماعي.

وتعتبر وسائل تحقيق الأمن المروري الذي يستهدف تحقيق الأمن الجسدي والنفسي لمستعملي الطرق سواء كانوا مشاة أو ركاباً أو سائقين، ضرورة لتقليل من خطر حوادث المرور، ومسؤولية تتقاسمها عدة جهات تتمثل في المتخصصين في هندسة الطرق، وفي تسيير حركة المرور، والقائمين على برامج التربية والتعليم الموجهة لمستعملي الطرق، إضافة إلى الصناعيين والفنيين في مجال صناعة وتصميم السيارات. وذلك من خلال:

١- التربية المرورية:

تعتبر التربية المرورية التي يتلقاها الأطفال في المدارس، وفي سن مبكرة هي العقيدة التي تكبر في صدورهم مع مرور السنين، ولذلك توليها المجتمعات المتطورة أهمية بالغة وتدرجها في مناهجها التربوية وبرامجها الدراسية، بحيث تجعلها مادة أساسية في مناهج التربية والتعليم، وتحدد مواضيع لكل طور بما يتناسب مع أعمار الأطفال وقدراتهم العقلية وميولاتهم النفسية لأجل تحقيق الأهداف الآتية:¹

- اكتساب المهارات العقلية اللازمة لضمان سلامة استخدام الطريق والمركبة.

- اكتساب الحقائق والمعلومات الخاصة بسلامة استخدام الطريق والمركبة.

- اكتساب اتجاهات وقيم إيجابية تخص سلامة استخدام الطريق والمركبة.

كما يمكن تخصيص أيام توعوية في المدارس حول الوقاية من حوادث المرور لتعليم الأطفال قواعد المرور وآداب استعمال الطريق، إلا أن التربية المرورية تعتبر من المهام الأساسية للأسرة كذلك، لأنها المصدر الأساسي للأطفال للحصول على المعلومات المرورية، واكتساب الاستجابات السلوكيات السليمة، من أجل تحقيق أقصى شروط السلامة المرورية.

٢- تطوير وتحسين منظومة التكوين والتدريب على السياقة:

¹. هبة شعوة: دور القناة الإذاعية الأولى في التوعية المرورية (دراسة تحليلية وميدانية)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، ٢٠٠٦/٢٠٠٧، ص: ٧٧.

إن توفير كل المعطيات الموضوعية لقيام مدرسة نموذجية لتعليم السياقة يصل حتما إلى بناء شخصية السائق ذي الكفاءة الفنية وذي القدرات العقلية في استيعاب قانون المرور واحترامه، ومن أجل تفعيل دور مدارس تعليم السياقة في تحقيق الأمن المروري يجب استخدام عدة طرق حسب ما صرح به "مراد عجيجي"،¹ هي:

-مراجعة منظومة التكوين من حيث البرامج والمضامين.

-تأطير مدارس السياقة وتحديد المناهج والوسائل وتطوير نظام الامتحانات، إذ يجب أن تتوفر مدارس تعليم السياقة مقاييس المدرسة من قسم مجهز بوسائل تكوينية ووسائل بيداغوجية.

-إعادة النظر في مفهوم تكوين السائقين، ومراجعة السياسة الوطنية لمنح الاعتماد لمدارس تعليم السياقة، أي أن ليس كل إنسان يستطيع أن يكون له مدرسة سياقة بل يشترط فيه أن يكون له شهادة جامعية لأن مهنة السياقة لم تعد حرفة بسيطة، بل أصبحت مهنة علمية لأن حركة المرور في تطور، وسيأتي وقت يصبح فيه الذي يجهل الإعلام الآلي لا يستطيع قي ادة سيارة.

-وعن كيفية إجراء الامتحانات ومنح رخص السياقة والدعوة إلى ضرورة إنشاء مركز وطني لرخص السياقة، وقد صدر المرسوم التنفيذي الذي يحدد المهام وتنظيم هذا المركز الذي سيتكفل بكل ما يتعلق برخص السياقة سواء تعلق الأمر بنظام الامتحانات أو التكوين أو التعليم أو البرامج والمناهج أو حتى شكل الرخصة ونوعها.

-إعادة النظر فيما يخص الممتحنين ومدة التكوين والفحوص الطبية.

-التركيز في عملية التكوين على عنصر التوعية المرورية للممتحنين وتوجيههم إلى كيفية الوقاية من حوادث المرور.

٣- توفير طرق أكثر أمنا وسلامة:

وذلك بترميم وصيانة الطرق وتزويدها بالوسائل اللازمة من أجل تعزيز السلامة المرورية، "لأن وقوع حوادث المرور في نقاط جغرافية معينة بشكل متكرر يكون نتيجة عيوب الطرق، كعدم وجود ممرات للمشاة في الشوارع الرئيسية، وضيق بعض الشوارع وازدحامها ووجود منحنيات خطيرة، أو أن يلون الطريق غير مجهز بالإشارات والعلامات الدولية للمرور، أو أن يكون تصميم الطريق لا يتناسب مع حركة وسرعة السيارات".²

٤- توفير الإمكانيات الضرورية لفحص المركبات دوريا:

تعد المركبة من العناصر الرئيسية والهامة لضمان السلامة المرورية، من حيث الصلاحية وإجراء الفحوصات الدورية وتفقد التجهيزات الفنية من أضوية ومكابح (فرامل) ومقود وحزام أمان ومسند رأس، وكذلك التقيد بالحمولات المسموح بها وزنا وحجما، فقد يؤدي انفجار الأطر في حالة سرعة مفرطة إلى انقلاب السيارة أو فقدان السيطرة عليها، وقد تؤدي الكوابح المعطلة إلى عدم القدرة على تفادي عائق الطريق.³ لذلك تعتبر الرقابة التقنية الدورية للمركبات ضرورية لتحديد سلامة المركبات وصلاحياتها للاستعمال، إضافة إلى الرقابة المكثفة لوكالات الفحص التقني.

¹ . المرجع نفسه، ص ص: ٧٤-٧٥.

² . جاسم خليل ميززا: الإعلام الأمني بين النظرية والتطبيق، ط ١، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، ٢٠٠٦، ص: ١٩٠.

³ . علاء عبد الرحمن البكري: الندوة العلمية حول حجم حوادث المرور في الوطن العربي، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، السعودية، ٢٠٠١، ص: ١٠.

٥- مراجعة المادة القانونية لضمان شروط فعالية أكبر للوقاية والردع:

بالعمل على وضع التشريعات والقوانين والأنظمة التي تهدف إلى ضبط وتنظيم النقل والمرور على الطريق، ومراجعتها بشكل دوري لاتخاذ إجراءات أخرى لتدعيم آليات تطبيق قانون المرور، ووضع القواعد المرورية السليمة، التي تحفظ حق المجتمع، وتسهم في السلامة المرورية، وفرض العقوبات على المتجاوزين للقواعد القانونية المنصوص عليها في قانون المرور للتقليل من المخالفات والحوادث المرورية.

٦- الرقابة المرورية:

لتحقيق الأمن المروري لا يكفي سن القوانين والتشريعات المرورية واتخاذ إجراءات التعديل اللازمة، وإنما يجب العمل على تطبيق القانون واحترامه، من خلال متابعة ورقابة دائمة وفاعلة على عملية تنفيذ القوانين من طرف الأجهزة الأمنية (الشرطة والدرك الوطني، والحماية المدنية).

وعموما يتمثل دور الجهاز الأمني في^١:

- التشريع: من خلال الاشتراك في وضع كافة التشريعات والقوانين والأنظمة، التي تهدف إلى ضبط وتنظيم النقل والمرور على الطريق، ووضع القواعد المرورية السليمة التي تحفظ حق المجتمع وتسهم في السلامة المرورية.

- الرقابة والتنفيذ: من خلال عدد من الإدارات المختصة، وهي إدارة ترخيص السائقين والمركبات، إدارة المرور وإدارة الدوريات الخارجية، وتتلخص هذه الواجبات في تنظيم المرور، ضبط المخالفات وتنظيم مخططات الحوادث ومنح التراخيص من خلال عملية فحص المركبات.

- الإجراءات الهندسية والفنية: التي تتم بالتعاون والتنسيق مع الجهات الأخرى ذات العلاقة في هذا المجال، مثل تحديد اتجاهات السير ووضع الإشارات المرورية اللازمة لها، وتحديد الأماكن والتقاطعات الخطيرة التي تكثُر فيها حوادث المرور وإيجاد الحلول الهندسية اللازمة لها، إضافة إلى المشاركة في التعداد المروري خاصة في التقاطعات لإيجاد البرامج التي تساعد على إنسانية حركة المرور في جميع الأوقات.

- التوعية والتعليم المروري: من خلال مباشرة العمل الإعلامي تجاه المواطن، والمساهمة مع المؤسسات الإعلامية المختلفة في النشاطات الوقائية التعليمية.

٧- التوعية والتحسيس:

يتطلب مواجهة المشكلة المرورية تساندا وظيفيا بين مختلف الهيئات المعنية بالسلامة المرورية، من أجل التخطيط لبرنامج شامل يعالج أسبابها المتعددة على حد سواء، إلا أن التوعية من خلال تنظيم الحملات التحسيسية بشكل دائم لا مناسبة، تعتبر أهم الأسس في عملية الوقاية المرورية، لأن المشكلة المرورية هي مشكلة سلوك ووعي اجتماعي. "فالوعي هو الهدف الأول في مجتمع يريد أن ينمو ويتطور في مواجهة الأخطار، ومن هنا كان على وسائل الإعلام أن تتحد لمواجهة المشكلات من خلال دورها الفعال في التوعية والتربية المستديمة، وذلك من خلال التخطيط للحملات الإعلامية التي تسهم في القضاء على هذه المشاكل، بهدف مخاطبة الجمهور وتوعيته بإبعاد هذه العوائق وحثه على تعديل أفكاره وأساليب جديدة والاعتناع بها، وتبني ممارسات جديدة تدل على حدوث تغيير في الاتجاهات والقيم و التحول نحو مواقف أكثر

^١. هبة شعوة: المرجع السابق، ص: ٧٠.

إيجابية¹، إلا أن نجاح أي حملة إعلامية يرتبط أساسا بالتخطيط والتنفيذ الجيد لها في إطار الخصائص النفسية والاجتماعية للمجتمع، وتقييمها بشكل مستمر من أجل تحقيق أهدافها بأقصى درجة من الكفاءة والفاعلية.

خامسا- دور الإذاعة المحلية في نشر الوعي المروري:

أصبحت حوادث المرور من أبرز المشكلات المعاصرة وأخطرها التي تعيق تطور المجتمعات وتنميتها، وذلك نظرا للخسائر البشرية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية، التي تنعكس في النسب المرتفعة للإصابات، الوفيات، إتلاف المركبات، والأمراض النفسية والاجتماعية. وهذا ما تعكسه إحصائيات حوادث المرور في كل دول العالم، "حيث أعلنت منظمة الصحة العالمية في تقريرها أن حوادث المرور في العالم خلفت مليون و١٨٠ ألف قتيل عام ٢٠٠٠، كما ارتفع عدد الجرحى إلى ما بين (٥ و٢) مليون إصابة أسفرت عن ٥ ملايين حالة عجز دائمة، وبحلول سنة ٢٠٢٠ يتوقع ارتفاع الإصابات بنسبة ٦٠%، والتوجه نحو المرتبة الثالثة في قائمة أسباب الوفاة والإصابة بالأمراض عوضا عن المرتبة التاسعة الحالية، وارتفاع القتلى إلى ٢.٣ مليون قتيل؛ ٩% منهم في البلدان الأقل امتلاكاً للوسائل"².

وللتقليل من مخاطر حوادث المرور أصبح الاهتمام المشترك لمختلف مؤسسات المجتمع بأبعاد المشكلة المرورية، وخاصة الإعلامية منها ضرورة من أجل التوعية المرورية، والوقاية من حوادث المرور، في إطار خطة واستراتيجية علمية دقيقة يقوم عليها المختصون في مختلف المجالات العلمية. ذلك أن المشكلة المرورية من المشاكل المعقدة التي لا ترتبط فقط بسلوك الإنسان وإنما تمتد لتشمل التكنولوجيا، الطبيعة، والثقافة، لذا فإن دراستها تتطلب تحليل دقيق لكل هذه العناصر.

وتعتبر الإذاعة المحلية أكثر الوسائل الإعلامية قربا من الجمهور، وأكثرها أهمية في نشر الوعي المروري من خلال الاعتماد على أشكال اتصالية مختلفة كالريبورتاجات والحوارات الإذاعية، والتمثيلات، والومضات الإخبارية، باستعمال المؤثرات الصوتية والموسيقية، التي تجعل الرسالة الإعلامية تصل إلى عقول ووجدان المستمعين، من أجل توعيتهم وإقناعهم بشروط السلامة المرورية، وتوجيههم إلى السلوك الصحيح، من خلال تنمية الشعور بالمسؤولية والالتزام بقواعد وقوانين السير المرورية، مما يساهم في التخفيف من حجم وخطر حوادث المرور، وتوفير الأمن المروري، الذي يعتبر عاملاً أساسياً لتحقيق التنمية الشاملة، ويتطلب ذلك جهوداً إعلامية تثقيفية وتربوية، مستمرة ومكثفة ومخططة للتعريف بمشاكل وأسباب وأثار حوادث المرور النفسية والاجتماعية والاقتصادية والبشرية، والإلمام الواسع بكل ما يتعلق بالهجوم من أنظمة وقوانين، وبناء استراتيجيات واضحة وهادفة إلى ترسيخ الوعي المروري، من خلال نشر الثقافة المرورية لدى الأطفال أولاً، وتنشئهم على مبادئ وقيم مجتمعية إيجابية، بالتعاون مع مختلف الجهات المعنية بالسلامة المرورية من وزارة النقل، والأجهزة الأمنية، والوكاز المختصة، ومدارس تعليم السياقة، ومنظمات المجتمع المدني، والمؤسسات التعليمية، والباحثين المختصين في هذا المجال.

حيث تتعدد أسباب حوادث المرور في دول العالم وفقاً لأنظمة المرور المتبعة، وكذلك نوعية وصلاحية الطرق، وأيضاً الوعي البشري باستخدام المركبة والطريق، ويعتبر الإنسان هو العامل المشترك في جميع حالات حوادث السير، ولذلك وضعت الدراسات والأبحاث أسباب حوادث السير ومخاطرها على الإنسان سواء كان هو الذي يقود المركبة أو كان ماشياً، ومن هنا تظهر ضرورة اعتماد وسائل الإعلام ومنها الإذاعة المحلية على بث برامج خاصة للتوعية المرورية، أو إنتاج ومضات

¹ محمد الجوهري وآخرون: علم الاجتماع ودراسة الإعلام والاتصال، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٢، ص: ٢١٩.

² محسن العجمي بن عيسى: التنظيم المؤسسي للهياكل الرسمية المرورية ودوره في معالجة مشاكل المرور (حجم حوادث المرور وسبل معالجتها)، ط ١، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، مركز الدراسات والبحوث، الرياض، ٢٠٠٦، ص: ١٠.

مكتنفة هدفها الترويج للأفكار الصحيحة لدى السائق ومستخدم الطريق من أجل تقليل نسبة الخسائر والحوادث، وتخطب تلك البرامج والرسائل الإعلامية كافة المستمعين، وفي مختلف المراحل العمرية، ومن الجنسين، كما تحرص بشكل دائم على ربط الإنسان وفي مختلف المراحل العمرية، وتباين المستوى الاجتماعي والعلمي بحركة التطور العلمي ومواكبة المنجزات المتغيرة في الجانب التقني للمركبة وللطريق أيضا، وإعطاء الإنسان معلومات عن البيئة التي ينتقل فيها، وأهمية الحفاظ على سلامتها.¹

وبما أن المرور هو واجهة حضارية لأي دولة، وقضايا المرور وحوادثها لها أبعاد اقتصادية واجتماعية كثيرة، فإن الحاجة كبيرة لإيجاد برامج إعلامية تهتم بنشر التوعية المرورية، وتؤكد مفاهيم ومبادئ السلامة العامة، تعد وتنسج وفق صيغ وأفكار متميزة قادرة على الإقناع، وترك الأثر الكبير في أوساط الجماهير باختلاف مستوياتهم الثقافية والاجتماعية، وتعتبر الومضات أسرع رسالة تخاطب ذهن المستمع، وتستوحي أفكارها من حياة الناس وتجاربهم، وتهتم بتحذيرهم نحو أمور السلامة، وتعتبر نتاج الممارسة اليومية. خاصة إذا استخلصت الأفكار الواردة فيها من أساس المشاكل المرورية، ونتائج الحوادث والتعليمات والقرارات المتعلقة بالمرور.²

ويمكن للإذاعة المحلية أن تلعب دورا هاما في نشر الوعي المروري من خلال:³

- تعديل اتجاهات الأفراد والجماعات حتى يتمكن كل فرد من الاضطلاع بالدور المنوط به في تحقيق الأمن والاستقرار، وإحداث تغيير حقيقي في سلوك الناس نحو المشكلة المرورية، بهدف إيجاد الشخصيات الإيجابية التي تتصرف بروح المسؤولية.

- توصيل البيانات والمعلومات إلى كافة الجماهير بصورة مفهومة ومقنعة، بهدف تيسير المعرفة المرورية.

- تزويد الجماهير بالخبرة الكافية لكي يصبحوا قادرين على التعامل مع مختلف المشاكل التي تخص المرور، ووضع الحلول المناسبة لها، ومتابعة الجهود المبذولة في هذا الصدد لتحقيق المشاركة الجماهيرية الجادة والإيجابية، وبناء الإنسان المدرك لمسؤولياته.

خاتمة:

يعتبر النقل من الأنشطة الهامة التي يقوم بها الأفراد والجماعات في كل زمان ومكان، ليكون من أهم معالم التطور والتقدم في كل البلدان، إلا أنه مع التمدن وتحسن المستوى المعيشي للأفراد، ارتفعت نسب اقتناء المركبات وزيادة أعدادها، ما ساهم في تعقد حركة المرور وزيادة الحوادث وكثرة الوفيات، والإعاقات، فأصبحت ظاهرة تهدد أمن الأفراد والمجتمعات، مما يستدعي ضرورة التعاون بين مختلف الهيئات والمؤسسات والأطراف للتخطيط لحمات التوعية.

¹ . شاكرا الحاج مخلف: الإعلام والتوعية المرورية، منشورات دار علاء الدين، دمشق، ١٩٩٨، ص ص: ١٩-٢٠.

² . المرجع نفسه، ص: ٣٠.

³ . محي الدين عبد الحليم: التوعية الاجتماعية في المواضيع الأمنية (الإعلام الأمني العربي قضايا ومشكلاته)، ط ١، مركز الدراسات والبحوث، أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية، الرياض، السعودية، ٢٠٠١، ص: ١٨.

تحتل الإذاعة مكانة هامة بين وسائل الإعلام الأخرى في التوعية بحوادث المرور، لما تتميز به من خصائص ووظائف متعددة تستطيع مواكبة الاهتمامات والحاجات المتجددة للجمهور، التي أفرزها تعقد وتطور المجتمعات.

وتعتبر الإذاعة المحلية من أهم المؤسسات القادرة على وضع خطط عمل دقيقة ودائمة، تهدف إلى تحسيس وتوعية المواطنين بجميع فئاتهم بمخاطر حوادث المرور، وسبل الوقاية منها، لأنها تتجه إلى مجتمعات محلية لها خصائصها المميزة واهتماماتها المشتركة، حيث تعكس قيمها وتناقش قضاياها ومشاكلها، كما تقدم معلومات له وعنه، وتقترح الحلول والتوجهات، مستخدمة لغة واضحة وبسيطة برموزها، وما يزيد من فاعليتها هو فتح المجال لجمهور المستمعين لإبداء آرائه والتعبير عن أفكاره واتجاهاته نحو مختلف الموضوعات التي تثيرها المشكلة المرورية.

إلا أن تطوير معارف الجمهور فيما يخص التوعية المرورية غير كافي، لأن الفعالية الحقيقية لبرامج التوعية المرورية تتطلب تغيير الاتجاهات السلبية والسلوكيات غير المرغوبة نحو سلوك القيادة وقانون المرور والصورة الذهنية نحو الأجهزة الأمنية التي تلعب دور الرقيب، لذلك فالمشكلة المرورية معقدة يتحمل مسؤولية التقليل من مخاطرها كل الهيئات والتنظيمات الاجتماعية الرسمية وغير الرسمية، للوصول إلى خطط واستراتيجيات مناسبة وفعالة.

قائمة المراجع:

- ١- أحمد مطهر عقبات: دور وسائل الإعلام في نشر التوعية المرورية، مركز الدراسات والبحوث، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، الرياض، ٢٠٠٧.
- ٢- الهاشمي بوطالبي: مهام المركز الوطني للوقاية والأمن عبر الطرق وإستراتيجيته في عملية الوقاية، العدد ٢، مجلة الوقاية والسياقة، المركز الوطني للوقاية والأمن عبر الطرق، 2003.
- ٣- جاسم خليل ميرزا: الإعلام الأمني بين النظرية والتطبيق، ط١، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، ٢٠٠٦.
- ٤- جريدة النصر، حوادث المرور تكبد الجزائر خسائر بأكثر من ١٠ آلاف مليار سنويا، عدد ١٤٣٠٤، يومية، ١٠/٢/٢٠١٤.
- ٥- رحيمة حوالم: التكاليف الاقتصادية والاجتماعية لحوادث المرور بالجزائر، عدد ١١، مجلة الباحث، ٢٠١٢.
- ٦- سعد لبيب: الإذاعة في عصر التلفزيون وأقمار الاتصال (رؤية من الغرب)، العدد ١٧٦، مجلة الفن الإذاعي، القاهرة، أكتوبر ٢٠٠٤.
- ٧- سهير جاد وسامية أحمد علي: البرامج الثقافية في الراديو والتلفزيون، دار الفجر، القاهرة، ١٩٩٩.
- ٨- شاكرا الحاج مخلف: الإعلام والتوعية المرورية، منشورات دار علاء الدين، دمشق، ١٩٩٨.
- ٩- صالح بن بوزة: الصحافة الجهوية (المفهوم الخصائص والوظائف)، العدد ٣، حوليات الجامعة، ١٩٩٤.
- ١٠- طه عبد العاطي نجم: الاتصال الجماهيري في المجتمع العربي الحديث (الموضوع والقضايا)، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٥.
- ١١- عبد الله بوجلال: الدور الوظيفي لوسائل الإعلام، عالم الاتصال (سلسلة الدراسات الإعلامية)، ط١، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٩٢.

- ١٢- عبد المجيد شكري: تكنولوجيا الاتصال (إنتاج البرامج في الراديو والتلفزيون)، ط١، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٦.
- ١٣- علاء عبد الرحمن البكري: الندوة العلمية حول حجم حوادث المرور في الوطن العربي، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، السعودية، ٢٠٠١.
- ١٤- عواشة محمد حقيق: الرأي العام بين الدعاية والإعلام، الجامعة المفتوحة، مصر، ١٩٩٤.
- ١٥- ماجي الحلواني: مدخل إلى الفن الإذاعي والتلفزيوني والفضائي، ط٣، عالم الكتب، القاهرة، ٢٠٠٨.
- ١٦- محسن العجمي بن عيسى: التنظيم المؤسسي للمبائل الرسمية المرورية ودوره في معالجة مشاكل المرور (حجم حوادث الهوروسبل معالجتها)، ط١، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، مركز الدراسات والبحوث، الرياض، ٢٠٠٦.
- ١٧- محمد الأمين مواقي: الإذاعات المحلية (الفضاء الآخر)، العدد ٢، مجلة الإذاعات العربية، تونس، ١٩٩٨.
- ١٨- محمد الجوهري وآخرون: علم الاجتماع ودراسة الإعلام والاتصال، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٢.
- ١٩- محمد سيد محمد: وسائل الإعلام من المنادي إلى الانترنت، دار الفكر العربي، القاهرة، ٢٠٠٨.
- ٢٠- محمد منير حجاب: وسائل الاتصال نشأتها وتطورها، دار الفجر، القاهرة، ٢٠٠٧.
- ٢١- محمد نصر مهننا: النظرية العامة للمعرفة الإعلامية للفضائيات العربية والعمولة الإعلامية والمعلوماتية، المكتبة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٣.
- ٢٢- محي الدين عبد الحليم: التوعية الاجتماعية في المواضيع الأمنية (الإعلام الأمني العربي قضايا ومشكلاته)، ط١، مركز الدراسات والبحوث، أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية، الرياض، السعودية، ٢٠٠١.
- ٢٣- مصطفى حميد كاظم الطائي: الفنون الإذاعية والتلفزيونية وفلسفة الإقناع، ط١، دار الوفاء، الإسكندرية، ٢٠٠٧.
- ٢٤- منى سعيد حديدي وسلوى إمام علي: الإعلام والمجتمع، ط٢، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ٢٠٠٤.
- ٢٥- هبة شعوة: دور القناة الإذاعية الأولى في التوعية المرورية (دراسة تحليلية وميدانية)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، ٢٠٠٦/٢٠٠٧.
- ٢٦- المركز الوطني للوقاية والأمن عبر الطرق، إحصائيات حوادث المرور الجسمانية خلال الأشهر السبعة الأولى من سنة ٢٠١١.

الأعمال الإصلاحية للإمام المغيلي بالسودان الغربي وتأثيرها

أ.عبد الكريم فايزي/جامعة الشهيد حمّة لخضر، الوادي، الجزائر

ملخّص:

كان الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي من العلماء البارزين خلال القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، أشهر بمؤلفاته العديدة في علوم اللغة والفقه والمنطق وأصول الحكم والسياسة. عاش في تلمسان مسقط رأسه، وانتقل منها إلى "توات" في الصحراء، رحل بعد ذلك إلى بلاد السودان الغربي الإفريقي وأتصل بحكامها، وأثناء تواجده بهذه الدول قام بنشر أفكاره الإصلاحية من خلال النصائح التي قدمها لحكامها، منها تطبيق الشريعة الإسلامية في معاملاتهم السياسية وتعاملاتهم الإقتصادية والإجتماعية، وتقريب أهل الخير إليهم، والاهتمام بالعلماء لأن المجتمع لا يصلح إلا بصالحهم، وتصحيح المفاهيم وإحياء السنة، وبذلك يكون هذا العالم الجليل قد أحدث ثورة فقهية تمثل بداية للتطور الفكري الإسلامي في بلاد السودان الغربي.

الكلمات المفتاحية: المغيلي، الإسلام، الدعوة الإصلاحية، السودان الغربي، العلماء.

مقدمة:

يعتبر الإمام المغيلي¹ من أبرز علماء المغرب الأوسط في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، وهو من الفقهاء الأذكياء ذوي الرؤية الثاقبة والحكمة الصائبة، وواحد من العلماء المشهورين الذين كانت لهم مشاركة في تفعيل الحياة السياسية والإجتماعية والثقافية بمنطقة توات وبلاد السودان الغربي الإفريقي².

لقد كانت الغاية من رحلات الإمام المغيلي هو إصلاح أحوال المسلمين وفق أحكام الشريعة الإسلامية، ولما كان وجود الأمير الصالح يُعد من العوامل المُسهّلة في تحقيق مشروعه الإصلاحي، فقد عمل ما في وسعه من التعاون مع الأمراء في وقته من أجل ذلك³ حيث هاجر إلى بلاد السودان بعد أن خالط وعرف طبائع الأمراء والسلاطين هناك. فوجد فطرتهم أسلم واستجابتهم أكبر عندما يتعلق الأمر بتطبيق تعاليم الدين الإسلامي مقارنة بأمراء المغرب، وأن استعدادهم لتقبُّل الدعوة

¹ المغيلي بالفتح والكسر للميم، نسبةً إلى قرية مغيلة بضواحي تلمسان، أنظر: عبد الرحمن السيوطي: *لُب اللباب في تحرير الأنساب*، تح: محمد أحمد عبد العزيز وأشرف أحمد عبد العزيز، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ٢٦٩.

² ابن عسّكر: *دوحة الناشر لمحاسن من كان في المغرب من مشايخ القرن العاشر*، تح: محمد حجي، دار الغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، ط ٢، ١٩٧٧م، ص ١٣٠.

³ أبو القاسم سعد الله: *تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر الهجري (١٦-٢٠م)*، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص ٤٧.

والإصلاح أقوى من استعداد أمراء بلاده، فتوجه إليهم لنشر مبادئه وأفكاره الإصلاحية، وممارسة الفتوى بما يتماشى مع منهج الإسلام الصحيح وتصوره لنظام الدولة الإسلامية.

أولاً: التعريف بالإمام المغيلي:

هو أبو عبد الله بن محمد بن عمر بن مخلوف المغيلي التلمساني، وتتفق الروايات التاريخية حول النسب الشريف للمغيلي بالرغم من بعض الاختلاف في تعداد أجداده وأسمائهم¹ وترجح الروايات أن سنة مولده هي ٨٢هـ/١٤١م² وقيل سنة ٨٣هـ/١٤٢م³ بقرية "مغيلة"⁴ بضواحي تلمسان⁵.

عاش الشيخ المغيلي بالقرن التاسع الهجري بتلمسان، والمغرب الإسلامي عامة، وكان عصره عصر نشاط وازدهار ثقافي رائع، كما كان القرنان الثامن والسابع قبله، وقد نبغ في عصره عدد كبير من الأعلام الذين ازدان بهم القرن التاسع الهجري، من فقهاء ومحدثين ومفسرين وكتّاب وشعراء ومؤرخين وغيرهم. وفي هذه البيئة الثقافية نشأ المغيلي ومن مناهلها كرع، ولا شك أن تأثيرها فيه كان كبيراً.

بدأ المغيلي دراسته الأولى في مسقط رأسه "مغيلة" وبعدها اتجه نحو تلمسان حاضرة المغرب الأوسط وعاصمة دولة بني عبد الواد الزيانيين لتتلمذ على كبار علمائها⁶ بعدها استقر فترة في مدينة بجاية لطلب العلم⁷ وكانت بجاية حينئذ إحدى حواضر العلم والثقافة العربية الإسلامية، وقد أصبحت قبلة العلم والعلماء من المشرق والمغرب، لكنهم لم يقيم بها طويلاً فخرج منها قاصداً جزائر بني مزغنة⁸ - مدينة الجزائر حالياً- لما سمعه من بعض زملائه عن شهرة شيخها ومدريتها الإمام "عبد الرحمن

¹ مبروك مقدم: الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي من خلال المصادر والوثائق التاريخية، مؤسسة الجزائر للكتاب، تلمسان، ط ١، ٢٠٠٢م، ص ٢٨، نفسه: الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي وأثره الإصلاحي بإمارات وممالك إفريقيا الغربية، خلال القرن الثامن والتاسع والعاشر للهجرة، دار الغرب، وهران، ج ٢، ٢٠٠٢م، ص ٤٩.

² وهو رأي "القاضي المكناسي" في تاريخ الوفيات، فعندما ذكر وفاة "أحم بن محمد المرغوي المصمودي" في تلك السنة قال: "ومحمد بن عبد الكريم المغيلي الرجل الصالح في حدودها" وهذا التاريخ ذكره "عبد الحميد بكري" في كتابه "النبتة"، أنظر: أحمد الحمدي: محمد بن عبد الكريم المغيلي رائد الحركة الفكرية بتوات عصره وآثاره، رسالة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، ٢٠٠٠م، ص ٣٤، عبد الحميد بكري: النبتة في تاريخ توات وأعلامها من القرن ٩ إلى القرن ١٤ هـ، دار الهدى، الجزائر، ط ١، ٢٠٠٥م، ص ١٤.

³ رجح "مبروك مقدم" في كتابه أنه ولد في هذه السنة، وقال لتطابقه مع الأحداث وخاصة مراسلاته وتنقلاته لأصقاع العالم وخاصة إفريقيا الغربية، أنظر: الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي وأثره الإصلاحي بإمارات وممالك إفريقيا الغربية، ص ٤٩.

⁴ هي قبيلة من البربر استوطنت تلمسان وهران والمغرب الأقصى، وهي فرع من قبيلة صنهاجة كبرى شعوب الأفاقة البيض، ولها أرض طيبة، وبها عيون جارية، الحسن الوزان: وصف إفريقيا، تر: عبد الرحمن حميدة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط ١، ١٩٨٧م، ج ١، ص ١٣٤.

⁵ عبد الرحمن عمر الماجي: الدعوة الإسلامية في إفريقيا: الواقع والمستقبل، ديوان المطبوعات الجامعية، قسنطينة، ١٩٨٩م، ص ١١٢.

⁶ مبروك مقدم: الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي وأثره الإصلاحي بإمارات وممالك إفريقيا الغربية، ص ٤٩، أحمد الحمدي: المرجع السابق، ص ٣٥.

⁷ محمد بن عبد الكريم المغيلي: تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلاطين، تح: محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم، بيروت، ط ١، (١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م)، ص ١٠، ابن خلدون: المقدم، دار الجيل، بيروت، ص ٥٩٨.

⁸ ياسين شبايبي: الفكر السياسي عند الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي ودعوته الإصلاحية بتوات والسودان الغربي رسالة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، ٢٠٠٦-٢٠٠٧م، ص ١٣.

الثعالبي^١ فمكث عنده مدة من الزمن يأخذ عنه علوم القرآن والتفسير والحديث وعلم التصوف، ولمَّا رأى الشيخ "الثعالبي" في المغيلي الذكاء والفقہ والشجاعة قرَّبه إليه وزوَّجه ابنته "زينب"^٢.

وهكذا فإن المغيلي أجاد فنوناً مختلفة، وتفقه على مذهب الإمام "مالك ابن أنس"، وقد ساعده على التحصيل، ذكاءً مفرطاً، ونيّةً صالحةً، ومكارم أخلاق، وتوقُّدٌ ذاكرة، وعلو همّة، وقد اجتمعت للشيخ هذه الصفات حتى صارت الدنيا لديه هدف لما هو أعلى وأفضل وأرقى، فنمت في نفسه بذور الصوفية وغدَّها اتصاله بالعالم المفسر "عبد الرحمن الثعالبي"، بالإضافة لما كان للرحلات والإطلاع الواسع من الأثر البارز في تكوينه الثقافي^٣.

وعندما توسعت معارفه ومداركه وتزود بما يكفيهِ من المعارف، تصدَّى هو الآخر للتدريس كشيخ ومربي في مدينة تلمسان، فتتلمذ على يده العديد من العلماء والشيخوخ^٤ من بينهم الشيخ "العاقب بن عبد الله الأنصمييني المسوفي"^٥ و"محمد بن عبد الجبار الفجيجي"^٦ وغيرهم.

وقد أبدى الإمام المغيلي قلقه على الأمة الإسلامية، ففي عهده سقطت غرناطة آخر معاقل المسلمين في الأندلس على يد ملك قشتالة وأرغون سنة ١٤٩٢م، كما أن ممالك بني وطاس، وبني عبد الواد الزينانيين، والحفصيين، في الشمال الأفريقي كانت تعاني من عدوان الإسبان والبرتغاليين على مواثمها^٧.

^١ هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف بن طلحة، ولد سنة ٧٨٦هـ / ١٣٨٤م بوادي يسر بمدينة (يسر) الواقعة حالياً بولاية بومرداس والقريبة من مدينة الأحضرية شمال شرقي العاصمة الجزائرية، حيث تبعتها بمسافة ٦٢,٣ كلم، كان معروفاً عنه أنه عالم زمانه في القطر الجزائري في علوم التفسير، العقيدة، الفقه، والتصوف، وغيرها من العلوم الدينية الأخرى، وهو أحد أعلام القرن التاسع الهجري، فقد عكف على التدريس والتأليف، وك انت معظم مصنّفاته في علوم الشريعة، وقد ترك في هذا الحقل ما يزيد على تسعين مؤلفاً في التفسير والحديث والفقه واللغة والتاريخ والتراجم وغيرها، توفي سنة ٨٧٥هـ / ١٤٧١م، أنظر: محمد بن ميمون: *التحفة المُرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية*، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط ٢، ١٩٨١م، ص ٣٤٨، وانظر أيضاً:

kamel Bouchama : *Algérie terre de foi et de la culture*, Edition El Maarifa, bab el oued, Alger, 2000, p199.

^٢ أنجبت "السيدة زينب" للإمام المغيلي ثلاث أبناء وهم: "علي" الذي توفي في مقتبل عمره، و"عبد الله" الذي عاش بعد موت أبيه وحلّف ولدين هما "أبو القاسم محمد" و"عبد الرحيم" ومنهما انتشرت وتفرّعت سلالة المغيلي بتوات، أمّا "عبد البار" فهو ابنه الثالث وكان ملازماً لأبيه وعُرف عنه العلم والشجاعة، وقد قتله اليهود بعدما تركه أبوه على زعامة القصور التواتية قبل رحيله إلى بلاد السودان الغربي. أحمد بابا التنبكي: *نيل الابتهاج بتطريز الديباج*، تح: علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٤م، ج ٢، ص ٢٦٦.

^٣ منيرة بوغراة: *محمد بن عبد الكريم المغيلي ومساهمته في الثقافة الإسلامية في غرب إفريقيا*، رسالة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، ص ٢٠.

^٤ يحي بوعزيز: *تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية*، دار هومة للطباعة والنشر، الجزائر، ص ٢٠.

^٥ هو من أهل "أكدر"، درس في بداية حياته وتفقه على يد الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي بمسجد الكرامة وأخذ عنه علم التوحيد والمنطق وقد كان فقيهاً نبهاً، واسع الحفظ، حاد اللسان، وكان ملازماً للشيخ المغيلي طوال وجوده بممالك السودان حيث تأثر بسلوكه ومنهجه العلمي. أحمد الحمدي: المرجع السابق، ص ٤٢.

^٦ توفي سنة ٩٥٦هـ / ١٤٤٩م، عالم متصوف له إلمام بعلوم الحديث ورواياته . كانت دراسته الأولى بفجيج على يد والده "عبد الجبار" وغيره من علماء المنطقة، اشتهر بالشعر ومهر فيه، التقى مع المغيلي في فاس حيث لازمه طوال وجوده بها واخذ عنه التصوف وعلوم الحديث والفقه، ثم رجع إلى بلاده. ابن عساكر: المصدر السابق، ص ١٣٠.

^٧ مبروك مقدم: *الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي وأثره الإصلاحية بإمارات وممالك إفريقيا الغربية*، ص ٢٧.

ونظراً لتوتر الأوضاع السياسية بتلمسان، قرر المغيلي مغادرتها متجهاً نحو القصور التواتية¹ - منطقة توات - بجنوب الصحراء علماً يجد في هذه النواحي البعيدة عن العواصم السياسية مكاناً آمناً يباشر فيه حريته في تلقين العلم والدعوة إلى الله وإفادة الناس، ولقد كان دخول الإمام المغيلي لإقليم توات آخر زمان الدولة المرينية بالمغرب، إلا أن الأخبار تضاربت في تحديد تاريخ دخوله إليها³.

إن قصور "توات" و"تيكرارين" و"تمنطيط" و"أسمال" و"أولف" و"زاوية" و"كونتة" و"فتوغيل"، كلها أسماء تشهد لهذا الإمام دهائه ودعوته⁴. هذه المناطق التي زارها وصال وجمال فيها يقوم بمهمة الدعوة إلى الله والإصلاح، ونشر المبادئ الإسلامية الصحيحة النقية كما عرفها السلف الصالح رضوان الله عليهم، وقد احتضنته القبيلة العربية الأصيلة "بني سعيد" حيث عاش بينهم كواحد منهم يحترمونه ويحجلونه ويستمعون إلى دروسه ويتبعون دعوته⁵.

بعدها، سافر الإمام المغيلي إلى بلاد السودان الغربي من أجل مباشرة مهام التعليم والدعوة والإصلاح، وظلّ مشغولاً بالدعوة والوعظ والتدريس والقضاء والفتيا، وبذل النصيحة لأمرائها وأولي الأمر فيها. وطاف بعددٍ من عواصمها وأقاليمها فزار الممالك الإفريقية وأنصل بعدة أمراء وملوك⁷ أين كان له دور بارز في نشر الإسلام في تلك الأسقاع، وقد قضى المغيلي في بلاد السودان حوالي ثلاثة عشر سنة يجوب ربوعها داعياً إلى الله وناشراً لتعاليم دينه⁸.

بعد هذه الرحلة الطويلة في البلاد الإفريقية قام الإمام المغيلي بأداء فريضة الحج، عاد بعدها ليستقر بمدينة توات بصفة نهائية، وبعد عودته إلى توات قصده طلاب العلم والعلماء، فلم يبخل عليهم بعلمه وفقهه رغم كبر سنّه وبقي وفياً لرسالته في

¹ تعددت الآراء وتباينت حول أصل تسمية "توات" فالبعض يجمع هذه التسمية إلى أصول بربرية والبعض الآخر يؤكد على أنها عربية، أنظر: فرج محمود فرج: إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1977م، ص 2، حاج أحمد الصديق: التاريخ الثقافي لإقليم توات من القرن 11هـ / 17م إلى القرن 14هـ / 20م، ط 1، 2003م، ص 26 - 28، وانظر أيضاً:

GAUTIER : *Le Sahara*, Edition Payot, Paris, 1946, P. 118-119, L. Rouire : *Le sud ouest Oranais et Le Touat*, Revue De La Société De La Géographie, Oran, 1891, P. 362, P. DEVORS : *Le Touat études géographique et médicales*, Archives De L'Institut Pasteur, Alger, T: XXV.

² يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص 70.

³ محمد باي بلعالم: الرحلة العلية إلى منطقة توات لذكر بعض الأعلام والآثار والمخطوطات والعادات وما يربط توات من الجهات، دار هومة، الجزائر، ط 1، ج 1، 2005م، ص 81، فرج محمود فرج: المرجع السابق، ص 14.

⁴ لمزيد من التوسع حول استقرار الإمام المغيلي بتوات راجع:

'Abd-Al-'Aziz 'Abd-Allah. Batran : "A Contribution to the Biography of Shaikh Muhammad Ibn 'Abd-Al-Karim Ibn Muhammad ('Umar-A 'Mar) Al-Maghili, Al-Tilimsani", The Journal of African History, 1973, 14 (3), p. 381-394.

⁵ نور الدين حاج أحمد: المنهج الدعوي للإمام المغيلي من خلال الرسائل التي بعثها للملوك والأمراء والعلماء ، مذكرة ماجستير في الشريعة الإسلامية، قسم أصول الدين، فرع دعوة وإعلام، كلية العلوم الإجتماعية والعلوم الإسلامية، جامعة الحاج لخضر، باتنة، (1432هـ / 2011م)، ص 37 - 40.

⁶ منيرة بوغرة: المرجع السابق، ص 20.

⁷ آدم عبد الله الألوري: الإمام المغيلي وآثاره في الحكومة الإسلامية في القرون الوسطى في نيجيريا، دار الحلبي، القاهرة، 1974م، ص 15.

⁸ محمد بن عبد الكريم المغيلي: مختصران في الفرائض، تح: محمد شايب شريف، دار ابن حزم، بيروت، ط 1، (1433هـ / 2012م)، ص 14.

الدعوة والإصلاح، إلى أن توفي في توات بالمكان الذي يحمل اسم زاويته الآن (بالقرب من قصر بوعلي بلدية زاوية كنتة) سنة ١٥٠٧هـ/١٩٠٩م^١.

وقد ترك لنا الإمام المغيلي إنتاجاً تأليفياً كبيراً شمل مختلف العلوم الدينية واللغوية والسياسة والشريعة، والعقيدة والنوازل^٢ وقد بلغ عدد كتبه أربعة عشر مؤلفاً باستثناء الرسائل الكثيرة التي كتبها في مواضيع الدعوة إلى الإصلاح^٣.

ثانياً: دعوة المغيلي الإصلاحية بإمارات الهوسا:

بعد مغادرة الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي توات، توجه نحو بلاد السودان الغربي فمرَّ ببلدة "تكدة" و"أكدز" ثم إلى إمارة "كانو"^٤ التي تقع إلى الجنوب والجنوب الغربي للسودان الإفريقي.

وتعتبر "كانو" أحد أهم إمارات "الهوسا"^٥ إذ وصلها الإمام المغيلي وبقي فيها فترة من الزمن والتقى بحاكمها "محمد بن يعقوب رنفا" (أو زنقا) الذي كان يتربّع على عرش كانو في الفترة الزمنية (١٠٨٦هـ - ١٠٩٠هـ/١٤٦٣م - ١٤٩١م)^٦.

^١ محمد بن عبد الكريم المغيلي: تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلاطين، ص ١١، ابن عساكر: المصدر السابق، ص ١٣٣، أحمد بابا التميمي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٦٦.

^٢ محمد بن عبد الكريم المغيلي: مختصران في الفرائض، ص ٢١ - ٣٦، عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام إلى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، ط ٢، ١٩٨٠م، ص ٣٠٨.

^٣ محمد بن عبد الكريم المغيلي: أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي، تح: عبد القادر زبادة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص ٩.

^٤ تأسست مدينة "كانو" في القرن العاشر الميلادي، وتقع على طريق القوافل التجارية، اشتهرت "كانو" منذ قديم الزمان بأسوارها العظيمة التي تحيط بها من كل مكان، وبيو اباتها المتعددة ذات الطراز المغربي المتميّز، وكما يذكر بعض المؤرّخين أن أول من بنى هذا السور هو الأمير "عجيما سو" (١٠٩٥ - ١١٣٤م)، ولقد توسّعت هذه الأسوار والبوابات بعد ذلك خاصة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الذين شهدا حركة إصلاح إسلامي، وتوسّعات اقتصادية، وهجرات متعددة في بلاد مالي. كما شهدت كانو توسّعا كبيرا في القرن السادس عشر في عهد السلطان محمد نزاكي (١٦١٨ - ١٦٢٣م)، أنظر:

Ousmane Kane : **Les mouvements islamiques et le champ politique au nord du Nigeria : le cas du mouvement Izala à Kano**, Université Paris, 1993, (thèse de doctorat de Science politique), John N. Paden : **Religion and political culture in Kano**, University of California Press, Berkeley, 1973, p. 461, M. G. Smith: **Government in Kano, 1350-1950**, Westview Press, Boulder, Colo., 1997, p. 595.

^٥ تشمل بلاد "الهوسا" حاليا شمال نيجيريا وجزءاً من جمهورية النيجر، حيث كانت تقع في القرون الوسطى في المنطقة المحصورة بين سلطنتي مالي وسنغاي غرباً، وسلطنة البرنو شرقاً، يجدها من الشمال إقليم "أهير" والصحراء الكبرى، ومن الجنوب ما يُعرف حالياً بجنوب نيجيريا، وقد تواجدت ببلاد الهوسا عدّة إمارات مثل "كانو" و"دورة" و"زنفرة" وغيرها، عبد القادر زبادة: الحضارة العربية والتأثير الأوروبي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء - دراسات ونصوص -، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٥م، ص ١١، زاهر رياض: الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا ودورها في تجارة الذهب عبر الصحراء، المكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٨م، ص ١٧٤، وانظر أيضاً:

Oumarou Moussa : **La Culture arabo-islamique, les Haoussas du sud-Cameroun (le cas de Yaoundé) et l'intégration nationale**, Université de Paris 3, 1987, p. 324 (thèse), Jacqueline Monfouga-Nicolas : **Ambivalence et culte de possession : contribution à l'étude du Bori hausa**, Éd. Anthropos, Paris, 1972, p. 384.

^٦ محمد الغربي: بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، مؤسسة الخليج للطباعة والنشر، الكويت، ص ٥١٤.

^٧ ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، دار صادر، بيروت، ص ٦٩٩، أبو بكر إسماعيل ميقا: الحركة العلمية والثقافية والإصلاحية في السودان الغربي من القرن ٥٥ هـ إلى ١٢ هـ، مكتبة التوبة، الرياض، ط ١، ١٩٩٧م، ص ١١٩.

فبعد الإستقرار الذي عرفته مدينة كانو بعد وصول أميرها الجديد "رنفا" إلى الحكم، توافد على الإمارة العديد من العلماء والفقهاء والوعاظ، كما تطورت فيها التجارة وانهضت الأسواق الموسمية لكثرة القوافل¹ وقد لعبت التجارة دوراً بارزاً في ربط الصلّات والعلاقات وتحديد طبيعتها بين هذه الممالك وبلاد المغرب الإسلامي.

توطّن الإمام المغيلي بكانو، وبنى فيها مدرسته المعروفة باسمه: "مدرسة الشيخ المغيلي"، وتصدّر بها للتدريس² وبسرعة اشتهر هناك كعالم ومصلح، فحُمدت سيرته، وقربّه السلطان "محمد بن يعقوب رنفا" وتعلّق به منذ دخوله لإمارته، فحضر حلقاته العلمية، وقربه منه وتعلق به، وقد بيّن له الإمام المغيلي الطريقة الصحيحة في الحكم، ووضع له القواعد التي يجب السير عليها، حيث فصّل له الكثير من الأحكام السلطانية³.

ويتبيّن ذلك من خلال ما وضعه الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي لأمير كانو، حيث ألّف له رسالة للحكّام سمّاها: "رسالة مختصرة فيما يجوز للحكّام من ردع الناس عن الحرام"⁴ كما قام المغيلي بتوجيه رسالة أخرى إلى الأمير "رنفا" في شؤون الإمارة والحكم والسياسة الشرعية عنوانها: "تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلطين"⁵ وبذلك استفاد حاكم كانو من المغيلي كثيراً في إرساء قواعد دولة إسلامية ناشئة. واتخذة كمستشار له يرجع إليه في كل الأمور التي تواجهها مملكته، كما ولّاه القضاء والإفتاء في الفترة التي قضاها ببلاده، فأثنى عليه الناس ولقّبوه بالإمام⁶.

وقد كتب الإمام المغيلي الرسالتين السابقتين بناءً على طلب السلطان كما يظهر، فقد تناول موضوع الرسالة الأولى الحسبة، التي تعد من وظائف القضاء، وتتعلّق وظيفتها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا ظهر فعله، والشروط الواجب مراعاتها في هذه المسألة، أما الرسالة الثانية فهي تتناول مواضيع مختلفة تتصلّ كلها بكيفية تنظيم شؤون الدولة وسياسة الرعية وفق الشرع الإسلامي⁷.

ويظهر من خلال الرسالتين أيضاً بأن الإمام المغيلي كان على معرفةٍ دقيقة بأوضاع زمانه عموماً، وأحوال بلاد السودان الغربي خصوصاً. وأنه كان على اطلاع واسع بأحكام الفقه الإسلامي في السياسة الشرعية، وهو ما يميّزه عن أغلب علماء

¹ مبروك مقدم: الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي وأثره الإصلاحية بإمارات وممالك إفريقيا الغربية، ص 33.

² نور الدين حاج أحمد: المرجع السابق، ص 51.

³ عبد الرحمن شيبيلك: "من مآثر محمد بن عبد الكريم المغيلي، جهاده من أجل الوحدة الإفريقية والوحدة الإسلامية"، مجلة الثقافة، وزارة الثقافة والسياحة، الجزائر، 88ع، 1985م، ص 54.

⁴ من التوجيهات التي تضمّنتها رسالة: "جملة مختصرة في ما يجوز للحكام من ردع الناس عن الحرام" أنه أشار على أمير كانو بأن يمنع أهل بلاده من جميع مظاهر الشرك، وكشف العورة، وشرب الخمر، وأكل الميتة والدم...، حيث انصبّ اهتمام المغيلي على إصلاح العقيدة أولاً، فلا معبود بحق إلا الله، ولا شريك له في ذاته أو صفاته، ومحاربه البدع والخرافات التي تبدو فيها مظاهر الشرك، فإذا تم له ذلك انتقل لتغيير المنكرات الأخرى وفق ضوابط الحسبة وقواعدها، أحمد الحمدي: المرجع السابق، ص 122 - 123.

⁵ تعرّضت رسالة: "تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلطين" لأمر عديده هامة في شؤون الإمارة ومسائل الحكم، إذ بيّنت المفاهيم الإسلامية الأساسية التي يجب أن يلتزم بها الحاكم في سياسة رعيته، بل تناولت كل ما يتعلّق بالأمير من أمور ومسائل يجب عليه مراعاتها في تدبير إمارته، راجع تحقيق هذه الرسالة: محمد بن عبد الكريم المغيلي: تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلطين، تح: محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم، بيروت، ط 1، (1415هـ / 1994م).

⁶ أحمد الحمدي: المرجع السابق، ص 121.

⁷ أحمد بابا التنبكي: المصدر السابق، ج 2، ص 265.

زمانه في هذه الفترة، حيث زهد الكثير من العلماء عن التبحر في هذا الباب من الفقه الإسلامي، نظراً للانتشار الواسع للطرق الصوفية من جهة، ولتفادي الدخول في مواجهات مباشرة مع الحكام من ناحية أخرى.

لقد كان المغيلي من أوائل العلماء المسلمين المغاربة الذين دخلوا هذا الإقليم لرسم الدعوة الإسلامية وإصلاح المعتقدات، واشتهر في كتابات العديد من المؤرخين له في المنطقة "بفقيه توات" تمييزاً له عن الفقهاء المحليين ذوي الأصول السودانية، وغيره من الفقهاء الرحالة. فقد كانت إمارات بلاد الهوسا - كما هو الحال مع إمارة كانو - تجد عناءً ومشقةً في نشر الإسلام بين القبائل الوثنية الواقعة إلى الجنوب منها¹.

لقد كان لهذه الرحلة التي قام بها الإمام المغيلي إلى كانو صدىً كبير ونتائج عظيمة، تركت أثراً واضحاً لا في كانو فحسب، ولكن في ولايات الهوسا جميعاً، لأن انتشار الإسلام في كانو أدى إلى انتشاره في الولايات الأخرى ومن ذلك الوقت نستطيع أن نقول إن ولاية كانو أصبحت ولاية إسلامية حقاً، وبدأت بعدئذ تلعب دوراً هائلاً في خدمة الثقافة الإسلامية في الولايات الأخرى².

لقد كان من الضروري إيجاد وسيلة بديلة عن قوة السلاح في إدخالهم الإسلام، حيث كانت تقوى هذه الإمارات بانضمام مجموعات القبائل التي أعلنت إسلامها إليها، فكان هذا هو الدور الذي يتعين على الدعاة والعلماء القيام به في أواسط الوثنيين³ عن طريق الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، وإبراز مزايا الإسلام في تميّزه عن الديانات الأخرى⁴.

ومن مدينة "كانو" انتقل المغيلي إلى مدينة "كشنة"⁵ فجرى على عادته في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حيث تُعد هذه المدينة عاصمة "إمارة كشنة" إحدى إمارات الهوسا، وكما نجح في كانو بإنجاز مقترحاته الإصلاحية التي نقّدها السلطان، فقد أثمرت هذه المرة جهوده مع حاكم مدينة كشنة "ماحي ابراهيم" الذي فرض على أهل البلاد تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية⁶.

إلا أن ما يميّز دعوة الإمام المغيلي الإصلاحية في إمارة كانو عن دعوته في إمارة كشنة هو الرسائل التي كتبها لمحمد بن يعقوب رنفا، حيث ساهمت في التأريخ لإمارة كانو مقارنةً بإمارة كشنة، ممّا دفع المؤرخين للتعرّض للمغيلي أثناء إقامته بكانو، ومقابلته لسلطانها، ومن الوظائف التي تقلّدها، ومن المنكرات التي غيّرّها، أكثر من تعرّضهم لأعماله عند دخوله لمدينة كشنة، وهو ما قد يفسّر طول المدة التي قد قضاها في إمارة كانو⁷.

¹ أحمد الحمدي: المرجع السابق، ص ١٢٢ - ١٢٣.

² شيخو أحمد سعيد غلادنتي: حركة اللغة العربية وآدابها بنيجيريا، شركة العيكبان للطباعة والشر، الرياض، ط ٢، ١٩٩٣م، ص ٤٢.

³ حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٨م، ص ١٩٩.

⁴ ياسين شبايي: المرجع السابق، ص ١٤١.

⁵ منيرة بوغراة: المرجع السابق، ص ٨٧.

⁶ ياسين شبايي: المرجع السابق، ص ١٤١.

⁷ أحمد بابا الشبكتي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٦٦.

ثالثاً: دعوة المغيلي الإصلاحية بمملكة سنغاي:

لقد استفاد حاكم كانو محمد بن يعقوب رنفا كثيراً من المغيلي حين اتخذه مستشاراً له، وولاه القضاء والإفتاء بكانو بالفترة التي قضاها ببلاده، وبعدها غادر إلى "كشنا" ومنها إلى "مملكة سنغاي"¹ الإسلامية التي تقع ببلاد "التكرور"² فوصل عاصمتها "غاو"³ في ١٤٩٩ م، وأقام في المدينة مدةً يمارس التدريس والتأليف⁴ والتقى بحاكمها "الأسقيا محمد الكبير" وحضي عنده بحفاوةٍ بالغة تعظيماً لعلمه وفضله⁵.

ولمّا اطمئن الأسقيا الحاج محمد من جهة المغيلي جعله مستشاره الخاص ومرجعه الفقهي العالي في المسائل الفقهية⁶ حيث عرض عليه في الفترة التي قضاها ببلاده سبعة مسائل أثار فيها المشاكل الاجتماعية، والسياسية، والدينية، التي كانت تواجه إمبراطوريته، فأجابه الإمام المغيلي بأجوبة هامة في رسالة وضّح له فيها الفتوى الإسلامية وحكم الله ورسوله في الموضوعات التي شغلت فكر الأسقيا، فكانت هذه الأجوبة عبارة عن فتاوى أصدرها الشيخ للأمير ليعمل بها في تدبير أمور مملكته، وهي بمثابة قانون شرعي يحتوي على أهم المسائل التي تمس حياة الدولة والأفراد، كالأحوال الشخصية ونظام المعاملات وغيرها⁷.

¹ تأسست وتوسّعت على حساب دولة مالي، وقد اشتقت تسمية هذه الدولة من اسم القبيلة التي تُنسب إليها، أمّا عاصمتها فهي مدينة "غاو"، استطاعت التحرّر نهائياً من سلطة مالي في عهد "سني علي" (٨٦٦ - ٨٩٥هـ)، ويُعد هذا الأخير المؤسس الحقيقي لمملكة سنغاي، فقد كوّن جيشاً كبيراً سار به إلى الغرب واستولى على مدينة "تنبكتو" سنة ٨٧٠هـ وغيرها من المدن. عرفت هذه المملكة أزهى عصورها عهد "الأسقيا محمد الكبير" الذي تولّى الحكم ابتداءً من سنة ٨٩٥هـ/١٤٩٣م وأسّس أسرة حاكمة جديدة تُعرف باسم "الأسقيا"، بعدما أمّى حكم أسرة "آل سني" بثورة قام بها عليهم عقب وفاة "سني علي" مباشرة حيث كان ضابطاً عسكرياً في جيشه. عبد القادر زبدي: مملكة سنغاي في عهد الأسقيين (١٤٩٣-١٥٩١م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص ٣١، وانظر أيضاً:

Sékéné Mody Cissoko : **Tombouctou et l'Empire songhay**, L'Harmattan, 1996, Djibril Tamsi Niane : **Histoire générale de l'Afrique**, vol. 4 : L'Afrique du XIIe au XVIe siècle, UNESCO, 2000, Jean-Michel Djian : **Les Manuscrits de Tombouctou : Secrets, mythes et réalités**, Éditions Jean-Claude Lattès, 2012.

² وهي المنطقة التي امتدّت من غرب السودان إلى سواحل المحيط الأطلسي في أراضٍ شاسعة، ضمّت تلك المملكة أراضي المناطق المعروفة اليوم سياسياً بموريتانيا والسنغال ومالي ونيجيريا والنيجر وتشاد، ويذهب بعض المؤرخين، إلى إنّ اسم "تكرور" هو اسم لمدينة على نهر السنغال الحالي وكانت عاصمة مملكة التكرور، أنظر:

Boubacar Ly : **L'honneur et les valeurs morales dans les sociétés oulof et toucouleur du Sénégal. Étude de sociologie**, Paris, Université de Paris I, 2 vol., 1966, p. 574 (Thèse de 3e cycle), Yves Jean Saint-Martin : **L'empire toucouleur et la France. Un demi-siècle de relations diplomatiques (1846-1893)**, Dakar, Univ. de Dakar, 1967, p. 482 (Thèse de 3e cycle publiée en 1968, Dakar, Publications FLSH, no 11).

³ أصبحت مدينة "غاو" أو "قاو" عاصمةً لمملكة سنغاي منذ القرن الحادي عشر الميلادي وبالذات منذ سنة ١٠٠٩م، بينما قبل هذا التاريخ كانت عاصمتها "كوكيا" التي تقع على نهر النيجر الأدنى بين "غاو" و"تيلا بيري"، أنظر:

Abiola Félix Iroko : **Gao, des origines à 1591**, Université Panthéon-Sorbonne, Paris, 1973, p. 385 (thèse de 3e cycle d'Histoire), Anne Ouallet : **Gao, indicateur urbain de la crise sahélienne**, Université de Rouen, 1993 (thèse de Géographie), Éric Millet : « **Gao** », in Mali, Olizane, Genève, 2007, p. 243-256.

⁴ محمد ألفا جالو: **الحياة العلمية في دولة سنغاي خلال الفترة (٨٤٢ - ١١٠٠هـ / ١٤٦٤ - ١٥٩١م)**، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، (١٤٣٣هـ / ١٩٩٣م)، ص ١١٩ - ١٢٠.

⁵ أبو بكر إسماعيل ميّقا: المرجع السابق، ص ١٤٢.

⁶ نور الدين حاج أحمد: المرجع السابق، ص ٥٣.

⁷ محمد بن عبد الكريم المغيلي: **أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي**، ص ٩.

واشتهر هذا التأليف باسم: "أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي"¹ حيث تناول المغيلي فيه بالتوضيح والتفصيل مختلف المواضيع السياسية والاجتماعية والدينية التي تتعلق بمملكة سنغاي من منظور إسلامي، وهو ما يفسّر مدى إمام المغيلي بأوضاع السودان الغربي، كما تُعد هذه الرسالة ذات أهمية بالغة باعتبارها من الوثائق المصدرية في التاريخ لهذه الفترة.

إن هاته الأجوبة تكشف ما كان عليه الإمام المغيلي في دعوته الإصلاحية من الإهتمام الشديد بإصلاح أوضاع المسلمين على وجه العموم، وبلاد السودان الغربي على وجه الخصوص، لما لاقته من دعوته من الإستجابة هناك شعوباً وحكاماً² كما تظهر أهميتها في كونها لا تقتصر على المواضيع التي حوتها الأسئلة من أحوال البلاد الداخلية فقط، بل يتعلق قسم منها بعلاقة سنغاي بالإمارات والقبائل المجاورة لها، ونظرة تلك القبائل والإمارات لمملكة سنغاي في ذلك الوقت³.

وهكذا كان لحركة المغيلي الإصلاحية ببلاد السودان الغربي صدى واسع وأثر بعيد على سائر إمارات تلك البلاد، حيث ساهم بقدر كبير في ترقية العلوم العربية والثقافة الإسلامية لسكانها⁴ وقد جنت دعوته ثمارها عدة أجيال من سكان بلاد السودان الغربي، منذ القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي حتى في القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي، حيث أدى ذلك إلى تغيير ملموس في حياة الناس السياسية والاجتماعية بهذه المنطقة وما يحيط بها على مدى عقود من الزمن، فأكتسب المغيلي بذلك مكانة عظيمة في بلاد السودان الغربي.

رابعا: تأثير أعمال المغيلي الإصلاحية:

لقد سمحت الرحلات المتكررة للإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي لإمارات وممالك السودان الغربي بترك تأثيرات واضحة بهذه المناطق⁵ فبإمتهانه التدريس، والوعظ، والإمامة، والإرشاد، والفتيا، زاد تعلُّقه بالمجتمع، وزاد تعلُّق المجتمع به، وبأفكاره وآرائه الثورية، فكوّن بذلك مجموعة كبيرة من التلاميذ الذين كانوا يدرسون عنده⁶ والذين قاموا فيما بعد بتطبيق ونشر أفكاره.

¹ ينقسم هذا التأليف إلى قسمين : القسم الأول يخص القواعد التي تساعد على تمكين الدين وحفظه، وذلك بمحاربة الكفر والوثنيين وأهل البدع والضلالات كالمشعوذين والسحرة، والمتكلمين في الدين على غير علم، أما القسم الثاني فيخص الركائز التي يُقوّم بها أي أمير ملكه، بترتيب مملكته، وقضاء مصالح الرعية، وعدم السكوت على الظلم والمنكرات، لتكون أحكام الشرع مطاعة وقواعد الدين نافذة . لأجل ذلك باشر "الأسقيا محمد" العديد من الإصلاحات بناءً على توجيهات المغيلي شملت مختلف الشؤون العسكرية، والإدارية، والقضائية، والاجتماعية. ياسين شبايبي: المرجع السابق، ص ١٤٤.

² أحمد إبراهيم دياب: "علماء السودان الغربي في القرن السادس عشر وآثارهم العلمية"، ندوة الأفارقة العلماء ومساهماتهم في الحضارة العربية الإسلامية، ٢٨-٣٠ أوت، ١٩٨٣م، مؤسسة الخليج للطباعة والنشر، الخرطوم، ١٩٨٥م، ص ٢٤١.

³ أبو بكر إسماعيل ميغا: المرجع السابق، ص ١٣٦.

⁴ محمد حمد كنان ميغا: مظاهر الثقافة العربية الإسلامية في تمبكتو وغاو وجنّي في عهد الأساكي، مجلة قراءات إفريقية، ع ٣، ذو الحجة ١٤٢٩ هـ / ديسمبر ٢٠٠٨م، ص ٢٢.

⁵ عن تأثير هذا الإمام الجليل في الحركات الإصلاحية والدعوية في الصحراء راجع رسالة دكتوراه قدمها في جامعة لندن النيجيري "حسن إبراهيم كوارزو" سنة ١٩٧٢م، تحت إشراف البروفيسور الإنجليزي "جوهن هونك" الذي أصبح رئيساً لمركز الدراسات الإفريقية في مدينة "وسترن الجديدة" بالولايات المتحدة الأمريكية، تحت عنوان: "The Life and Teaching of Al-Maghali".

⁶ مبروك مقدم: الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي وأثره الإصلاحي بإمارات وممالك إفريقية الغربية، ص ٣١.

لقد ذاع صيت المغيلي كأحد المصلحين اللامعين في دنيا الدعوة والإصلاح، وأصبحت كتبه مدرسة روحية تروى علمها العلماء والحلّكّم والعامّة، وظهر أثرها بارزاً على الأُمّة في عهده، وعلى الأجيال التي أتت من بعده من المصلحين السودانيين، الذين تأثروا بأرائه ومنهجه في التغيير، وتصحيح العقيدة، وقد أخذ بمنهجه الشيخ "عثمان بن فودي" وأتباعه وخلفائه من بعده¹.

ولعل أكبر شاهد على ذلك التأثير للإمام المغيلي هو فترة جهاد "شعب السكوتو"² (أتباع الشيخ عثمان بن فودي) في القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي، حيث شهد هذا القرن حركة إصلاحية، دينية، اجتماعية، وسياسية كبرى شملت منطقة واسعة من غرب إفريقيا جنوب الصحراء، توجت في النهاية بإقامة دولة إسلامية على يد مؤسسها وزعيمها الروحي الشيخ عثمان بن فودي³.

وهكذا فقد أثرت فتاوى المغيلي ببلاد السودان الغربي في العديد من العلماء والزعماء الأفارقة في حركاتهم الإصلاحية كحركة الفوديين بزعامة الشيخ عثمان بن فودي بن محمد بن صالح الفولاني، الذي ولد في "غوبر" التابعة لمقاطعة "غالي" في سنة ١١٦هـ/١٧٥م، وتوفي سنة ١٢٣هـ/١٨١م، كان معروفاً بابن فودي (وتعني العالم والفقهاء باللغة الفولانية)، حفظ القرآن الكريم على والده، ثم درس العلوم على أيدي معلمين آخرين كالشيخ "عثمان بن دوري" والشيخ "محمد سنب" كما التحق بمدرسة الشيخ "جبريل" الذي كان من كبار العلماء الثائرين على أوضاع عصره⁴.

لقد تأثر ابن فودي بأفكار المغيلي تأثراً كبيراً في غيرته على الإسلام والدفاع عنه، فاتبع أسلوب المغيلي في حركته الإصلاحية، حتى صار ينقل من كتبه كأنما ينقل عنه مشافهةً، ولقد أورد في كتابه: "حصن الأفهام من جيوش الأوهام" بعض فتاوى المغيلي، وقد نسب ابن فودي نفسه إلى المغيلي كالتلميذ الذي سمع أو أخذ عنه مباشرة، رغم بُعد العهد الذي لا يقل عن ثلاثة قرون ممّا يدل على تأثره الشديد وتعلّقه به. وقد بدأ الشيخ عثمان دعوته الإصلاحية وهو في العشرين من عمره، سالكاً في دعوته أسلوب التدريس والوعظ الذي انتهجه الإمام المغيلي في رحلته للسودان الغربي، وبذلك كثر أتباعه، لتدخل دعوته الإصلاحية في مرحلة التحرك نحو قصر السلطان⁵.

ويُعد الشيخ عثمان خطيباً بارعاً حيث استطاع أن يكسب العديد من الأتباع، كما تمكّن مع أتباعه من تأسيس جماعة "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" فوشى به بعضهم إلى ملك "غوبر" الذي لم يلبث أن أصدر أمره بنفي عثمان من بلاده، وأعلن وجوب الهجرة على جماعته، فأندفع تيار عظيم يهاجر مع الشيخ عثمان، فلم يجد الملك بُدّاً من منعهم وقطع طريقهم، فاضطر ابن فودي إلى تكوين جيش إسلامي لمقاومة عدوان هذا الملك، فسارع الملك بالإرسال إلى حلفائه من ملوك الهوسا يستنجدهم، فاستجابوا له، وقامت بين الطرفين معارك عنيفة، انتصر في جميعها الشيخ عثمان، وبذلك أسس

¹ أبو بكر إسماعيل ميّقا: المرجع السابق، ص ١٧١.

² بخصوص شعب السكوتو والمملكة التي أنشأها راجع:

Ibraheem Sulaiman : **The Islamic State and the Challenge of History: Ideals, Policies, and Operation of the Sokoto Caliphate**, Mansell, 1987, Hugh A.S. Johnston : **Fulani Empire of Sokoto**, Oxford, 1967.

³ آدم عبد الله الألوري: الإمام المغيلي وآثاره في الحكومة الإسلامية في القرون الوسطى في نيجيريا، ص ٥٩، وانظر أيضاً:

Djibo Hamani : **L'Adar précolonial (République du Niger): Contribution à l'étude de l'histoire des États Hausa**, Éditions L'Harmattan, 2006, Jean Jolly : **Histoire du continent africain : de la préhistoire à 1600**, vol. 1, Éditions L'Harmattan, 1996, Mervyn Hiskett : **The Sword of Truth: The Life and Times of the Shehu Usman Dan Fodio**, Northwestern University Press, 1973, Reprint edition (March 1994).

⁴ آدم عبد الله الألوري: موجز تاريخ نيجيريا، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٥م، ص ٨٣.

⁵ ياسين شبلي: المرجع السابق، ص ١٤٦.

دولته، وقسّم البلاد إلى قسمين، فجعل الأقاليم الغربية لابنه "محمد بلو"، والأقاليم الشرقية لأخيه "عبد الله"، ورتّب البلاد بين ثمانية نواب¹.

وإذا كان المغيلي قد ألف العديد من الكتب في مختلف العلوم، كالفقه، والحديث، والتفسير، والتوحيد، واللغة، والسياسة الشرعية، فإن أربعة من مؤلفاته على الخصوص نالت اهتمام ابن فودي² وهي تلك الرسائل الثلاث التي ألفها خلال إقامته في السودان الغربي بطلب من أمير كانو وسلطان سنغاي، ورسائله الرابعة التي كتبها في نازلة يهود توات³.

وهكذا يظهر أثر حركة المغيلي الإصلاحية في بلاد السودان الغربي في زعماء السكوتو الفوديين، وعلى رأسهم الشيخ عثمان، وابنه محمد، وأخيه عبد الله، عندما درسوا كتبه ومخطوطاته، وبالأخص تلك المتعلقة بالميدانين السياسي والاجتماعي، وذلك من أجل إصلاح وتغيير الحالتين السياسية والاجتماعية لبلادهم، حيث كانت الدولة الإسلامية التي أقامها عثمان بن فودي والتي دامت قرناً كاملاً من الزمن إلى غاية مطلع القرن العشرين تقوم أساساً على نشر الدعوة الإسلامية⁴.

إنّ المتفق عليه بين جميع الدارسين الذين تناولوا شخصية الإمام المغيلي من القدامى والمحدثين، ومن العرب والغربيين، هو أنّ الرجل كان له تأثيرٌ قوي وملموس جداً ظل صدها يتردّد بعده قروناً طويلة، "ونستطيع أن نوّكد من النصوص السابقة، أنّ الدور الذي قام به العالم الجليل المغيلي لا يدانيه أي دور قام به عالم مغربي في السودان الغربي. فقد ترك أثراً إسلامياً كبيراً، وقام بتصحيح مفاهيم كثيرة كانت مغلوبة في أذهان العامّة والسلطين"⁵.

خلاصة:

يُعدُّ الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي من ابرز علماء المغرب الأوسط في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، فهو من الفقهاء الأجلّاء، والأعلام البارزين ذوي الرؤية الثاقبة والحكمة الصائبة، وواحد من العلماء المشهورين، الذين كانت لهم مشاركة واضحة في تفعيل الحياة السياسية والثقافية ببلاد المغرب الإسلامي والسودان الغربي.

على أنّ تأثير الإمام الجليل المغيلي في علماء وفقهاء ودعاة إفريقيا لا يمكن حصره في مُجرّد النقول الكثيرة التي نجدها تتردّد في جُل كتاباتهم، بل لقد تجاوز ذلك إلى إقتدائهم بسيرته، وطريقته في ردع البدع، ومنهجه في الدعوة، وإلى العمل بأرائه والاقتداء بأفكاره واستعمالها في تدعيم مواقفهم ومجادلة خصومهم. وكثيرٌ من الفصول والرسائل التي كتبها هؤلاء العلماء و

¹ آدم عبد الله الألوري: موجز تاريخ نيجيريا، ص ١٦٠.

² إذا عدنا إلى مؤلّفات عثمان بن فودي فإننا لا نكاد نجد مؤلّفاً من مؤلّفاتة يخلو من الإشارة للمغيلي، والنقل عنه والرجوع إلى و صاياه وفتاويه ورسائله، والاحتجاج بأقواله وأرائه في تدعيم دعوته، حيث اعتمد في مؤلّفاتة كلياً، وفي كثير من الأحيان على كلام المغيلي، فمثلاً في كتابه "سراج الإخوان في أهم ما يحتاج إليه في هذا الزمان" فقد قسّمه إلى عشرة فصول نقل في تسعة منها كلام المغيلي المتعلّق بأحواله، وبتنه عن أسئلة الأسقيا، ولو حذفنا هاته النقول لما بقي سوى بعض فقرات قليلة أو تعليق أو وسيلة ربط بين الكلام، وفي رسالة أخرى لابن فودي بعنوان "تنبيه الإخوان على أحوال أرض السودان" خصّص الفصل السادس من هاته الرسالة لذكر وصية المغيلي لمحمد بن يعقوب أمير كانو، كما قام في رسالته المسنّاة "حصن الأفهام من جيوش الأوهام" بنقل الكثير من كلام المغيلي في مواضع مختلفة.

³ مبروك مقدم: الإمام المغيلي من خلال المصادر، ص ٢٧٦.

⁴ أحمد إبراهيم دياب: المرجع السابق، ص ٢٦٤.

⁵ الأمين محمد عوض الله: العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي في عهد السلطنتين الإسلاميتين مالي وسنغاي، جدة، السعودية، ١٩٧٠م، ص: ١٩٢.

الدعاة ما هي إلا تكرار أو شرح أو تلخيص أو تعليق أو إعادة إنتاج لأفكار الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي وكتابه وترداد لمقولاته وآرائه.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً: المصادر العربية:

- (١) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، دار صادر، بيروت.
 - (٢) التنبكي، أحمد بابا: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تح: علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٤م.
 - (٣) ابن خلدون: المقدمّة، دار الجيل، بيروت.
 - (٤) السيوطي، عبد الرحمن: لبّ اللباب في تحرير الأنساب، تح: محمد أحمد عبد العزيز وأشرف أحمد عبد العزيز، دار الكتب العلمية، بيروت.
 - (٥) ابن عساكر: دوحة الناشر لمحاسن من كان في المغرب من مشايخ القرن العاشر، تح: محمد حجي، دار الغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، ط ٢، ١٩٧٧م.
 - (٦) المغيلي، محمد بن عبد الكريم: تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلطين، تح: محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم، بيروت، ط ١، (١٤١٥هـ/١٩٩٤م).
 - (٧) مختصران في الفرائض، تح: محمد شايب شريف، دار ابن حزم، بيروت، ط ١، (١٤٣٣هـ/٢٠١٢م).
 - (٨) أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي، تح: عبد القادر زبادية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
 - (٩) بن ميمون، محمد: التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط ٢، ١٩٨١م.
 - (١٠) الوزان، الحسن: وصف إفريقيا، تر: عبد الرحمن حميدة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط ١، ١٩٨٧م.
- ثانياً: المراجع العربية:
- (١١) الألوري، آدم عبد الله: الإمام المغيلي وآثاره في الحكومة الإسلامية في القرون الوسطى في نيجيريا، دار الحلبي، القاهرة، ١٩٧٤م.
 - (١٢) موجز تاريخ نيجيريا، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٥م.
 - (١٣) بكري، عبد الحميد: النبذة في تاريخ توات وأعلامها من القرن ٩ إلى القرن ١٤ هـ، دار الهدى، الجزائر، ط ١، ٢٠٠٥م.
 - (١٤) بلعالم، محمد باي: الرحلة العلية إلى منطقة توات لذكر بعض الأعلام والآثار والمخطوطات والعادات وما يربط توات من الجهات، دار هومة، الجزائر، ط ١، ٢٠٠٥م.
 - (١٥) بوعزيز، يحي: تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية، دار هومة للطباعة والنشر، الجزائر.
 - (١٦) دياب، أحمد إبراهيم: "علماء السودان الغربي في القرن السادس عشر وآثارهم العلمية"، ندوة الأفارقة العلماء ومساهماتهم في الحضارة العربية الإسلامية، ٢٨-٣٠ أوت، ١٩٨٣م، مؤسسة الخليج للطباعة والنشر، الخرطوم، ١٩٨٥م.
 - (١٧) رياض، زاهر: الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا ودورها في تجارة الذهب عبر الصحراء، المكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٨م.
 - (١٨) زبادية، عبد القادر: الحضارة العربية والتأثير الأوروبي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء - دراسات ونصوص -، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٥م.
 - (١٩) مملكة سنغاي في عهد الأسقيين (١٤٩٣-١٥٩١م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
 - (٢٠) سعد الله، أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر الهجري (١٦-٢٠م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
 - (٢١) الصديق، حاج أحمد: التاريخ الثقافي لإقليم توات من القرن ١١هـ/١٧م إلى القرن ١٤هـ/٢٠م، ط ١، ٢٠٠٣م.

- ٢٢) عوض الله، الأمين محمد: العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي في عهد السلطنتين الإسلاميتين مالي وسنغاي، جدة، السعودية، ١٩٧٠م.
- ٢٣) الغربي، محمد: بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، مؤسسة الخليج للطباعة والنشر، الكويت.
- ٢٤) غلادني، شيخو أحمد سعيد: حركة اللغة العربية وأدائها بنيجيريا، شركة العيكبان للطباعة والنشر، الرياض، ط ٢، ١٩٩٣م.
- ٢٥) فرج، فرج محمود: إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٧٧م.
- ٢٦) الماخي، عبد الرحمن عمر: الدعوة الإسلامية في إفريقيا: الواقع والمستقبل، ديوان المطبوعات الجامعية، قسنطينة، ١٩٨٩م.
- ٢٧) محمود، حسن أحمد: الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٨م.
- ٢٨) مقدم، مبروك: الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي من خلال المصادر والوثائق التاريخية، مؤسسة الجزائر للكتاب، تلمسان، ط ١، ٢٠٠٢م.
- ٢٩) الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي وأثره الإصلاحي بإمارات وممالك إفريقيا الغربية، خلال القرن الثامن والتاسع والعاشر للهجرة، دار الغرب، وهران، ج ٢، ٢٠٠٢م.
- ٣٠) ميغا، أبو بكر إسماعيل: الحركة العلمية والثقافية والإصلاحية في السودان الغربي من القرن ٥ إلى ١٢هـ، مكتبة التوبة، الرياض، ط ١، ١٩٩٧م.
- ٣١) نويهض، عادل: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام إلى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، ط ٢، ١٩٨٠م.
- ثالثاً: الدراسات العربية:
- ٣٢) بوغرارة، منيرة: محمد بن عبد الكريم المغيلي ومساهمته في الثقافة الإسلامية في غرب إفريقيا، رسالة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة.
- ٣٣) جالو، محمد ألفا: الحياة العلمية في دولة سنغاي خلال الفترة (٨٤٢ - ١٠٠٠هـ / ١٤٦٤ - ١٥٩١م)، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، (١٤٣٣هـ / ١٩٩٣م).
- ٣٤) حاج أحمد، نور الدين: المنهج الدعوي للإمام المغيلي من خلال الرسائل التي بعثها للملوك والأمراء والعلماء، مذكرة ماجستير في الشريعة الإسلامية، قسم أصول الدين، فرع دعوة وإعلام، كلية العلوم الإجتماعية والعلوم الإسلامية، جامعة الحاج لخضر، باتنة، (١٤٣٢هـ / ٢٠١١م).
- ٣٥) الحمدي، أحمد: محمد بن عبد الكريم المغيلي رائد الحركة الفكرية بتوات عصره وآثاره، رسالة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، ٢٠٠٠م.
- ٣٦) شبايي، ياسين: الفكر السياسي عند الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي ودعوته الإصلاحية بتوات والسودان الغربي، رسالة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، ٢٠٠٦-٢٠٠٧م.
- رابعاً: المقالات العربية:
- ٣٧) شيبان، عبد الرحمن: "من مآثر محمد بن عبد الكريم المغيلي، جهاده من أجل الوحدة الإفريقية والوحدة الإسلامية"، مجلة الثقافة، وزارة الثقافة والسياحة، الجزائر، ٨٨ع، ١٩٨٥م.
- ٣٨) ميغا، محمد حمد كنان: مظاهر الثقافة العربية الإسلامية في تمبكتو وغاو وجني في عهد الأساكي، مجلة قراءات إفريقية، ع ٣، ذو الحجة ١٤٢٩هـ / ديسمبر ٢٠٠٨م.
- خامساً: المراجع الأجنبية:

39) Bouchama, kamel : **Algérie terre de foi et de la culture**, Edition El Maarifa, bab el oued, Alger, 2000.

40) Cissoko, Sékéné Mody : **Tombouctou et l'Empire songhay**, L'Harmattan, 1996.

- 41) DEVORS, P. : **Le Touat études géographique et médicales**, Archives De L'Institut Pasteur, Alger.
- 42) Djian, Jean-Michel : **Les Manuscrits de Tombouctou : Secrets, mythes et réalités**, Éditions Jean-Claude Lattès, 2012.
- 43) GAUTIER : **Le Sahara**, Edition Payot, Paris, 1946.
- 44) Hamani, Djibo : **L'Adar précolonial (République du Niger): Contribution à l'étude de l'histoire des États Hausa**, Éditions L'Harmattan, 2006.
- 45) Hiskett, Mervyn : **The Sword of Truth: The Life and Times of the Shehu Usman Dan Fodio**, Northwestern University Press, 1973, Reprint edition (March 1994).
- 46) Johnston, Hugh A.S. : **Fulani Empire of Sokoto**, Oxford, 1967.
- 47) Jolly, Jean : **Histoire du continent africain : de la préhistoire à 1600**, vol. 1, Éditions L'Harmattan, 1996.
- 48) Milet, Éric : « **Gao** », in **Mali**, Olizane, Genève, 2007.
- 49) Monfouga-Nicolas, Jacqueline : **Ambivalence et culte de possession : contribution à l'étude du Bori hausa**, Éd. Anthropos, Paris, 1972.
- 50) Niane, Djibril Tamsi : **Histoire générale de l'Afrique, vol. 4 : L'Afrique du XIIe au XVIe siècle**, UNESCO, 2000.
- 51) Paden, John N. : **Religion and political culture in Kano**, University of California Press, Berkeley, 1973.
- 52) Smith, M. G. : **Government in Kano, 1350-1950**, Westview Press, Boulder, Colo.
- 53) Sulaiman, Ibraheem : **The Islamic State and the Challenge of History: Ideals, Policies, and Operation of the Sokoto Caliphate**, Mansell, 1987.
- سادساً: الدراسات الأجنبية:
- 54) Iroko, Abiola Félix : **Gao, des origines à 1591**, Université Panthéon-Sorbonne, Paris, 1973, p. 385 (thèse de 3e cycle d'Histoire).
- 55) Kane, Ousmane : **Les mouvements islamiques et le champ politique au nord du Nigeria : le cas du mouvement Izala à Kano**, Université Paris, 1993, (thèse de doctorat de Science politique).
- 56) Ly, Boubacar : **L'honneur et les valeurs morales dans les sociétés oulof et toucouleur du Sénégal Étude de sociologie**, Paris, Université de Paris I, 2 vol., 1966, p. 574 (Thèse de 3e cycle).
- 57) Moussa, Oumarou : **La Culture arabo-islamique, les Haoussas du sud-Cameroun (le cas de Yaoundé) et l'intégration nationale**, Université de Paris 3, 1987, p. 324 (thèse).
- 58) Ouallet, Anne : **Gao, indicateur urbain de la crise sahélienne**, Université de Rouen, 1993 (thèse de Géographie).
- 59) Saint-Martin, Yves Jean : **L'empire toucouleur et la France. Un demi-siècle de relations diplomatiques (1846-1893)**, Dakar, Univ. de Dakar, 1967, p. 482 (Thèse de 3e cycle publiée en 1968, Dakar, Publications FLSH, no 11).
- سابعاً: المقالات الأجنبية:
- 60) Batran, 'Abd-Al-'Aziz 'Abd-Allah. : "A Contribution to the Biography of Shaikh Muhammad Ibn 'Abd-Al-Karim Ibn Muhammad ('Umar-A 'Mar) Al-Maghili, Al-Tilimsani", The Journal of African History, 1973, 14 (3).
- 61) Rouire, L. : **Le sud ouest Oranais et Le Touat**, Revue De La Société De La Géographie, Oran, 1891.

تحولات منظومة القيم وصراع المرجعيات بالمدرسة المغربية

د.امبارك بوعصب/ أستاذ التعليم العالي مساعد المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين، القنيطرة، المغرب

ملخص:

تواجه المدرسة المغربية اليوم رهانات وتحديات في مجال القيم، وذلك لاعتبارات متعددة، تتمثل بالأساس فيما تعرفه المدرسة من تحولات قيمية، والمرتبطة أساسا بالتحولات الجوهرية والمتسارعة التي يعرفها المجتمع المغربي والذي لايسير بشكل متناغم ومنسجم مع ما تعرفه المدرسة المغربية من تغيرات في منظومة القيم، وما رافق ذلك من تنافر وصراع قيمي. ونتيجة لذلك ألقى المجتمع على عاتق المدرسة مسؤولية نشر القيم واستدماجها في أفق تكوين أجيال تلتزم بهذه القيم وتحاول تجسيدها من خلال سلوكات وممارسات فردية وجماعية.

لذلك، يروم هذا المقال الوقوف عند بعض هذه التحولات التي عرفتها المدرسة المغربية في مجال القيم، والعوامل التي كانت وراء اختراق قيم جديدة فضاء المؤسسات التربوية، وتحديد القيم المراد للمتعلم المغربي امتلاكها، والقيم الدخيلة عليه، وتحديد مرجعياتها وحدود التوافق والتداخل والصراع بين هذه المرجعيات.

الكلمات المفتاحية: المدرسة- منظومة القيم- تحولات القيم- صراع المرجعيات.

مقدمة:

يعد موضوع تحولات القيم في المدرسة المغربية من الإشكاليات دائمة الراهنية، لاسيما إذا علمنا أن التحولات الجوهرية والمتسارعة التي يعرفها المجتمع المغربي لا تسير بشكل متناغم ومنسجم مع ما تعرفه المدرسة المغربية من تغيرات في منظومة القيم، وما رافق ذلك من تنافر وصراع قيمي. ونتيجة لذلك ألقى المجتمع على عاتق المدرسة مسؤولية نشر القيم واستدماجها في أفق تكوين أجيال تلتزم بهذه القيم وتحاول تجسيدها من خلال سلوكات وممارسات فردية وجماعية. فانخرطت المنظومة التربوية المغربية في برامج إصلاحية لترسيخ قيم التربية على المواطنة وحقوق الإنسان، كما ركزت في سياستها البيداغوجية الحالية على التسليح بقيم حديثة وأخلاقيات جديدة فرضتها الساحة السياسية الدولية والسياقات الوطنية، مما جعلها تنهل من مرجعيات قيمية مختلفة تم التوافق حولها، لكنها ظلت دائما تعيش حالة التناقض والصراع.

الأمر الذي يجعل المدرسة المغربية تواجه رهانات وتحديات في مجال القيم، وذلك لاعتبارات متعددة، تتمثل بالأساس فيما تعرفه المدرسة من تحولات قيمية، في ارتباط بتطور المجتمع وتحولاته البنوية العميقة، والتي تعود في جزء منها إلى تنامي ظاهرة العولمة وما رافقها من تطور، خصوصا في مجال التقنيات الحديثة للمعلومات والاتصال وانتشار القيم الاستهلاكية، وظهور صراع القيم بين الأجيال، أو ما يطلق عليه صراع التقليد والحداثة داخل الأسرة والمجتمع، حيث يميل البعض إلى التشبث بالقيم الحداثية/الحديثة، ويحرص آخرون على التمسك بالقيم التقليدية، بينما يميل بعض الشباب إلى

الخلط بين القديم والحديث، وهو ما ينعكس على تمثلاتهم لأنماط السلوك والممارسات المتعلقة بمؤسسة الزواج والبناء الأسري، والتنشئة الاجتماعية والمساواة بين الجنسين، علاوة على القيم المرتبطة بممارساتهم السياسية والدينية.

وهو ما يلقي على عاتق المدرسة مسؤولية مواكبة هذا التحول، من خلال فتح نقاش مجتمعي حول موضوع القيم، من شأنه أن يفضي إلى تعاقد حول القيم المشتركة التي ينبغي على المدرسة المغربية حاضرا ومستقبلا تنشئة الأجيال عليها. والرهان على المدرسة في التربية على القيم ينبع من اقتناع مفاده: أن المدرسة ذرع مجتمعي بالغ الأهمية لصيانة الثوابت الوطنية، ولنقل القيم المشتركة للمجتمع المغربي المعبر عنها في وثائق الإصلاح المختلفة. والتي من المفترض أن تستمد قيم المدرسة المغربية مرجعيتها منها.

لذلك انخرطت المنظومة التربوية المغربية في برامج إصلاحية لترسيخ قيم التربية على المواطنة وحقوق الإنسان، كما ركزت في سياستها البيداغوجية الحالية على التسليح بقيم حديثة وأخلاقيات جديدة، فرضتها الساحة السياسية الدولية والسياقات الوطنية. في خطوة حقيقية لطى صفحات مظلمة من تاريخ المغاربة، والشروع في إرساء ثقافة جديدة، قائمة على مبدأ الحق والقيم والقانون، ويتضح ذلك صراحة من خلال ما طرحه المناهج الرسمية، ومن هنا انصب التفكير على الجانب القيمي الأخلاقي أكثر من اهتمامها بالجانب المعرفي والمعلوماتي، وفي هذا الصدد اتجهت سياسة الإصلاح إلى تبني مقاربة القيم في التدريس، وإعداد العدة الكافية لتنشئة اجتماعية متوازنة، تنسجم وتتلاءم مع حاجات الأفراد المجتمع، والنبش من أجل إرساء مرجعية لعلم القيم عبر المدرسة والهياكل التعليمية.

لكن الواضح أن التلاميذ اكتسبوا بالإضافة إلى القيم المعلنة في المنهاج الرسمي المتوافق عليه، مفاهيم وقيم لم تكن معلنه في الأهداف التي تسعى المدرسة المغربية لتحقيقها، ولم يتم التخطيط لها رسميا أو حتى توقعها من قبل القائمين على العملية التعليمية التعلمية.

هذا التعدد في مجالات القيم (قيم العقيدة الإسلامية، وقيم الهوية والمواطنة، وقيم حقوق الإنسان ومبادئها الكونية...) يقتضي - بالتبع - تعدد المرجعيات، كما يطرح إشكال التداخل والصراع بين تلك القيم ومرجعياتها، مما يزيد الأمر غموضا، ومن المعلوم أن المرجعية المعتمدة في التنظير في مجال حقوق الإنسان، وفي جميع السياقات، هي مرجعية غربية يراد لها أن تكون كونية، ومهيمنة على غيرها من المرجعيات. زد على ذلك التغيرات التي عرفها العالم في السنوات الأخيرة وخاصة في مجال تكنولوجيا الإعلام والاتصال، وتداخل الثقافات، وعودة الاقتصاد، وتشجيع القوى العظمى للإثنيات الثقافية واللغوية والإيديولوجية، مما أدى إلى تعدد مصادر القيم التي مكنت المتدربين من الولوج إلى خيارات واسعة لم تكن متاحة لهم من قبل. هذا التطور الإعلامي أسهم في منافسة المؤسسات الاجتماعية التقليدية؛ في التأطير الفكري والثقافي داخل المجتمع عبر توسيع دائرة الخيارات ومصادر تلقي المعرفة وبناء التصورات الفكرية والقيمية.

هذه التعددية في مصادر القيم التي لعب الإعلام دورا محفرا في تكريسها؛ كانت لها انعكاسات كبيرة على منظومة القيم بالمدرسة المغربية، كما أسهمت في بروز أنماط جديدة في العلاقة مع المرجعية والهوية، ولا أدل على ذلك من سيادة قيم غربية عن مجالات القيم المنصوص عليها في الوثائق الموجهة لإصلاح منظومة التربية والتكوين، بل أصبحنا أمام هيمنة مظاهر العدوانية واللاتسامح، والإخلال بأبسط قواعد الاحترام والتملص من الواجبات وغيرها من المظاهر السلبية، التي تتعارض مع ثقافة الحق والواجب وقيم التسامح... في إطار تحول وتدافع للقيم وتداخل وصراع لمرجعياتها، مما يفقد القيم مضمونها ويفقد المجتمع تماسكه ووحدته.

وضمن هذا السياق تهدف هذه المقالة إلى الوقوف عند بعض هذه التحولات التي عرفتها المدرسة المغربية في مجال القيم، وتحديد طبيعة وأشكال القيم التي اخترقت فضاء المؤسسات التربوية المغربية ومرجعيتها، والعوامل التي كانت وراء اختراق هذه القيم الجديدة لفضاء المؤسسات التربوية، وتحديد القيم المراد للمتعلم المغربي امتلاكها، والقيم الدخيلة عليه وتحديد مرجعياتها، وحدود التوافق والتداخل والصراع بين هذه المرجعيات.

مصطلحات الدراسة:

القيم: يتسم هذا المفهوم بتعدد الدلالات والاستعمالات، وباختلاف الأهداف والمرجعيات، وذلك بحسب تعدد زوايا النظر إليه، وبحسب اختلاف المذاهب الفكرية، والتيارات الثقافية، والتوجهات الدينية. مما يجعله موضوع تعارض وصراع دائمين. أفضى إلى وجود تعاريف كثيرة للقيم؛ نذكر منها:

- القيم معايير عقلية ووجدانية، تستند إلى مرجعية حضارية، تمكن صاحبها من الاختيار بإرادة حرة واعية، وبصورة متكررة نشاطاً إنسانياً. يتسق فيه الفكر والقول والفعل. يرجح على ما عداه من أنشطة بديلة متاحة فيستغرق فيه، ويسعد به، ويحتمل فيه ومن أجله أكثر مما يحتمل في غيره، دون انتظار لمنفعة ذاتية¹.

- القيم عبارة عن: مجموعة من المعايير والأحكام، تتكون لدى الفرد من خلال تفاعله مع المواقف والخبرات الفردية والاجتماعية، بحيث تمكنه من اختيار أهداف وتوجهات لحياته، يراها جديرة بتوظيف إمكانياته، وتجسد خلال الاهتمامات أو الاتجاهات أو السلوك العملي أو اللفظي بطريقة مباشرة وغير مباشرة².

- القيم: مفهوم حديث، وهو عبارة عن تقدير نقوم به تجاه شخص أو فرد أو نشاط حسب تحصيله منه، وتتكون القيم من مجموع معتقدات واختيارات وأفكار تمثل أسلوب تصرف الشخص ومواقفه وآراءه. وتحدد مدى ارتباطه بجماعته، وتشكل مجموع القيم؛ النظرة إلى العالم³.

- صراع المرجعيات: ونقصد بها غياب التوافق والانسجام داخل نسق القيم مما ينتج عنه تبليها وتضادها، فإذا كان مفهوم نسق القيم المتساندة بنائياً، والمتباينة وظيفياً في داخل إطار ينظمها ويشملها ويرسم لها تدرجاً خاصاً، فإن عدم الاتساق والانسجام يعني حالة تكون فيها القيم متعارضة ومتضاربة⁴.

وجدلوية القيم والمرجعيات يبقى حاضراً بين داع إلى الاستناد إلى المرجعية، التي تحكم كل بلد وتنظم عقد قوانينه في جميع المجالات، استناداً إلى الخصوصيات الحضارية التي تميزه عن غيره من بلدان العالم، بل وينظر إلى هذه الخصوصيات باعتبارها نموذجاً مختلف، يسهم في تعزيز ثقافة الحوار والتعايش والتفاهم، وكل أفعال المشاركة هذه قائمة على قيمة نبيلة؛ ألا وهي قبول الاختلاف وتجاوز الخصوصيات⁵.

١ - أحمد المهدي عبد الحليم، "تعليم القيم فريضة غائبة في نظم التعليم، مجلة المسلم المعاصر"، العدد ٦٥-٦٦ سنة ١٩٩٣، ص: ١٩.

٢ - أبو العينين علي، القيم الإسلامية والتربوية، مكتبة إبراهيم حلي، المدينة المنورة، ١٩٨٨، ص: ٣٤.

٣ - الأحمر عبد السلام، المسؤولية أساس التربية الإسلامية، محاولة في التأصيل، سلسلة كتاب تربيتنا رقم ٤، مطبعة طوب بريس، الرباط، ٢٠٠٧، ص: ٣٧.

٤ - السيد الشحات أحمد حسن، الصراع القيمي لدى الشباب ومواجهته من منظور التربية الإسلامية، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٨٨، ص: 21.

٥ - الصمدي خالد، القيم الإسلامية في المنظومة التربوية دراسة للقيم الإسلامية وآليات تعزيزها، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، إيسيسكو، ٢٠٠٨، ص: ١٣ - ١٤.

١ - الخطاب التربوي وتنمية القيم في المدرسة المغربية:

شكل اعتماد مدخل التربية على القيم في منظومة التربية والتكوين بالمغرب، مرحلة جديدة تفتح الباب لتدارك كثير من النقائص التي أبان عنها التقدم الضطرد في مجال علوم التربية وما حققه من مستجدات، وإذا ما حاولنا أن نبين دواعي اعتماد هذا المدخل في نظام التربية والتكوين بالمغرب كاختيار استراتيجي، فإننا نجد ذلك قد حصل استجابة لمجموعة من الدواعي الفلسفية. ويقصد بها الأسس التي نص عليها الميثاق الوطني للتربية والتكوين، الذي يعتبر المرجع الأساسي في الإصلاح الجديد، والذي في ضوئه تمت مراجعة برامج التعليم، قصد بناء منهاج جديد متكامل يستجيب للشروط والمتطلبات العلمية التي يقتضيها بناء المنهاج التربوي. هذا بالإضافة إلى أننا أصبحنا نعيش في عالم متغير حامل لوسائل وقيم متعددة، وضمن مجتمع مغربي يشهد تحولات عميقة، وفي فضاءات تعليمية أضحت تلامذتها يمتلكون قيما تعارض أحيانا مع القيم المشتركة للمجتمع المغربي المعبر عنها في الدستور ومختلف وثائق الإصلاح التربوي.

لذلك وُضع الميثاق الوطني للتربية والتكوين لترسيخ منظومة القيم في السياسة التربوية الوطنية، وجعل التربية على القيم أحد المداخل الثلاثة للمنظور الإصلاحي الشامل للمنظومة التربوية، حيث نص الميثاق، ولاسيما قسمه الأول، المتعلق بالمبادئ الأساسية للمنظومة الجديدة للتربية والتكوين، سواء في ارتباطها بالمرتكزات الثابتة، أو الغايات الكبرى، أو حقوق وواجبات الأفراد والجماعات، على التربية على القيم. والعمل على إنجاح المتعلم في الحياة وتأهيله للتوافق مع محيطه في كل فترات ومراحل تربيته وتكوينه، وذلك بفضل ما يكتسبه من كفايات ضرورية لتحقيق النجاح والتوافق ضمن منظومة من القيم الوطنية والعقدية والكونية.

وبقراءتنا لمواثيق الإصلاحات التربوية وخاصة وثيقة الميثاق الوطني للتربية والتكوين وتتبع مجالاته، وبالتركيز على مجال القيم؛ فإننا نلاحظ ما يلي:

- حضور القيم والتنصيص عليها بشكل صريح في القسم الأول المتعلق بالمبادئ الأساسية التي بني عليها الإصلاح وفي مقدمة الميثاق، وتتصدر كل مجالاته، وينص بالحرف "يهتدي نظام التربية والتكوين للمملكة المغربية بمبادئ العقيدة الإسلامية، وقيمها الرامية لتكوين المواطن المتصف بالاستقامة والصالح، المتسم بالاعتدال

والتسامح" - <http://www.mithaqarrabita.ma/%D9%85%D9%86%D8%B8%D9%88%D9%85%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D9%82%D9%8A%D9%85-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%AF%D8%B1%D8%B3%D9%8A%D8%A9-%D9%88%D8%A5%D8%B4%D9%83%D8%A7%D9%84%D9%8A%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%AF%D8%A7>

11 - وهذا يؤكد بوضوح مكانة القيم في إصلاح نظامنا التربوي.

- تعدد مجالات القيم في الوثائق التفصيلية للميثاق، والمبينة لمجملاته مثل الكتاب الأبيض، الذي عدد مجالات القيم لتشمل قيم العقيدة الإسلامية، وقيم الهوية الحضارية ومبادئها الأخلاقية والثقافية، وقيم المواطنة، وقيم حقوق الإنسان ومبادئها الكونية²، كما حدد مواصفات المتعلمين من حيث القيم والمقاييس الاجتماعية المرتبطة بها، وهي مواصفات تتدرج باختلاف المستوى العمري للتلاميذ ومنها: التشبع بالقيم الإسلامية وممارسة أخلاقياتها، قيم الحضارة المغربية والوعي بتنوع

١ - المملكة المغربية، وزارة التربية الوطنية، الميثاق الوطني للتربية والتكوين، ٢٠٠٠، ص: ٩.

٢ - الكتاب الأبيض، نونبر، ٢٠٠١، ص: ٦.

وتكامل روافدها، قيم حقوق الإنسان/حقوق المواطن المغربي وواجباته... وقد تم العمل على بناء مقررات المواد المختلفة على أساس ترسيخ منظومة من القيم.

وإذا كان النزاع حول القيم هو معطى مجتمعي كوني، فإن من مهام المدرسة إنتاج التناسق القيمي بحكم طبيعتها التربوية، ولا يمكن أن تقف محايدة أو تقبل بترويج قيم متضاربة، عاكسة بذلك التضارب القيمي الحاصل في المجتمع¹.

لكن المتفحص لهذه النصوص المرجعية الحديثة للمنظومة التربوية المغربية، أو المناهج والكتب المدرسية، لن يجد عناء ليصدر حكما مفاده بأن منظومتنا التربوية تقبل بالنسبة المعيارية، وتعتمدها كخيوط رابط بين كل ما تقدمه من قيم لرواد المدرسة المغربية².

ففي القسم الخاص بالمرتكزات أو الثوابت المؤسسة للمشروع التربوي المغربي، نجد بأن واضعي الميثاق الوطني توافقوا على اعتماد مجموعة من الدوائر المعيارية المتجاوزة، ترسم للمدرسة المغربية الآفاق القيمية أو المعيارية³. ويمكن إجمال بعض معالم الرؤية القيمية في العناصر التالية:

- البعد الديني: والمتمثل في الدين الإسلامي وقيمه الإنسانية النبيلة وأهدافه العليا ومراميه الفضلى، وفق روح تجديدية وإبداعية مولدة للأخلاق والقيم التنويرية والنهضوية والحضارية.

- البعد الحضاري: والذي يضم مختلف الروافد الثقافية والتاريخية والأنطروبولوجية التي ميزت طبيعة المغاربة والمغرب عبر العصور، وهكذا يمكن الحديث عن الرافد الأندلسي والإفريقي والصحراوي/ الحساني. وهذه الروافد بتعددتها وغناها تمثل عناصر لصقل هوية المغاربة وإذكاء تميزهم على الصعيد العالمي.

- البعد اللغوي: يتضح ذلك من خلال التنصيص على كون اللغة العربية لغة معيارية للمغاربة، بالإضافة إلى اللغة الأمازيغية، واللذان يمثلان مبدأ استقلال المغرب وضمان هيئته وتمييزه. هذا بالإضافة إلى إدخال مفهوم اللغات الأجنبية وتدقيقها باللغات الحية المستعملة في الكون، مما يفهم منه أننا إزاء توجه جديد يستشرف فك الارتباط باللغة الفرنسية كلغة أولى للمغاربة.

- البعد الكوني: بما يتضمنه من قيم كونية إنسانية سامية، كقيم حقوق الإنسان والعدل والحرية والكرامة... لكننا نعتقد أن عملية استلهام هذه القيم الكونية، وجب أن يكون وفق رؤية إبداعية وتجديدية تتجاوز عيوب الماضي وإشكالاته المخلة بهذه القيم.

ومن القيم الأخرى التي انصب عليها الاهتمام في المناهج المدرسية التركيز على القيم الحقوقية، والحريات الطبيعية والمدنية، والدفاع عن كرامة الفرد والجماعة، وإرساء دولة الحق والقانون، والحد من شطط السلطة، والدفاع عن الحقوق المدنية المشروعة بما فيها الحقوق السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية.

٢ - المرجعيات التي يستمد منها النظام التربوي المغربي قيمه:

١ - جنجار محمد الصغير، "حدود الاختيار التوافقي وانعكاساته على منظومة القيم في المدرسة المغربية"، دفاثر التربية والتكوين، منشورات المجلس الأعلى للتعليم، العدد ٥، شتنبر ٢٠١١، ص: ١٥.

٢ - نفسه، ص: ١٦-١٧.

٣ - نفسه، ص: ١٧.

من المعلوم أن أي نظام تربوي لا بد أن تكون مرجعياته واضحة، حتى تكون مقاصد التربية التي يتوخاها دقيقة ومحددة وقابلة للتقويم¹. ويتضح أن الاختيارات والتوجهات المحددة في النظام التربوي المغربي قد أشارت بوضوح إلى اعتماد مرجعية قيم العقيدة الإسلامية إلى جانب مرجعية المواطنة وحقوق الإنسان كما هي متعارف عليها دوليا، والمرجعية الحضارية الوطنية، مما يفتح المجال أمام تضارب وتناقض كبيرين في بعض المفاهيم والمواضيع التربوية أثناء وضع البرامج والمناهج². في ظل هذا الوضع، أصبح المشروع التربوي ينهل من مرجعيات قيمة متجاوزة، " القيم الدينية، الوطنية، الفلسفية الحديثة، حقوق الإنسان...ومن ثم ترك لواضعي البرامج والمناهج ومؤلفي الكتب المدرسية والمدرسين الحق في الأخذ من هذه المرجعيات وفق قناعاتهم، ومن دون أدنى تراتبية أو وحدة عضوية، الأمر الذي يتجلى واضحا في التضارب القيمي في المقررات الدراسية المختلفة³.

هذا التضارب والتنافر يدفعنا للتساؤل حول أهداف ومرجعية منظومة التربية والتكوين بالمغرب، هل هي مستقلة في حسم الخيارات الوطنية، أو تفرض تحت ضغوط دولية داعية إلى اعتماد المرجعيات الكونية، وإن ناقضت في بعض مقتضياتها المرجعيات الحضارية الوطنية. ولعل هذا ما جعل منظومة القيم بالمدرسة المغربية تعاني صراع مرجعيات. وتسعى إلى تكييف نظامها التربوي مع المتغيرات الدولية، بل وتلجأ إلى اعتماد صيغ عامة قابلة للتأويل والقراءات المتعددة، أو اعتماد مرجعيات متعددة حتى وإن كانت متناقضة في بعض منطلقاتها وأبعادها إرضاء لجميع الأطراف⁴.

٣ - القيم في المدرسة المغربية بين تصورات المنهاج والواقع:

يحظى موضوع القيم بأهمية خاصة في المناهج التربوية باعتبار المدرسة حامية للقيم المثلى، وتعززها لدى المتعلمين والمتعلمات معرفة وثقافة وسلوكا، عبر البرامج التعليمية الفعالة والقابلة للتطبيق. فالمنهاج هو الركيزة الأساس التي تبني عليها أهداف المستقبل.

من هذا المنطلق، وُجّهت العناية للملاءمة للمناهج والبرامج الدراسية مع متطلبات التربية على القيم من خلال إدراجها في مختلف المواد والتخصصات، مع وضع الطرائق البيداغوجية لتيسير نقلها للمتعلمين. لكن الإشكال يرتبط بطريقة عرض القيم بأصنافها في الكتب المدرسية، وكيفية تفاعل المدرسين مع الأهداف القيمية.

فمن خلال استقراء بعض مضامين الكتب المدرسية، يمكن القول - إجمالاً - أن القيم حاضرة بكل الأسلاك والمواد، مع وجود اختلاف في مدى حضورها من كتاب لآخر ومن مادة لأخرى، الأمر الذي أفضى إلى تباين مواقف الدارسين حول طبيعة حضور القيم بالكتاب المدرسي، إذ يعتبرها البعض⁵، بأنها متنوعة ونبيلة ومثالية بعيدة عن المآرب المادية والمكاسب البرغماتية النفعية. بل هي قيم سامية ذات مضامين وطنية وقومية وإنسانية وأخلاقية واجتماعية وثقافية وفلسفية،

١ - الصمدي خالد، خطاب التربية الإسلامية في عالم متغير، تجديد الفلسفة وتحديث الممارسة، منشورات المركز المغربي للدراسات والأبحاث التربوية بالمدرسة العليا للأساتذة بتطوان، ص: ٤١.

٢ - الصمدي خالد، خطاب التربية الإسلامية في عالم متغير، م س، ص: ٤١.

٣ - جنجار، "حدود الاختيار التوافقي وانعكاساته على منظومة القيم في المدرسة المغربية" م س، ص: ١٨.

٤ - خالد الصمدي، "خطاب التربية الإسلامية في عالم متغير"، م س، ص: ٤١.

٥ - نفسه، ص: ٥٢-٥٣.

تتجاوز ما هو مادي إلى ما هو روحاني وجمالي. فيما يرى آخرون¹، أنها قليلة وميزها شحوب واضح في الإبعاد الوطنية والقومية والإسلامية. بل يذهب البعض للقول أنها مقصية تماما رغم أهميتها².

وعليه، فالكتب المدرسية بقيمها المثلى ومبادئها الفضلى وفضائلها العليا أصبحت بعيدة عن الواقع الاجتماعي للتلميذ، وصارت هذه القيم ذات الطبيعة النظرية الطوباوية مجرد قيم نظرية عقيمة مفروضة على أفراد المجتمع بصفة عامة والمتدربين بصفة خاصة، تستلزمها الظروف الاقتصادية والسياسية والاجتماعية الآنية التي تمر بها الدولة، وما تستوجبه العلاقات الدولية من تدخلات لتثبيت مجموعة من القيم أو تصحيحها أو تغييرها أو الحد منها، وما تقتضيه المصالح والأهواء الإيديولوجية التي تبتغها السلطة والفئات الحاكمة من جراء تكريس مجموعة من القيم أو تعديلها في فترات معينة، كما يلاحظ المحلل أن هذه القيم السلوكية غلفت بللطابع السياسي والإيديولوجي أكثر مما غلفت بالجانب الديني والأخلاقي³.

ومهما يكن الأمر، فإن نجاح المؤسسة التعليمية في تربية المتعلمين على القيم وتعميق الاعتزاز بالذات الوطنية رهين بتدليل مجموعة من الصعوبات؛ سواء المرتبطة باختيار الطرائق البيداغوجية الملائمة، أو بإدراك المتعلم للحقوق التي يتمتع بها والواجبات التي ينبغي الالتزام باحترامها، حتى لا تبقى هذه القيم مبادئ سلوكية مجردة وطوباوية مادامت لا تترجم ميدانيا في الحياة اليومية للتلاميذ ولا تمارس واقعا وإجراءيا.

ولم تكتف الكتب المدرسية بتقديم القيم الأخلاقية المعهودة سابقا، بل نصت على قيم معاصرة كالقيم العلمية والثقافية والإعلامية التي تنصب على تسليح المتعلم بتقنيات تكنولوجيا الاتصال والمعلومات، ومساعدته على الاطلاع على قيم العولمة الثقافية والاقتصادية مع ضرورة تشبعه بالثقافة البصرية والجمالية والفنية، وتمثل الحرية الحداثية بالطريقة التي تستوجبها سياسة الانفتاح المفروضة.

من خلال هذه المعطيات تظهر مركزية القيم في المنظومة التربوية بمختلف تجلياتها وأبعادها الوطنية والدولية، وكذا استيعاب الماضي، واستحضار متطلبات المستقبل. ومن المؤكد أن هذا الحضور للقيم على مستوى المنهاج الرسمي كانت له انعكاسات على مستوى التنزيل.

أما السبب في هذا الانفتاح فيرتبط بكون الدولة المغربية وقعت منذ التسعينيات من القرن الماضي على مجموعة من الاتفاقيات والبنود والمعاهدات الدولية التي ترمي إلى إسعاد الإنسان وإرساء النظام الديمقراطي، وإحقاق مجموعة من الحقوق مع إبطال مجموعة من الانتهاكات التي كانت تطال الإنسان المغربي كالتعسف والقمع ومنع الحريات الخاصة والعامة، والاعتقال غير الشرعي، وتطبيق سياسة التعذيب في السجون بشكل لا إنساني.

٤ - عوامل التحول القيمي في المدرسة المغربية:

بداية، لا بد من القول انه يصعب من الناحية المنهجية الوقوف عند مجمل التحولات التي مست المدرسة المغربية، لأن ذلك يتطلب دراسة أكاديمية تتجاوز حدود هذه المقال، على اعتبار أن هذا الرصد يتطلب مداخل علمية متعددة ومتنوعة لفك رموزه. إلا انه بالرغم من هذا الحذر المنهجي، فإننا نغامر بالقول بأن المدرسة المغربية عرفت تحولات واضحة في مجال

١ - بنان مصطفى، "فقر القيم في الكتب المدرسية للغة العربية بالمرحلة التأهيلية"، مجلة الفرقان، عدد، ٦٠، سنة ٢٠٠٨، ص: ٣٤ - ٣٨.

٢ - العسري الفضيل، "مادة الفلسفة ومنظومة القيم"، مجلة الفرقان، عدد، ٦٠، سنة ٢٠٠٨، ص: ٣١.

٣ - حمداوي جميل، "منظومة القيم في مقررات التعليم الثانوي التأهيلي بالمغرب"، مجلة الفرقان، عدد، ٦٠، سنة ٢٠٠٨، ص: ٥٢ - ٥٣.

القيم، وذلك تبعاً لما طرأ على المجتمع المغربي من تغيرات، رافقها ظهور حاجات ومتطلبات جديدة، وتنامياً مستمراً لتوقعات الأفراد. هذا التغير الاجتماعي أدى إلى حدوث شرخ في نسق القيم، حيث غلبت القيم الفردية ذات النزعة المادية على حساب القيم الجماعية، وذلك بسبب تمييع وتفسخ الضوابط المجتمعية، حيث أصبحت القيم المادية هي المحدد والموجه لسلوك العديد من أفراد المجتمع، خاصة الشباب منهم. ومن عوامل هذا التغير:

١٤ تحول قيمي بسبب التغير التكنولوجي:

إن المتتبع لما يحدث في عالمنا اليوم يجده يمر بمرحلة جديدة، وهي مرحلة ما بعد الحداثة، والتي من أبرز معالمها ظاهرة العولمة، وما رافقها من تطور هائل في المجال المعرفي والمعلوماتي، وفي مجال تكنولوجيا الاتصالات، و لم يكن غريباً أن يتأثر مجال القيم بالمستجدات والتغيرات العالمية، التي كان من نتائجها انحصار قيم وظهور قيم جديدة، فالعولمة بالرغم من مظهرها الاقتصادي والسياسي، إلا أن هدفها النهائي هو التغيير في الجانب الاجتماعي والثقافي للمجتمعات البشرية، بما في ذلك الهوية وأنماط العيش والقيم، وللوهلة الأولى يبدو أن العولمة موجهة نحو مقاصد المال والاستهلاك والماديات، ولكن سلاحها الحقيقي في الواقع موجه نحو عقلية الإنسان وقيمه الاجتماعية وعقيدته، فهي غزو ثقافي بأكمله، لأنها موجهة لفكر الإنسان بفضل حيازتها على منظومة معرفية شاملة ومنظمة.

ولعل المؤسسة المدرسية باعتبارها مؤسسة للتنشئة الاجتماعية التي تتشكل فيها ملامح هوية المراهق وقيمه الاجتماعية واتجاهاته، هي أكثر المؤسسات التربوية والاجتماعية تأثراً بهذه التحولات، فقد أصبحت وظيفتها بالغة التعقيد، نظراً لتعاظم دور القوى والمؤثرات غير المقننة (مثل الإعلام الفضائي)، واحتلال المؤسسة الإعلامية ولاسيما الفضائيات التي دخلت كمنافس قوي، لتتولى عملية التنشئة الاجتماعية، فإرضاء نفسها بقوة على بقية الأطراف المعنية بهذه العملية، موظفة في ذلك كل ما تملكه من وسائل الإغراء والاستقطاب، لا يملك المتعلم معها إلا الإذعان والاستسلام، خاصة إذا عرفنا أن مرحلتنا الطفولة والمراهقة هما مرحلتا التكوين الحقيقي والفعال للقيم الاجتماعية: بمعنى أن هذه التغيرات وضعت المتعلمين في مواجهة قيم اجتماعية دخيلة، كالميل إلى التملص من الرابط الأسري، وعدم التمسك بالقيم والعادات المتعلقة بموروثنا الديني والثقافي، وبذلك يكون قد ابتعد عن قيم المجتمع والمنظمة التعليمية.

٢٤ تحول قيمي بسبب عملية التطبيع الاجتماعي: وهي في أساسها عملية اهتزاز للتوازن القيمي، وتحرك لتحقيق توازن جديد، حيث نجد أن في النسق الاجتماعي ميكانزمات محددة تفرض ضغوطاً أو توترات على الفرد تجعله يتخلص من اتجاهه القيمي المتوازن (مثل جماعة الأصدقاء، المناخ التربوي داخل المؤسسات التعليمية)، ثم تمده بعد ذلك بالأساليب التي يتغلب بها على هذه التوترات، ويساعده على قيام توازن لنمط التفاعل الجديد.

٣٤ تحول قيمي بسبب تأثيرات العولمة على القيم: أدى تنامي ظاهرة العولمة وما رافقها من تطور خصوصاً في مجال التقنيات الحديثة للمعلومات والاتصال وانتشار القيم الاستهلاكية، وظهور صراع القيم بين الأجيال، أو ما يطلق عليه صراع التقليد والحداثة داخل الأسرة والمجتمع، حيث يميل البعض إلى التشبث بالقيم الحداثيّة/الحديثة، ويحرص آخرون على التمسك بالقيم التقليدية، بينما يميل بعض الشباب إلى الخلط بين القديم والحديث، وهو ما ينعكس على تمثلاتهم لأنماط السلوك والممارسات المتعلقة بمؤسسة الزواج والبناء الأسري، والتنشئة الاجتماعية والمساواة بين الجنسين، علاوة على القيم المرتبطة بممارساتهم السياسية والدينية.

كما سعت العولمة إلى محاولة القضاء على الإرث الإنساني المقدس بالنسبة لنا كعرب ومسلمين، وذلك من خلال العمل على تعميم القيم الغربية. وخاصة الأمريكية، وذوبان الحضارات غير الغربية في النموذج الحضاري الغربي، بل وتعميم

السياسات المتعلقة بالطفل والمرأة والأسرة، والتظاهر بالحفاظ على حقوقهم، ولكنها في الحقيقة تعمل على تفكيك الأسرة، والإحساس بالمواطنة، واستغلال المرأة في الإثارة والإشباع الجنسي وإشاعة الفاحشة في المجتمع، وخير مثال على نموذج لعولمة القيم الغربية والأمريكية، هو صياغة تلك القيم الغربية في موائيق ثم عولمتها باسم الأمم المتحدة. فالقيم والمعايير الحدائية قد اختلطت بأنماط التفكير والإحساس الموروثة عن أنماط الوجود الاجتماعي المخزني، القبلي، ذلك أن تلك التحولات الحدائية الناجمة عن اندراج المغرب فبنية النظام العالمي أولاً، وعن تحولات المجتمع المغربي وما طرحه تلك التحولات ثانياً، لم ترفق بتحديث فعلي لمحتوى مؤسسات التنشئة الاجتماعية، لقيم والقواعد والذهنيات والاستعدادات النفسية والفكرية واللاشعورية المنتجة لسلوك الفردي والجماعي¹.

٥ - منظومة القيم في المدرسة المغربية وصراع المرجعيات:

يفترض أن تستمد قيم المدرسة المغربية مرجعيتها على الخصوص من الدستور الجديد، وغايات المنظومة الوطنية للتربية والتكوين المحددة في الميثاق، بوصفه إطاراً مرجعياً وطنياً لتجديد بناء المنظومة التربوية وإصلاحها. لكن الواقع يبين أن النظام التربوي الحديث يعيش صراعات، لعل أكبرها: الصراع حول الهوية ومنظومة القيم، التي اتخذت مظاهر وأشكال مختلفة، ومست بعض القضايا التي تالمجمع عليها وطنياً كالدين واللغة والانتماء العربي الإسلامي².

ويمكن التمييز في هذا الصراع بين تيارين: الأول وطني إسلامي، والثاني تغريبي³. وقد نجح الخطاب السياسي والبيداغوجي الرسمي - إلى حد كبير - في استيعاب هذا التعارض وتديبره من طرف واحد، حيث كان يقدمه على أنه تنوع وخصوصية للمغرب نظراً لموقعه الجغرافي ودوره التاريخي، لكن تحليل محتوى هذا الخطاب، وتحليل البرامج التربوية التي تم اعتمادها عبر الإصلاحات المختلفة، يبين أننا أمام قيم متصارعة متعارضة، تقدم للمتعلّم الواحد في المدرسة العمومية، وتؤثر بالتالي سلبياً على تكوين شخصيته وتماسكها وتوازنها⁴.

وجاء الإصلاح الأخير مع خطوة وضع الميثاق الوطني للتربية والتكوين فكان التوافق النسبي بين أطراف الصراع على أرضية مشتركة، وإذا كان التوافق الذي يعترف ويقبل بوجود وتنافس منظومات واختيارات متعددة أمراً محموداً في الحقل السياسية والاجتماعية والاقتصادية، فإن نقله إلى مجال التربية يؤدي إلى مضاعفات سلبية تفقد من خلاله المدرسة تجانسها وفعاليتها، ويصبح التوافق في الحقل التربوي معناه إرجاء الاختيار ونقل الصراع المعياري والقيمي القائم في المجتمع إلى قلب المدرسة⁵.

ولا شك أن هذه المقاربة التوافقية تتخذ دينامية معاكسة تماماً للفلسفة التي نشأت بموجبها مؤسسة المدرسة، في المجتمعات الحديثة، فالتوافق هنا، معناه نقل التنافر الطبيعي القائم في المجتمع، أو ما يطلق عليه السوسولوجيون "تنازع القيم"، إلى قلب المؤسسة التربوية، ومن ثم تصبح المدرسة مرآة تعكس تناقضات المجتمع⁶. ومشتلاً ترعى مرجعيات مختلفة

١ - حيمر عبد السلام، مسارات التحول السوسولوجي في المغرب، سلسلة شرفات، ٣٤، الطبعة الثانية، ٢٠١٣، ص: ١٢.

٢ - بايشي محمد سالم، "تغيرات منظومة القيم في البرامج التربوية المغربية"، مجلة الفرقان، العدد، ٦٠، ٢٠٠٨، ص: ٥٤.

٣ - نفسه، ص: ٥٤.

٤ - نفسه، ص: ٥٥.

٥ - جنجار، م، س، ص: ١٧.

٦ - نفسه، ص: ١٧.

متصارعة لمكونات النسيج المجتمعي، الأمر الذي يجعلنا نتساءل حول مدى توافق القيم التربوية مع قيم المرجعيات الاجتماعية وغيرها.

ولتأكيد ذلك، يكفي أن ندقق في الفقرة المتعلقة بالاختيارات والتوجهات في مجال القيم في "الكتاب الأبيض"، ليظهر لنا ذلك التناقض في مظاهره الصارخة، إنها حسب احد الباحثين¹ اختيارات وتوجهات لم تتورع عن أن تجمع في جعبتها بين ما لا يحتمل المزج والدمج، إلا على حلبة التنازع والصراع: قيم العقيدة الإسلامية - قيم الهوية الحضارية ومبادئها الأخلاقية والثقافية - قيم المواطنة- قيم حقوق الإنسان ومبادئها الكونية. ثم يتساءل مستنكرا: ما الذي يجمع في صعيد واحد بين قيم العقيدة الإسلامية، وقيم حقوق الإنسان ومبادئها الكونية، والحال أن مرجعية كل منهما على طرفي نقيض، إذ أن مصدر الأولى سماوي رباني، بينما مصدر الثانية أرضي إنساني، على اعتبار أن قيم الكرامة والمساواة والحرية وغيرها في المرجعية الأولى غيرها في المرجعية الثانية. ومن شأن هذه الازدواجية والتناقض في المناهج التربوية والتعليمية، ووجود تيارات فكرية وثقافية وتعليمية متصارعة، أن يسقط المتعلمين في متاهات الصراعات القيمية².

وبدورها تتركز القيم الموجودة في مقررات التعليم على مجموعة من المرجعيات المتوافقة أحيانا والمتصارعة أحيانا أخرى، ومن خلال هذه القيم الأخلاقية والمواقف السلوكية؛ يمكن الإشارة إلى المصدر الديني الإسلامي قرآنا وسنة (مصدر أساسي لمعظم هذه القيم)، وعلم الأخلاق (التضامن، والأخوة، والتعاضد، والتسامح...)، والتصوف، والحقل الفكري والحضاري (تعدد الثقافات، وحوار الحضارات...)، والقوانين والتشريعات الدولية المعاصرة (التشريعات المتعلقة بتنفيذ التوصيات والقرارات الخاصة بحقوق الإنسان)، والاتفاقيات المبرمة والموقعة بين الدول (تكريس حقوق الإنسان، واحترام حريات الأجانب، ونبذ التمييز العنصري، ومحاربة التطرف والإرهاب...)، والميثاق الوطني للتربية والتكوين (تسطير مجموعة من الأهداف والغايات...)، والمنظومة الفلسفية (فلسفة الشخصية، وفلسفة القيم، وفلسفة الغير، وفلسفة الطبيعة والثقافة، وفلسفة الحق والدولة...)، والحقل السيكلوجي (الشخصية المفتوحة، والنقد الذاتي، والإحساس بالثقة...)، والحقل السوسيلوجي (المجتمع المدني، والشراكة، والقيم الاجتماعية الإيجابية...)، والحقل الحقوقي والإنساني (منظومة حقوق الإنسان...)، والحقل السياسي (إرساء الديمقراطية الحقيقية ودولة الحق والقانون...)، والحقل الاقتصادي (التنمية البشرية، والتنمية المستدامة، واقتصاد العولمة...)، والحقل العلمي والتكنولوجي والإعلامي (الانفتاح، والحدثة، والتطور المعلوماتي، والقيم العلمية والمعرفية الجديدة)، ومجال العولمة (القيم الكونية، وخطاب التسامح، وتعاضد شعوب العالم في قرية واحدة)³.

ومن المعلوم أن المرجعية المعتمدة في التنظير في مجال حقوق الإنسان، وفي جميع السياقات، هي مرجعية غربية يراد لها أن تكون كونية، ومهيمنة على غيرها من المرجعيات، بدعوى كثير من مفكري الغرب أنها هي وحدها التي يجب أن تسود؛ لأن المرجعية الإسلامية على وجه التحديد، ليس في شريعته ولا في تراثها الفكري ما يسهم بصورة إيجابية في ترسيخ حقوق الإنسان، وربما ذهب بعضهم إلى أن الإسلام يشكل عائقا في وجه قيام تلك الحقوق⁴.

١ - بنمسعود عبد المجيد، "المنظومة التربوية المغربية في ميزان القيم"، مجلة الفرقان، العدد، ٦٠، ٢٠٠٨، ص: ١٩.

٢ - الحوات علي، "بعض مشكلات الشباب المسلم في مجال الإعداد المهني"، مجلة الفكر العربي، العدد 47، 1987، ص: 139.

٣ - حمداوي، م س، ص: ٥٢-٥٣.

٤ - الكتاني محمد، منظومة القيم المرجعية في الإسلام، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، ايسيسكو، ٢٠٠٤، ص: ١٢.

ومع ظهور العولمة وتطور وسائل الإعلام فرضت على المجتمع المغربي قيما دخيلة وبمرجعيات جديدة. ولعل هذا التحول القيمي الذي يشهده المغرب هو ما أكدته تقرير الخمسينية إذ يقول واضعو التقرير بأن هناك تحول في مرجعية القيم ببلادنا؛ حيث تم الانتقال من مرحلة تتميز بما استأنس به المغاربة من تعايش بين القيم التقليدية التي تعرف تراجعاً لحساب القيم الجديدة التي توجد في طور البروز والترسخ، فهل يتعلق الأمر بأزمة القيم أم ببوادر حادثة ترسخ. كما أن أزمة القيم أو تصدع منظومة الأخلاق تشكل حسب التقرير إحدى المحددات الخمسة لاختلالات المنظومة التربوية بالمغرب¹.

خلاصة:

يمكن القول أن التحديات التي تواجه المدرسة المغربية على المستوى القيمي تنبع من كون المنظومات القيمية والثقافية في المجتمع المغربي تشهد تحولات عميقة، مما يسائل دور المدرسة في تنمية القيم المشتركة للمجتمع ومسؤولياتها في مواكبة التغيرات المجتمعية من خلال ترسيخ القيم الإنسانية لدى الناشئة، وملاءمة آليات وطرائق فعلها البيداغوجي لنقل القيم المشتركة بأساليب مقنعة.

كما أن فحص النصوص المرجعية الحديثة للمنظومة التربوية المغربية أبان عن وجود مقاربة توافقية كانت لها مضاعفات سلبية على المستوى القيمي. خصوصاً ما يتعلق بمبدأ الاستقلالية في حسم الخيارات الوطنية والضغوط الدولية الداعية إلى اعتماد المرجعيات الكونية وإن ناقضت في بعض مقتضياتها المرجعيات الحضارية الوطنية. ولعل هذا ما جعل منظومتنا التربوية تتكيف مع المتغيرات الدولية بالاعتماد على مرجعيات متعددة للقيم، حتى وإن كانت متناقضة ومتصارعة في بعض منطلقاتها وأبعادها. وهو ما يفسر سر عدم تحقق ذلك التطور المنسجم و المتناغم بين دينامية التحول في المغرب ومنظومة القيم في المدرسة.

وكان للتحولات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وانتشار مبادئ حقوق الإنسان، اثر كبير في اختراق قيم جديدة - تقوم على الحداثة والتنوع الثقافي والمواطنة الكونية - فضاء المؤسسات التعليمية، مما وضع المتعلمين أمام "تناقضات" كبيرة؛ تمثلت أساساً في محاولة البعض منهم المزاجية بين القيم التقليدية، وما ينتج عنها من مواقف وتمثلات اتجاه الذات والعالم والآخرين. وبين القيم الحداثية، وما يترتب عنها من ضرورة إجراء تعديلات مستمرة على سلوكياتها ومواقفها. فمن جهة يريد المتعلم الاستفادة من إفرزات منظومة القيم في مختلف المجالات، في الوقت الذي يتشبث بالقيم الثقافية المحافظة، التي أثبت الواقع الملموس محدوديتها. كما أن هذه التحولات تعكس الصراع الذي واكب تنزيل مقتضيات الميثاق، إن على مستوى تحديد القيم أو مرجعياتها.

قائمة المراجع:

1. أبو العينين علي، القيم الإسلامية والتربوية، مكتبة إبراهيم حلي، المدينة المنورة، ١٩٨٨.
2. أحمد المهدي عبد الحليم، "تعليم القيم فريضة غائبة في نظم التعليم"، مجلة المسلم المعاصر، العدد ٦٥-٦٦ سنة، ١٩٩٣.
3. الأحمر عبد السلام، المسؤولية أساس التربية الإسلامية، محاولة في التأصيل، سلسلة كتاب تربيتنا رقم ٤، مطبعة طوب بريس، الرباط، ٢٠٠٧.

١ - اللجنة المديرية، ٥٠ سنة من التنمية البشرية وآفاق سنة ٢٠٢٥، تقرير الخمسينية، مطبعة دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ٢٠٠٦.

٤. الحوات علي، "بعض مشكلات الشباب المسلم في مجال الإعداد المهني"، مجلة الفكر العربي، العدد 47، 1987.
٥. السيد الشحات أحمد حسن، الصراع القيمي لدى الشباب ومواجهته من منظور التربية الإسلامية، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٨٨.
٦. الصمدي خالد، القيم الإسلامية في المنظومة التربوية دراسة للقيم الإسلامية وآليات تعزيزها، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، ايسيسكو، ٢٠٠٨.
٧. الصمدي خالد، خطاب التربية الإسلامية في عالم متغير، تجديد الفلسفة وتحديث الممارسة، منشورات المركز المغربي للدراسات والأبحاث التربوية بالمدرسة العليا للأساتذة بتطوان.
٨. العسري الفضيل، "مادة الفلسفة ومنظومة القيم"، مجلة الفرقان، عدد، ٦٠، سنة ٢٠٠٨.
٩. الكتاب الأبيض، نونبر، ٢٠٠١.
١٠. الكتاني محمد، منظومة القيم المرجعية في الإسلام، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، ايسيسكو، ٢٠٠٤.
١١. اللجنة المديرية، ٥٠ سنة من التنمية البشرية وآفاق سنة ٢٠٢٥، تقرير الخمسينية، مطبعة دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ٢٠٠٦.
١٢. المملكة المغربية، وزارة التربية الوطنية، الميثاق الوطني للتربية والتكوين، ٢٠٠٠.
١٣. بايشي محمد سالم، "تغيرات منظومة القيم في البرامج التربوية المغربية"، مجلة الفرقان، العدد، ٦٠، ٢٠٠٨.
١٤. بنان مصطفى، "فقر القيم في الكتب المدرسية للغة العربية بالمرحلة التأهيلية"، مجلة الفرقان، عدد، ٦٠، سنة ٢٠٠٨.
١٥. بنمسعود عبد المجيد، المنظومة التربوية المغربية في ميزان القيم"، مجلة الفرقان، العدد، ٦٠، ٢٠٠٨.
١٦. جنجار محمد الصغير، "حدود الاختيار التوافقي وانعكاساته على منظومة القيم في المدرسة المغربية"، دفاتر التربية والتكوين، منشورات المجلس الأعلى للتعليم، العدد ٥، شتنبر ٢٠١١.
١٧. حمداوي جميل، "منظومة القيم في مقررات التعليم الثانوي التأهيلي بالمغرب"، مجلة الفرقان، عدد، ٦٠، سنة ٢٠٠٨.
١٨. حيمر عبد السلام، مسارات التحول السوسولوجي في المغرب، سلسلة شرفات، ٣٤، الطبعة الثانية، ٢٠١٣.

المصادر الصوفية في مقدمة ابن خلدون: تقديم وتصنيف

البشير أبرزاق، أستاذ باحث، كلية الآداب والعلوم الانسانية، تطوان المغرب

ملخص:

منذ زمن غير يسير والتصوف كممارسة إنسانية ومذهب أخلاقي، يستأثر باهتمام العديد من الدارسين بمختلف اتجاهاتهم وانتماءاتهم المعرفية، ولعل في ذلك ما يعكس أهمية هذه الظاهرة وتأثيراتها الثقافية والسلوكية في تاريخ الفعل الحضاري الانساني

وكان العلامة عبد الرحمان ابن خلدون (١٤٠٦-١٤٠٣) قد عرض في مقدمة كتابه المسعى بـ "العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر" أو يطلق عليه بـ "مقدمة ابن خلدون"، جملة من قضايا الاجتماع الانساني وشروط استمراره. وضمن هذا السياق برز التصوف كظاهرة عمرانية فرضت نفسها لتشمل جانبا مهما من المقدمة.

وتهدف هذه المساهمة إلى تقديم أهم المصادر الصوفية التي استند إليها ابن خلدون في معالجته للتصوف في مقدمته: تصنيفا ودراسة، وكذا تتبع التصور الخلدوني للظاهرة الصوفية، ثم مدى تقاطع هذه الرؤية مع ما تطرحه أمهات المصادر الصوفية.

الكلمات المفتاحية: التصوف- المصادر الصوفية- ابن خلدون- المقدمة.

مقدمة:

إن أهم ما تتميز به مقدمة "ابن خلدون" هو شمولية تناولها لمختلف ظواهر الاجتماع الإنساني وشروطه الطبيعية والسياسية والاقتصادية والدينية. وقد استند ابن خلدون في ذلك على مصادر مباشرة متمثلة في تجربته الميدانية، ومشاهداته اليومية، والرواية الشفوية، وأخرى غير مباشرة؛ ونقصد بها المظان، والمصادر التاريخية المكتوبة.

وكان التصوف من أهم الظواهر العمرانية التي أثار اهتمام ابن خلدون في مقدمته، فدرس معناه وحدد مرتكزاته، وقواعده، وتبع انحرافاتة وتحولاته. وكذلك انطلاقا من مصادر متنوعة، وعبر منهج جمع فيه بين الاستقراء، والاستدلال، ومناقشة الروايات، والأخبار المتعلقة بهذه الظاهرة.

والتصوفيتصور "ابن خلدون" ما هو إلا صنف من أصناف العلوم الشرعية. فإذا كان الفقهاء قد اقتصوا بفقهاء العبادات والمعاملات، فاهتمام المتصوفة سار في البحث عن سبل مجاهدة النفس ومحاسبتها؛ والترقي في مدارج الإيمان، فألف أهل التصوف كتبا عديدة في هذا الباب. وهكذا فإن المصادر التي اعتمدها ابن خلدون في بنائه الفلسفي حول التصوف لم تخرج عن أمهات الكتب التنظيرية الصوفية التي أعدها مشايخ السلوك.

وتأتي هذه المساهمة المتواضعة محاولةً للتعريف بالمصادر الصوفية في المقدمة؛ عبر تقديمها وتصنيفها، ثم تبيان ملامح التصور الخلدوني للتصوف، وعلاقة ما جاءت به المصادر الصوفية بما طرحه ابن خلدون في التصوف. وستتم ممارسة النظر في هذه القضايا من خلال المحورين التاليين:

أولاً: المصادر الصوفية في "مقدمة ابن خلدون": تقديم وتصنيف.

ثانياً: التصوف من خلال "المقدمة".

أولاً: المصادر الصوفية في "مقدمة ابن خلدون": تقديم وتصنيف:

اعتمد ابن خلدون في دراسته للظاهرة الصوفية على أمهات المصادر التنظيرية الصوفية، إما اقتباساً؛ كما هو حال الإمام القشيري في "الرسالة القشيرية" والإمام الغزالي في "إحياء علوم الدين"، أو شرحاً وإحالة؛ كما هو شأن كل من المحاسبي في كتابه "الرعاية لحقوق الله"، وكتاب "عوارف المعارف" للسهروردي. ورغم أن الكتابات الصوفية لا تراعي في أغلبها التخصص في معالجتها لقضايا التصوف، فيمكن تصنيف تلك المصادر إلى الاتجاهات التالية:

- صنف الورع ومحاسبة النفس على الإقتداء في الأخذ والترك، ويندرج ضمنه كتاب "الرعاية" للحارث المحاسبي.

- صنف في التقعيد والتنظير في آداب الطريقة وأذواق أهلها، ويتضح ذلك أكثر في "الرسالة القشيرية"، وعوارف المعارف.

- أما الصنف الثالث الذي مثله الإمام الغزالي في "الإحياء"، فقد جمع فيه بين التوجيه والإرشاد وتدوين أحكام الورع والاقْتداء، وطرح آداب وعناصر وأركان وشروط السلوك.

المبحث الأول: الورع ومحاسبة النفس على الإقتداء أو "الرعاية لحقوق الله":

يعد الحارث بن أسد بن عبد الله المحاسبي البصري (١٧١ هـ/٧٨٣ م - ٢٤٣ هـ/٨٥٥ م) من أعلام الإسلام في القرن الثالث الهجري، في مجالات مختلفة كالتصوف والفقهاء والأصول والمعاملات. ولأدل على ذلك مؤلفاته الكثيرة التي شملت ميادين شتى^١.

وكان علم التصوف من أبرز العلوم التي ترك فيها المحاسبي أثره، من خلال ما تميز به من رؤية، جعلت من نظرياته مدرسة صوفية قائمة الأركان، وذاع صيتها في مشارق الأرض ومغاربها. وكانت كتبه مصدراً حاضراً في أمهات الكتب الصوفية التي جاءت بعده، وخاصة عند أبي طالب المكي في كتابه "قوت القلوب"، والغزالي في "إحياء علوم الدين".

ويعتبر كتاب "الرعاية لحقوق الله"^٢، من أهم مؤلفات المحاسبي في باب السلوك. وهذا الكتاب جاء كما يتضح في مقدمته إجابة وتوضيحاً وتعريفاً بحقوق الله، وما تستوجبه من رعاية. وفي هذا يقول المحاسبي: "وأما ما سألت عنه من الرعاية لحقوق الله عز وجل والقيام بها، فإنك سألت عن أمر عظيم أصبح عامة أهل زمانك له مضيعين، وهو الأمر الذي تولى الله عليه أنبياءه وأحباءه، لأنهم رعوا عهده وحفظوا وصيته"^٣.

- حول ترجمة الإمام المحاسبي، أنظر: ابن النديم، الفهرست، طبعة بيروت، ج ١، ص ١٨٤. أبي نعيم، ١

حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، طبعة مصر، ١٣٥١ هـ، ص ٧٣. ابن خلكان، وفيات الأعيان، طبعة مصر، ١٩٤٨، ج ١، ص ٣٤٨-٣٤٩. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، طبعة مصر، ١٩٣١، ج ١، ص ٢١١-٢١٦. أبو عبد الرحمن السلمي، طبقات الصوفية، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣.

- الحارث المحاسبي، الرعاية لحقوق الله، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الرابعة، ٢

- الحارث المحاسبي، الرعاية لحقوق الله، مصدر سابق، ص ٣٠٣٢

وإذا كان تهذيب النفس وتطهيرها من الخطايا الغاية الأسمى للتصوف في مبدئه العام، فإن المنهج الذي اقترحه الإمام المحاسبي في كتاب "الرعاية"، يركز على السلوك العملي في محاسبة النفس وتهذيبها، عبر وضع منهج سلوكي للمريدين في السلوك إلى الله، ونيل مرضاته، باجتنب نواهيها وامتثال أوامره.

ويتضمن الكتاب عددا من الأبواب والكتب، يبحث بعضها في حقوق الله ورعايتها والقيام بها، ذلك أن "كل حق أوجبه الله، جل وعز، على عباده في خاصة أنفسهم أو فيما أوجب لبعضهم على بعض، فقد أمرهم بحفظه والقيام به، وذلك رعاية حقه الذي افترضه عليهم، والقيام به"¹.

وبعد ذلك، عرج المحاسبي إلى التفصيل في بعض الخصال المذمومة التي تتنافى مع رعاية حقوق الله في عباده وحمائتها، كالإغترار والرياء والحسد والكبر والعجب وعدم الإخلاص التام لله. وقدم بعض الوسائل التي تخلص العبد من تلك الآفات، ومن ذلك: التقوى ومحاسبة النفس. فأول ما يجب على العبد السالك أن يبدأ به ويتفكر فيه، هو أن يعلم أنه عبد مريب، لا نجاة له إلا بتقوى الله عز وجل والتوبة إليه، وبمحاسبة نفسه². هذا بعدما قدم إفادات حول شرح معاني التقوى والورع³.

وفي أبواب أخرى، وقف المحاسبي عند بعض من منازل أهل الرعاية لحقوق الله عز وجل. واعتبر أن "الراعون لحقوق الله عز وجل في منازل شتى، وقد ينتقل كل راع منهم في تلك المنازل على قدر قوته وضعفه"⁴. وصنفها إلى سبعة مراتب⁵. وفي الأخير ختم بكتاب "تأديب المريء وسيرته وتحذيره الفتنة بعد هدايته"⁶، حدد فيه آداب المريء السالك وما يجب أن يكون عليه في ساعات الليل والنهار، وفي ظاهره وباطنه⁷، مستندا إلى عدد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

وقد سلك المحاسبي في مؤلفه منهجا مكنه من توجيه موضوعه والتحكم فيه، حيث نجده يعنون الفقرات ذات الموضوع الواحد بـ"كتاب"، كما هو الأمر مثلا بالنسبة لـ"كتاب الرياء" و"كتاب الإخوان ومعرفة النفس".... إلخ، وداخل كل "كتاب" نجد "بابا". ويختلف عدد الأبواب داخل كل كتاب؛ فكتاب الرياء مثلا يضم ثلاثة وأربعين بابا، في حين لا يتجاوز كتاب التنبيه بايين. أما الأبواب الواحد والأربعون الأولى من الكتاب، فلم يعتمد فيها منهج عنونها بـ"كتاب كذا".

وكان المحاسبي في عرضه لكل القضايا، يربطها ببعدها الصوفي، ذلك أن مبدؤه الأساس في النظرية الصوفية، هو "محاسبة النفس". عبر الاستشهاد والانطلاق من الأحاديث النبوية والآيات القرآنية، وفي كل ذلك ما يدل على إحاطته بعلوم إسلامية متعددة من عقائد وفقه، وغيرها.

1- الحارث المحاسبي، الرعاية لحقوق الله، مصدر سابق، ص 103.

2- نفسه، ص 44-204.

3- نفسه، ص 39-41.

4- نفسه، ص 96.

5- نفسه، ص 126-129.

6- نفسه، ص 303.

7- نفسه، ص 303-510.

المبحث الثاني: التعريف بكتابي: "الرسالة القشيرية" و"عوارف المعارف":

أ- الرسالة القشيرية:

خلف الإمام أبي القاسم بن عبد الكريم بن هوازن القشيري (٣٧٧هـ/٩٨٨م - ٤٦٤هـ/١٠٧١م)^١، تراثا علميا كثيرا. ومن أهم ما اشتهر به الكتاب المعروف بـ"الرسالة القشيرية"^٢؛ التي كتبها عام ٤٣٣هـ/١٠٤٠م^٣. وتتجلى أهمية هذه الرسالة في كونها استطاع من خلالها وضع أصول وقواعد للمذهب الصوفي في عصره، وشرح ألفاظه ومصطلحاته.

وكانت البواعث على تأليف "الرسالة القشيرية" كما بين ذلك القشيري؛ ما لحق التصوف من بدع وشوائب، في وقت انقرض فيه المحققون من الطائفة الصوفية ولم يبق إلا أثرهم، حيث مضى الشيوخ الذين كان بهم الاهتداء، وقل الشباب الذين كان لهم بسيرتهم وستهم اقتداء، وزال الورع وطوي بساطه، واشتد الطمع وقوي رباطه^٤.

لقد وضعت هذه الرسالة إذن إشفاقا على قلوب القوم؛ وتنبها لمن حاد عن السنة المثلى في تضييع آداب الطريقة. وفي سبيل تحقيق تلك الغاية، وضع القشيري رسالته على منهج لم يخرج عن منهج القدماء في التصنيف، حيث ضمها أبوابا، وفصولا، اعتمد من خلالها على المنهج النقلي المبني على الاستدلال بالنصوص القرآنية والأحاديث النبوية، ونصوص أسياد الطريقة؛ كالجنيد وغيره، مع تجنبه التفصيل والإسهاب. إضافة إلى وضوح الرؤية والهدف من الرسالة/النصيحة، وشرح معاني ودلالات المصطلحات الصوفية.

فبعد الانطلاق من التأصيل لعقيدة الطريقة، كما وضعها شيوخها الأوائل الذين "بنوا قواعد أمرهم على أصول صحيحة في التوحيد، وصانوا بها عقائدهم من البدع ودانوا بما وجدوا عليه السلف أهل السنة: من توحيد ليس فيه تمثيل ولا تعطيل، وعرفوا ما هو حق القدم. وتحققوا بما هو نعت الموجود عن العدم"^٥. تحدث القشيري في باب " في ذكر مشايخ الطريقة"، سرد من خلاله مشايخ الطريقة وسيرهم وأقوالهم؛ من إبراهيم بن أدهم إلى أبي عبد الله أحمد بن عطاء الروذباري، وهدفه من ذلك تقديم النموذج الصوفي الأصيل والمستقيم الذي سار على كتاب الله وسنة رسوله الكريم، من الأجل الاقتداء والتأسي. يقول القشيري: "ونحن نذكر في هذا الباب أسامي جماعة من شيوخ هذه الطريقة من الطبقة الأولى إلى وقت المتأخرين منهم، ونذكر جملا من سيرهم وأقوالهم، بما يكون فيه تنبيه على أصولهم وآدابهم إن شاء الله تعالى"^٦.

ولما كان التعبير عن التجربة الصوفية لا يتم عند الصوفية إلا باللغة الإشارية وبالمصطلحات التي تعارفت عليها^٧، فقد وقف بنا المصنف عند البحث في عدد من المفاهيم والألفاظ والمقامات في طريقة القوم؛ كالوقت والمقام والحال والبسط والدوق

١ - أنظر ترجمته في: تاج الدين السبكي، طبقات الشافعية، ج ٣ ص ٢٤٣-٢٤٨. - ابن خلكان، وفيات الأعيان، ١

طبعة مصر، ١٩٤٨، ج ١، ص ٢٩٩. - الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ط مصر، ج ١١ ص ٨٣.

٢ - أبي القاسم القشيري، الرسالة القشيرية، تحقيق خليل المنصور، دار الكتب العلمية بيروت، ٢٠٢٠١.

٣ - نفسه، ص ٣٠٨.

٤ - نفسه، ص ٤٠٨.

٥ - الرسالة القشيرية، مصدر سابق، ص ٥٠١١.

٦ - نفسه، ص ٦٠٢١.

٧ - الحسن شاهدي، الكتابات النظرية الصوفية، التوجيه، التعديد، التسنين، مطبعة الأمنية، الرباط، ٢٠٠٦، ص ٧٠٢٠٠٦.

ص ١٣٣.

والفناء والبقاء والنفس والروح والسر، وغيرها¹. ليعرج على أبواب مختلفة، بدءاً باب التوبة وانتهاءً باب كرامات الأولياء رؤياً القوم².

ليختتم الرسالة بوصيته للمريدين، أجمل من خلالها إفادات عملية هامة، تضبط سلوك مريد طريق التصوف، من صدق وتأدب مع الشيخ، وعدم اعتقاد العصمة في المشايخ، وتجنب صحبة الأحداث والتزهد عن ملذات الحياة الدنيا وتجنب آفات النفس كالحسد وغيره³.

ب- عوارف المعارف:

كتاب "عوارف المعارف"⁴ هو عمدة الفكر التنظيري الصوفي خلال القرن السابع الهجري، ألفه إمام الصوفية في عصره الإمام أبي حفص عمر السهروردي البغدادي الشافعي⁵ (١٢٣٤-١٢٣٤ م)، في وقت اشتد فيه انحراف المتصوفة عن مقصد منشأته منذ أوائل القرن الثاني الهجري، حيث ارتبط التصوف بالفلسفة " فكان شبيهاً بالنصرانية عندما دخلوها الروم ومزجوها بالتثليث والفلسفة"⁶. فجاء السهروردي بعوارفه تنبئاً لقومه وتذكيراً لهم؛ وتثبيتاً للثوابت الصوفية، وهذا ما صرح به عندما قال: "إيثاري لهدي هؤلاء القوم، ومحبي لهم علمًا بشرف حالهم، وصحةً طريقتهم المبنية على الكتاب والسنة... حداني أن أذبَّ عن هذه العصابة بهذه الصبابة، وأؤلف أبواباً في الحقائق والآداب،..."⁷.

واشتمل الكتاب على ثلاثة وستين باباً، بحث المصنف من خلالها عدداً من العلوم الصوفية، وأحوال السادة الصوفية، ومقاماتهم وأدابهم، وأخلاقهم وغرائب مواجدهم، وحقائق معرفتهم وتوحيدهم، ودقيق إشاراتهم ولطيف اصطلاحاتهم. وقدّم ذلك عبر منهج جمع فيه بين الاستدلال والنقد، حيث نجده ينتقد من ينتمي للصوفية وليس منهم⁸، ومن يتهاون بحدود الشرع⁹، ويذم أهل المغالاة والحلول¹⁰.

١- الرسالة القشيرية، مصدر سابق، ص ٨٩-١٢٥.

٢- نفسه، ص ١٢٦-٢٠٤٢٤.

٣- نفسه، ص ٣٢٤-٣٣٦.

٤- أبي حفص السهروردي، عوارف المعارف، تصحيح محمود غيث، نشر مكتبة القاهرة، ١٩٧٣.

٥- يرجع إلى ترجمته في: محمد الذهبي، سير أعلام النبلاء، مطبعة الرسالة، ٢٠٠١، ص ٢٠٧- ياقوت الحموي، ٥.

٦- معجم البلدان طبع دار صادر، ١٤٠٤هـ، ج ٣ ص ٢٨٩- ذيل تاريخ بغداد من تاريخ الديلمي، اختصار الإمام الذهبي، طبع دار الكتب العلمية، ط ١/ ١٤٠٥هـ.

٧- طارق عبد الحكيم ومحمد العبد، الصوفية، نشأتها وتطورها، الطبعة الأولى، دار الأرقم الكويت، ص ٤٠.

٨- عوارف المعارف، مصدر سابق، ص ٨-٣٧.

٩- نفسه، ص ٧٦.

١٠- نفسه، ص ٧٧.

١١- نفسه، ص ٧٧، ٧٨.

المبحث الثالث: التعريف بكتاب "الإحياء":

يعتبر الإمام أبي حامد الغزالي (٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م / ١٠٦٥ هـ - ١١١١ م) عالماً من أعلام الفكر الإسلامي في القرن الخامس الهجري. وقد احتل التصوف مكانة بارزة في مؤلفات الإمام؛ إن لم نقل إنه كان محور تلك المؤلفات، وإذا كانت شهرته في التصوف أكثر من شهرته في علوم أخرى كالفلسفة والفقه والكلام، فإن "إحياء علوم الدين"^٢ يعتبر أشهر كتبه على الإطلاق. ومن خصوصيات كتاب "الإحياء"، الجمع بين التوجيه والإرشاد وتدوين أحكام الورع والاقتداء، وطرح آداب وعناصر وأركان وشروط السلوك إلى الله. ولا غرابة في ذلك، فهو نتاج ثلاث عقليات كبرى^٣:

- العقلية الشرعية: وتبدو آثارها في ما بسطه الغزالي من أحكام الفقه وأصوله، وما اعتمد عليه من نصوص القرآن وأقوال رسول الله صلى الله عليه وآله وأقوال الصحابة والتابعين، ومذاهب الأئمة الأربعة وأقوال الفقهاء وعلماء الشرع والتأويل. وقد اتضحت آثار هذه العقلية في "الإحياء"، في دراسة الغزالي لمختلف العلوم الشرعية دراسة مستفيضة تدل على الفهم والاستيعاب، إذ كانت الشريعة سلم الحقيقة، والعبادة سبيل المعرفة الحقة التي نشدها وعد من رجالها.

- العقلية الفلسفية: المتمثلة في يقظة العقل، والقدرة على التبصر، وفهم الكون بظواهره وشواهده، ومحاولة الوصول إلى أعماقه، وإلى سر الحياة والأحياء؛ ودراسة النصوص دراسة تخضع لأحكام العقل والتفكير. وقد بحث الغزالي في "الإحياء" كثيراً من المسائل الفلسفية، ومسائل علم الكلام، التي تتصل بالله تعالى وذاته وصفاته، كما بحث في أعمال العبد ومبدأ الخلق ونهايته. ومن ذلك البحث الفلسفي الذي عقده في "ربع المهلكات"، في شرح عجائب القلب، وفي بيان معنى النفس والروح والعقل وما هو المراد بهذه الأسماء^٤.

- العقلية الصوفية: ظهر الغزالي أنه لا مطمع له في سعادة الآخرة إلا بالتقوى وكف النفس عن الهوى. وقد ساق في إحيائه كثيراً من شواهد الشرع على صحة طريق أهل التصوف في اكتساب المعرفة، لا من التعلم ولا من الطريق المعتاد. وقد أورد كثيراً من الأدلة التي تؤيده في إمكان الكشف والإلهام بغير الأسباب الظاهرة، مما وقع للخلفاء الراشدين وأهل التقوى والورع والزهد والتصوف. وهذا هو العلم اللدني، وهو غير العلم الدنيوي الذي يكون بوسائط تسليم الخلق. وما أكثر ما يزخر به "الإحياء" من آثار التصوف، مما يدل على تشبع الغزالي بفكرة التصوف وإيمانه بأنه الطريق الموصل إلى المعرفة بالله والقرب من رحمته، ونجد أثر هذا التشبع والفهم العميق لفلسفة التصوف في أبواب كثيرة وخاصة في الجزء الرابع "ربع المنجيات" في أبواب الخوف والرجاء والصبر والفقر والشكر والزهد والتوحيد والتوكل والمحبة والشوق والأنس والرضا... إلخ^٥.

ثانياً: التصوف من خلال "المقدمة":

- أنظر ترجمته عند: - ابن خلكان، وفيات الأعيان، طبعة مصر، ١٩٤٨، ج ١ ص ٢٨ - تاج الدين السبكي، ١ طبقات الشافعية ج ٤ ص ١٠١ - شذرات الذهب ج ٤، ص ١٠
- ٢- أبي حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، تحقيق بدوي طبانة، مكتبة ومطبعة كرياض فوتر سمارغ، أندونيسيا، أربعة أجزاء، دون تاريخ.
- أبي حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، مصدر سابق، ج ١، ص ٣٣-٣٦.
- نفسه، مصدر سابق، ج ٣، ص ٢-١٦٤.
- نفسه، مصدر سابق، ج ٣، ص ٥٢٢.
- نفسه، مصدر سابق، ج ٤، ص ٥٩ وما بعدها ٦.

في سياق دراسته لظواهر العمران البشري وما اتصل به من علوم وأصنافها؛ وتعليم و طرقه وسائر وجوهه، خص ابن خلدون بالدراسة والنقد فصلا في مقدمته حول التصوف بعنوان "في علم التصوف"^١، وقف من خلاله عند مفهوم التصوف؛ التصوف؛ من حيث أصوله ودلالاته وتفرعاته وتطوره في الزمن. مما من شأنه أن يمكننا من الوقوف على نظرة ابن خلدون إلى التصوف ومواقفه من أهمّ قضاياها، و على المرجعيات التي استند إليها لبلورة آرائه حولها. فكيف عالج ابن خلدون التصوف من خلال "المقدمة"؟، وما علاقة ما قدمه ابن خلدون حول التصوف مع ما جاء في المصادر الصوفية؟.

المبحث الأول: التصوف عند ابن خلدون من خلال "المقدمة": معناه وقواعده:

إن دراسة العلامة ابن خلدون للتصوف باعتباره ظاهرة عمرانية إسلامية لم تكن حائلا في تأصيله له من المنطلق التاريخي/الديني. ورغم أنه صنّفه ضمن صنف العلوم الشرعية الحادثة في الدين، فاستدلّاه عن أصل ظهوره يتعارض مع تلك الفكرة، ويتجلى ذلك عندما قال: "هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة. وأصله أن طريقة هؤلاء القوم، لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم، طريقة الحق والهداية"^٢.

و التصوف في جوهره يقوم على العكوف على العبادة والإقبال التام على الله تعالى، وما يفرضه ذلك من الإعراض عن الحياة الدنيا والانقطاع عن ملذاتها، وهو أصل أصيل في حياة الصحابة والسلف. إلا أن ظهوره باعتباره فكرا وممارسة جماعية لم يكن إلا في القرن الثاني الهجري وبعده، حيث "فشا الإقبال على الدنيا وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا"^٣، فاخصص المقلوبون على العبادة باسم الصوفية.

وعن أصل الكلمة، ذهب ابن خلدون إلى القول بأن التصوف مشتق من الصوف، لما اخصص به الزهاد من لبسه، ولما كانوا عليه من "مخالفة الناس في لبس فاخر الثياب إلى لبس الصوف"^٤.

وبعد أن كان التصوف في بداياته عبادة وممارسة سلوكية تنقل عبر المجالسة والمشافهة، دخل مرحلة التدوين والتفصيل، بعدما ألف أقطاب الصوفية ومشايخ السلوك كتابات في هذا الباب. وخاصة الحارث المحاسبي في كتابه "الرعاية"، و"الرسالة القشيرية" للقشيري، و"عوارف المعارف" للسهروردي، و"إحياء علوم الدين" للإمام أبي حامد الغزالي.

وهكذا صنّف ابن خلدون العلوم الشرعية إلى قسمين: صنف مخصص بالفقهاء وأهل الفتيا أو ما يعرف بعلماء الظاهر. وصنف مخصص بالمتصوفة أو علماء الباطن^٥.

لقد استطاع العلامة ابن خلدون أن يسبر أغوار الظاهرة الصوفية، فتتبع تطوراتها من مذهب الزهد والانفراد عن الخلق والإقبال على العبادة؛ إلى أن سار آلية اخصص بها القوم للإدراك^٦. فلما كان الإنسان قادرا على إدراك تكاملي للعلوم والمعارف القائمة على الشك واليقين، والأحوال القائمة على الفرح والحزن والبسط والقبض. فإن المريد السالك في طريقه إلى الله لم يخرج عن تلك الأحوال. فكل تزكية ومجاهدة تجعله يعيش حالا إما أن يكون "حالة نوع عبادة، فترسخ وتصير مقاما للمريد؛

١ - عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة، تحقيق درويش جويدي، المكتبة العصرية، بيروت، طبعة ٢٠٠٢. ص ١٠٤٤٩

٢ - نفسه، ص ٢٠٤٤٩

٣ - نفسه، ص ٣٠٤٤٩

٤ - نفسه، ص ٤٠٤٥٠

٥ - نفسه، ص ٤٥٠-٤٥١

٦ - المقدمة، م س، ص ٦٠٤٥٠

وإما أن لا تكون عبادة، وإنما تكون صفة حاصلة للنفس من حزن أو سرور أو نشاط أو كسل أو غير ذلك من المقامات. ولا يزال المريدي يترقى من مقام إلى مقام إلى أن ينتهي إلى التوحيد والمعرفة التي هي الغاية المطلوبة للسعادة¹. وتحقيق المريدي لذلك مشروط بمحاسبته لنفسه محاسبة كاملة لأعماله والنظر في حقائقها، لأن حصول النتائج عن الأعمال ضروري وقصورها من الخلل فيها كذلك، تم إن " المريدي يجد ذلك بذوقه ويحاسب نفسه على أسبابه. ولا يشاركهم في ذلك القليل من الناس، لأن الغفلة عن هذا كأنها شاملة"².

إن الظاهرة الصوفية وفق التصور الخلدوني قائمة في أساسها وكمياتها على محاسبة العبد لنفسه عبر الخلوة والذكر، وما يطرحه ذلك من كلام حول الأذواق والمواجد؛ وما يثقلونه من كشف حجاب الحس والاطلاع على عوالم من أمر الله، وآداب ومصطلحات خاصة يتداولها المريدون فيما بينهم؛ تمييزاً لهم عن غيرهم، وخاصة وأن الصوفية أسسوا لعلم ليس "لواحد غيرهم من أهل الشريعة الكلام فيه"³.

فعبير المجاهدة والخلوة والذكر يصل المريدي إلى مقام الكشف والاطلاع على عوالم من أمر الله. وتفسير ذلك "أن الروح إذا رجعت عن الحس الظاهر إلى الباطن ضعفت أحوال الحس، وقويت أحوال الروح، وغلب سلطانه وتجدد نشؤه، وأعان على ذلك الذكر؛ فإنه كالغذاء لتنمية الروح، ولا يزال في تنمية وتزويد، إلى أن يصير شهوداً بعد أن كان علماً"⁴.

وعبر مقام الكشف يدرك المريدون حقائق وجودية لا يستطيع غيرهم إدراكها، بل إن ابن خلدون أقر بأن هذا الكشف يؤدي بأصحابه أحياناً إدراك عدد الوقائع قبل وقوعها. واستدل ابن خلدون في هذا الصدد بأن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا على مثل هذه المجاهدة، وتبعهم في ذلك أهل الطريقة ممن ذكرهم القشيري في رسالته، ومن سار على نهجهم من بعدهم. والكشف الصوفي الذي تحدث عنه هو الكشف الناشئ عن الاستقامة، إذ إن "الكشف قد يحصل لصاحب الجوع والخلوة، وإن لم تكن هناك استقامة كالسحرة وغيرهم من المرتاضين"⁵.

وبذلك نرى أن ابن خلدون يزكي ويدافع عن التصوف السني الصافي من الشوائب الذي أسس على المجاهدة والذكر كما كان على عهد الصحابة الكرام، وحافظ عليه من سار على طريقهم.

إلا أن من كان قصير الفهم والإدراك لأحوال الصوفية وكشوفاتهم ولم يشاركهم في طريقهم، لا مجال له لفهم أذواقهم ومواجهتهم، وخاصة الفقهاء الذين انقسموا بين منكر عليهم ومسلم لهم، في حين يرى ابن خلدون أن البرهان والدليل ليس في هذه الطريق، إذ هي من قبيل الوجدانيات⁶. وحتى من قصد من المتصوفة المتأخرين بيان مذهبهم فيكشف الوجود وترتيب حقائقه بناءً على كشفه، فإنما ذلك غموض من الغموض، مثل ما "فعل الفرغاني شارح قصيدة ابن الفارض في الديباجة التي كتبها في صدر ذلك الشرح، عندما ذكر في صدور الوجود عن الفاعل وترتيبه، أن الوجود كله صادر عن صفة الوجدانية التي هي مظهر الأحدية، وهما معا صادران عن الذات الكريمة التي هي عين الوحدة لاغير. ويسمون هذا الصدور

١- نفسه، ص ٤٥٠.

٢- نفسه، ص ٤٥٠.

٣- نفسه، ص ٤٥٠.

٤- نفسه، ص ٤٥١.

٥- نفسه، ص ٤٥٢.

- المقدمة، م س، ص ٦٠٤٥٢.

بالتجلي¹. وهذا ومثله في نظر ابن خلدون كلام لا يقدر أهل النظر على تحصيل مقتضاه لغموضه وانغلاقه. وهذا الغموض والانغلاق والغرائبية والمغالاة في مذاهب الصوفية المتأخرين، بدءاً من أصحاب التجلي، وانتهاءً بالقول بالوحدة المطلقة وبمذهب الحلول مع الهروي وابن العربي وابن سبعين وابن العفيف وابن الفارض والنجم الإسرائيلي، هو الذي دفع كثيراً من الفقهاء وأهل الفتيا، للرد على هؤلاء المتأخرين في هذه المقالات وأمثالها، وشملوا بالنكير سائر ما وقع لهم بالطريقة². وقد فصل ابن خلدون القول في المجالات الأربعة لخلاف الفقهاء مع السادة الصوفية، مدافعاً عن هؤلاء أحياناً، و متخذاً الأعدار لهم أحياناً أخرى:

- ففي موضع الكلام على المجاهدات وما يحصل من الأذواق والمواجد ومحاسبة النفس، فيقول فيه ابن خلدون، أنه "أمر لا مدفع فيه لأحد، وأذواقهم فيه صحيحة، والتحقق بها هو عين السعادة"³.

- و أما الكلام في الكشف والحقيقة المدركة من عالم الغيب، فهو "أمر صحيح غير منكر. وإن مال بعض العلماء إلى إنكارها فليس ذلك من الحق"⁴، بل استدلل بأن ذلك ثابت في سيرة الصحابة وأكابر السلف من الأمة.

- أما التصرفات في العوالم والأكوان بأنواع الكرامات، "فأكثرهم فيه نوع من المتشابه، لم أنه وجداني عندهم؛ وفقد الوجدان عندهم بمعزل عن أذواقهم فيه"⁵.

- أما الألفاظ الموهمة الظاهرة الصادرة عن كثير من أئمة القوم. فإن اللغات لا تعطي دلالة على مرادهم منه، لأنها لم توضع إلا للمتعارف، وأكثره من المحسوسات. فينبغي ألا نتعرض لكلامهم في ذلك، ونتركه فيما تركناه من المتشابه. ومن رزقه الله فهم شيء من هذه الكلمات، على وجه الموافق لظاهر الشريعة؛ فأكرم بها سعادة. وأما الألفاظ الموهمة التي يعبرون عنها الشطحات، ويؤاخذهم بها أهل الشرع، فاعلم أن الإنصاف في شأن القوم أنهم أهل غيبة عن الحس، والواردات تملكهم حتى ينطقوا عنها بما لا يقصدونه، وصاحب الغيبة غير مخاطب والمجبور معذور⁶. وبهذا، يكون ابن خلدون مشفقاً على القوم، متخذاً الأعدار لهم.

المبحث الثاني: علاقة المصادر الصوفية مع ما قدمه ابن خلدون في التصوف:

إن استقراء الطرح الخلدوني في التصوف بين مدى إصرار وقبوله، بل ودفاعه عن التصوف "السنّي". فهو وإذ يؤكد في شرحه لمسألة "المباينة" باعتبارها تدل على "المغايرة والمخالفة، فيقال البارئ مبين لمخلوقاته في ذاته وهويته ووجوده وصفاته. ويقابله الإتحاد والامتزاج والاختلاط"⁷، وهذا المعنى - في نظر ابن خلدون - هو الذي كان عليه القصوفة الأقدمين ممن أوردتهم الإمام القشيري في رسالته، ومن سلك مسلكهم.

١- نفسه، ص ١٠٤٥٣

٢- نفسه، ص ٢٠٤٥٨

٣- نفسه، ص ٣٠٤٥٨

٤- نفسه، ص ٤٠٤٥٨

٥- نفسه، ص ٥٠٤٥٨

٦- المقدمة، م، ص ٦٠٤٥٨

٧- نفسه، ص ٧٠٤٥٢

وفي مقابل ذلك، اختلف ابن خلدون مع الإمام القشيري في تحديد أصل كلمة "التصوف". ففي الوقت الذي استبعد فيه القشيري اشتقاقها من الصوف؛ لأنه -حسبه- لم يختصوا بلبسه، ذهب ابن خلدون عكس ذلك، فقال: "والأظهر أن قيل بالاشتقاق أنه من الصوف، وهم في الغالب مختصون بلبسه، لما كانوا عليه من مخالفة الناس في لبس فاخر الثياب إلى لبس الصوف".¹

كما انتقد ابن خلدون المذاهب الصوفية المتأخرة التي خالطت المذاهب الفلسفية والشيعية، خاصة في قضايا الإتحاد والحلول، والتجلي والمظاهر والحضرات. فبالنسبة للقضية الأولى، ذهب جماعة من المتصوفة المتأخرين الذين صيروا المدارك الوجدانية علمية نظرية، إلى أن البارئ تعالى متحد في بمخلوقاته في هويته ووجوده وصفاته. وهذا الإتحاد هو الحل الذي تدعيه النصارى في المسيح عليه السلام، وهو أغرب- في التصور الخلدوني- لأنه حلول قديم في محدث أو اتحاده به، وهو أيضا عين ما تقوله الإمامية من الشيعة في الأئمة.

أما الكلام في التجلي والحضرات والمظاهر، فقد اعتبره ابن خلدون كلاما يمجج الإدراك السليم، ولا يستطيع أهل النظر العقلي تحصيل مقتضاه لغموضه وانغلاقه. ويقول في هذا الإطار: "وهو كلام لا يقتدر أهل النظر إلى تحصيل مقتضاه لغموضه وانغلاقه وبُعد ما بين كلام صاحب المشاهدة والوجدان وصاحب الدليل وربما أنكر بظاهر الشرع هذا الترتيب"². وهنا يبدو أن ابن خلدون لا يعارض كل المعارضة فكرة الخلق بالتجلي ولا يعتبرها ضد الشرع تماما، بل يجعلها من علم الكشف غير المبرر منطقيًا، ولا تتلاءم مع ظاهر النص، بمعنى أنها قد تتلاءم مع باطنه أو مع الخاصة لا مع العامة. وهذا ما يؤكد الصوفية أنفسهم عندما يصرحون ببعض ما يعظمهم الكشف من حقائق وجودية أو معرفية. أما ما اعتبره ابن خلدون جازها غريبا في مذهب أهل التجلي فهو القول بـ"الوحدة المطلقة" كما جاء عند "الهرودي" في كتابه "المقامات"، وابن العربي وابن سبعين والعميق التلمساني وابن الفارض والنجم الإسرائيلي في قصائدهم. وسلف هؤلاء حسب ابن خلدون كانوا مخالطين للإسماعيلية القائلين بالحلول فاخترت أفكارهم وتشابهت عقائدهم، ومنها قول المتصوفة بالقطب الذي يزعمون أنه لا يساويه أحد في مقامه في المعرفة حتى يقبضه الله، ثم يورث مقامه لآخر من أهل العرفان. مستدلا في ذلك بما أورده ابن سينا في كتاب "الإشارات" عندما قال: "جل جناب الحق عن أن يكون شريعة لكل وارد، أو يطلع عليه إلا واحد بعد واحد". وقد اعتبر ابن خلدون هذا كلاما مردودا لا يستند إلى أي "حجة عقلية ولا دليل شرعي؛ وإنما هو من أنواع الخطابة، وهو بعينه ما تقوله الرافضة ودانوا به"³.

ومما يدل به ابن خلدون على علاقة التصوف بالتشيع عند المتأخرين من المتصوفة حديثهم عن توارث خرقة التصوف في سلسلة تمتد إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، في حين أن عليا كرم الله وجهه لم يختص من بين الصحابة بما يميزه عنهم من لباس أو أحوال، بل إن الصحابة كلهم كانوا "أسوة في الدين والزهد والمجاهدة"⁴. فكان لزاما الرجوع إلى الأصول، وضبط النفس، والتمييز بين طبيعة الممكن والممتنع بصريح العقل واستقام الفطرة.

- نفسه، ص ١٠٤٥٠

- نفسه، ص ٢٠٤٥٤

- المقدمة، ص ٤٥٥-٤٥٦

- نفسه، ص ٤٠٤٥٦

وبكل ما تقدم، يكون ابن خلدون قد حذا حذو الإمام السهروردي في انتقاد للتصوف المتفلسف^١، ومسلك أبو حامد الغزالي في أشعريته و انتقاده للفكر الصوفي الباطني الشيعي، من جهة، وطريق أقطاب التصوف بما فيهم الإمام المحاسبي والقشيري، في ربط التصوف فيما يقوم عليه من مجاهدة ومحاسبة، بالأصول الإسلامية الصحيحة كما وضعها الصحابة والسلف من الأمة، من جهة ثانية.

ومن جانب آخر، على مستوى الإدراك والكشف الصوفي، تحدث ابن خلدون عن الممارسات الخارقة التي يدركها أهل المجاهدة من القوم، من إدراك حقائق وجودية لا يدركها غيرهم، وإدراك الوقائع قيل وقوعها، والتصرف في الموجودات بهمهم وقواهم النفسية. كما ذكر ما يتعرضون له من مواهب إلهية وفتح الرباني، وهو في ذلك يؤكد إشارات الإمام الغزالي في "الإحياء"، وهو يبين شواهد الشرع في صحة طريق أهل التصوف، فذكر أن العلم الباطني هو "سر من أسرار الله تعالى يقذفه الله تعالى في قلوب أحبائه لم يطلع عليه ملكا ولا بشرا"^٢. ومن جانب آخر ربط ابن خلدون مقام الكشف الحقيقي بشرط الاستقامة^٣، والغزالي بالمجاهدة والورع والإعراض عن شهوات الحياة الدنيا^٤، وتلك هي شروط التقوى والاستقامة على الطريق المستقيم: طريق الشرع.

واعتبر ابن خلدون أن العظماء من القوم لا يعيرون لهذا الكشف أي اهتمام، ولا يتحدثون في ذلك إلا إذا طلب منهم، بل إنهم يعدون ذلك ضمن المحن الإلهية لهم. وفي هذا يلتقي مع أقطاب التصوف الذين ينظرون لمقاماتهم وما يتلقونه من كرامات بنوع من الافتقار، وباعتبارها ابتلاءات قد تعترض طريق الوصول إلى الله تعالى^٥. وكمثال على ذلك، تحدث الإمام القشيري عن الصوفية الذين اختصهم الله من بين أمته بطوابع أنواره، ووفقههم للقيام بأداب العبودية، وأشهدهم مجاري أحكام الربوبية، فقاموا بأداء ما عليهم من واجبات تكليف، وتحققوا بما منه سبحانه لهم من التقليل والتصريف، "ثم رجعوا إلى الله سبحانه وتعالى، بصدق الإفتقار، ونعت الإنكسار، ولم يتكلموا على ما حصل منهم من الأعمال، أو صفا لهم من الأحوال. علما منهم بأنه جل وعلا يفعل ما يريد، ويختار ما يشاء من العبيد. لا يحكم عليه خلق. ولا يتوجه عليه مخلوق حق ثواب: ابتداء فضل. وعذابه: حكم بعدل. وأمره: قضاء فصل"^٦.

استنتاج:

يتحصل من كل ما سبق، أن التصوف الذي تعود أصوله السلوكية الفردية إلى العهد الإسلامي الأول؛ كما تجلى ذلك مع سيرة الصحابة الكرام، و تععيده كعلم وممارسة جماعية خلال القرن الثاني الهجري وبعده. وكان النظر الخلدوني للتصوف نظرا مالكيًا أشعريا غزاليا أحيانا، وذلك بالدفاع عن الممارسة الصوفية الصافية وعن منهج الكشف الإلهي، كما قعد لذلك أقطاب السلوك كالإمام المحاسبي والقشيري وغيرهما. وأحيانا أخرى بحضور النظر العقلي القائم على تفسير وتبرير الطريق الصوفي الحقيقي ونتائجه، أو الرد على اللامعقول في ممارسات بعض صوفية عصره.

-
- طارق عبد الحكيم ومحمد العبد، الصوفية، نشأتها وتطورها، الطبعة الأولى، دار الأرقم الكويت، ص ٤٠. ١
 - الغزالي، الإحياء، م س، ج ٣، ص ٢٠٣.
 - المقدمة، م س، ص ٤٥٢.
 - الغزالي، الإحياء، م س، ج ٣، ص ٤٠٥.
 - المقدمة، م س، ص ٤٥١.
 - القشيري، الرسالة، م س، ص ٦٠٨.

لقد كان ابن خلدون في التأسيس لفلسفته ومعالجته للظاهرة الصوفية، متسع الأفق، مدركا لتحولاتها، متتبعا لمسارها، دارسا لها، وفق رؤية جامعة ومنفتحة على مشارب علمية متعددة عقلية ونقلية.

والواقع أن رؤية ابن خلدون وعلاقته بالتصوف لم تنحصر فيما جاء في المقدمة، والذي قدمناه في هذه المساهمة. إذ خص كتابا سماه "شفاء السائل وتهذيب المسائل"¹، فصل فيه القول في الظاهرة الصوفية وفلسفتها. ومن ثمة فإن الفهم الشامل للتصور الخلدوني حول التصوف، يفرض ضرورة الرجوع إلى كتاب "شفاء السائل".

قائمة المصادر والمراجع:

١. أبو عبد الرحمان السلمي، طبقات الصوفية، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣.
٢. أبي القاسم القشيري، الرسالة القشيرية، تحقيق خليل المنصور، دار الكتب العلمية بيروت، ٢٠٠١.
٣. أبي حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، تحقيق بدوي طبانة، مكتبة ومطبعة كرياض فوترا سمارغ، أندونيسيا، أربعة أجزاء، دون تاريخ.
٤. أبي نعيم، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، طبعة مصر، ١٣٥١هـ.
٥. أبي حفص السهروردي، عوارف المعارف، تصحيح محمود غيث، نشر مكتبة القاهرة، ١٩٧٣.
٦. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١، طبعة مصر، ١٩٤٨.
٧. ابن خلدون، شفاء السائل وتهذيب المسائل، تحقيق محمد مطيع الحافظ، الطبعة الأولى، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٩٩٦ م.
٨. ابن النديم، الفهرست، ج ١، طبعة بيروت، دون تاريخ.
٩. تاج الدين السبكي، طبقات الشافعية، ج ٣، دون تاريخ.
١٠. الحارث المحاسبي، الرعاية لحقوق الله، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الرابعة.
١١. الحسن شاهدي، الكتابات التنظيرية الصوفية، التوجيه، التقعيد، التسنين، مطبعة الأمنية، الرباط، ٢٠٠٦.
١٢. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج ١، طبعة مصر، ١٩٣١.
١٣. طارق عبد الحكيم ومحمد العبد، الصوفية، نشأتها وتطورها، الطبعة الأولى، دار الأرقم الكويت.
١٤. محمد الذهبي، سير أعلام النبلاء، مطبعة الرسالة، ٢٠٠١.
١٥. عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة، تحقيق درويش جويدي، المكتبة العصرية، بيروت، طبعة ٢٠٠٢.
١٦. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٣، طبع دار صادر، ١٤٠٤هـ.

١ - ابن خلدون، شفاء السائل وتهذيب المسائل، تحقيق محمد مطيع الحافظ، الطبعة الأولى، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٩٩٦ م.

الأركان السبعة لنظرية الميكانيزمات الدفاعية حسب فيبي كرامير Phebe Cramer

الباحث دييون محمد/جامعة وهران، الجزائر

ملخص:

تعتبر الميكانيزمات الدفاعية كسيرورات معرفية تعمل على حماية الفرد من القلق الشديد وغيره من الانفعالات السلبية. كما تحميه من فقدان تقدير الذات أو خاصة فقدان الانسجام الذاتي.

إن فكرة إمكانية قيامنا بشيء ما أو قول أشياء بدون معرفة السبب ليس بالأمر الصعب على الفهم بالنسبة لغالبية الناس. لكن الجزم بأن السيرورات العقلية اللاشعورية، هي المسؤولة عن هذه السلوكات، هو أمر أصبح من الصعب تأكيده. حالياً، عكف العديد من الباحثين في مجال علم النفس على دراسة وجود سيرورات عقلية لاشعورية.

من بين هذه السيرورات اللاشعورية هناك مجموعة من العمليات العقلية التي تسمى بالميكانيزمات الدفاعية. و هي تعمل أساساً على حماية الفرد من التعرض لتجارب مقلقة شديدة و حماية الذات و تقدير الذات. و هي تختلف عما يسمى باستراتيجيات المواجهة coping ، إذ إن الميكانيزمات الدفاعية تعمل على مستوى لاشعوري، حيث يكون الفرد غير واعياً بوظيفة هذه الميكانيزمات.

جاء هذا الباحث الجديد لتناول الأركان السبعة الخاصة بميكانيزمات الدفاع و هي:

- ١- عملاً لميكانيزمات الدفاعية خارج مجال الوعي.
 - ٢- هناك ترتيب زمني في تطور الميكانيزمات.
 - ٣- توجد الميكانيزمات الدفاعية في الشخصية السوية.
 - ٤- يرتفع استعمال الميكانيزمات الدفاعية في وضعيات الضغط النفسي.
 - ٥- استعمال الميكانيزمات يخفف من المعاشة الواعية للانفعالات السلبية.
 - ٦- ترتبط وظيفة الميكانيزمات الدفاعية بالجهاز العصبي الذاتي.
 - ٧- يرتبط الاستعمال المفرط للميكانيزمات الدفاعية بالحالات النفسية المرضية.
- الكلمات المفتاحية: الميكانيزمات الدفاعية، العمليات المعرفية، فيبي كرامير.

لقد كان سيغموند فرويد أول من التشفير العلاقة بين الأمراض النفسية و الميكانيزمات الدفاعية (القمع). و لقد توصلنا حاليا إلى فهم مؤداه أن الميكانيزمات الدفاعية هي جزء من الوظيفة النفسية العادية للفرد¹. في حالة استعمالها بحدود، تساعدنا الميكانيزمات الدفاعية على التحكم بالإجهاد، خيبة الأمل و مخثف الانفعالات السلبية الشديدة. يرتبط الاستعمال المفرط للميكانيزمات الدفاعية بالأمراض النفسية. أضيفت بعد ذلك ميكانيزمات جديدة إلى اللائحة (الإنكار، الإسقاط، الإزاحة و العقلنة). حاليا، هناك العديد من الأدوات لقياس الميكانيزمات الدفاعية.

لا يستعمل الشخص الواحد لئى الميكانيزمات الدفاعية، و لا تستعمل كلها من طرف جميع الأشخاص. من هذا المنطلق، كان من الضروري تصنيفها في مجموعات². قائمة أساسا على نسبة نضج أو عدم نضج هذه الميكانيزمات. و يتم تحديد هذا النضج عن طريق اعتبارات نظرية و إكلينيكية³.

كما يمكن أن يعتمد التصنيف على أساس اعتبارات تطويرية، و مدى تعقد العمليات المعرفية المشتركة في الميكانيزمات⁴. هناك من لا يشك في وجود هذه الميكانيزمات لكنه يشك في كونها لاشعورية⁵. سيحاول الباحث تقديم سبعة أركان أساسية في نظرية الميكانيزمات الدفاعية، ثم في كل ركن سيقدم الدراسات التجريبية التي تدعمه.

الجدول رقم ٥ : الخصائص السيكومترية لأهم أدوات قياس الميكانيزمات الدفاعية⁶

¹- Kihlstrom, J. F. The cognitive unconscious. Science, **237**,1987, p1445.

²- Perry, J. C. Defense Mechanism Rating Scales (DMRS) (5th edn). Cambridge, MA: Author, p25.

³- Vaillant, G. E. Adaptation to Life. Boston, MA: Little, Brown and Co, 1990, p35.

⁴- Cramer, P. The Development of Defense Mechanisms: Theory, Research and Assessment. NewYork, NY: Springer-Verlag. 1991, p69.

⁵- Erdelyi, M. H. Defense processes can be conscious and unconscious. American Psychologist, 56, 2001, p760.

⁶- CharlotteSoulthian et autres, revue canadienne de psychiatrie, Vol 50 n12, octobre 2005, p794.

التعيين و التقييم						معايير التقييم
REM-71	LSI	DMP	DMI	DSQ-88/40	DMRS	الأداة
2001	1995	1982	1969	1983	1990	السنة
Steiner H Koopman C	Plutchik R	Johnson N	Gleser G C Ihilevich D	Bond M D,Gardner S T,Christian J and Sigal J AndrewsG, Singh M,Bond M D	Perry JC	المؤلفين
+	+	+	+	+	/	استجواب ذاتي
-	-	-	-	+	-	السرعة
71	97	40	240	40/88	/	عدد البنود
+	+	+	/	+	+	المصدقية
+	+	+	+	+	+	الوضوح
+	+	+	+	+	/	المحتوى
+	+	+	+	+	+	التقاطع
/	/	/	/	+	+	البنية
/	+	+	+	+	+	القابلية لإعادة الانجاز
/	٥ أشهر	٣ أشهر	شهرين	١٨ شهرا	/	الثبات الزمني
/	٠.٨-٠.٣	/	0.6-0.8	0.8	/	التماسك الداخلي
21	8	14	15	20-24	28	عدد الميكانيزمات المختبرة
/	النرويجية/العبرية/الروسية/الألمانية	/	/	فرنسية/ ايطالية	فرنسية	الترجمة
+	+	+	+	+	-	المعطيات المعيارية

الجدول رقم ٥ : الخصائص السيكومترية لأهم أدوات قياس الميكانيزمات الدفاعية

الركن ١: الميكانيزمات الدفاعية هي عمليات معرفية تعمل خارج مجال الوعي

نركز في هذا الجزء على ثلاثة ميكانيزمات دفاعية والتي تختلف حسب درجة تعقد العمليات المعرفية، التي تركز عليها هي كذلك تختلف في نضجها التطوري.

يعتبر الإنكار هو الأقل تعقداً من بين الثلاث. وهو يتم من خلال ربط مَعْلَمٍ سلبي (مثل: "لا"، "لم") مع إدراك ما، فكرة أو إحساس. الأفكار والأحاسيس التي تكون مضطربة، إذا كانت مدركة على نحو صحيح ودقيق يتم تجاهلها أو تشويهها.

الميكانيزم الثاني هو الإسقاط، ويعتبر معرفياً أكثر تعقيداً. ويتم عن طريق إزالة الأفكار والأحاسيس المزعجة من الشخص ووضعها أو إسنادها إلى شخص أو شيء آخر. معرفياً، استعمال الإسقاط يتطلب القدرة على التفريق بين المثيرات الداخلية والخارجية. وتطور قواعد داخلية التي من خلالها يتم الحكم على الأفكار والأحاسيس بأنها غير مقبولة.

الميكانيزم الثالث هو التقمص، وهو يختلف عن السابقين في محاولة تغييره للواقع. كما يشمل على تغيير الذات لتصبح أكثر جاذبية بالنسبة للآخرين. هذا التغيير يعزز من إحساس الشخص بالانتماء والأمان. إن زيادة التعقد المعرفي لهذا الميكانيزم يعتبر كمتطلب، حتى يستطيع الشخص التفريق بين الذات والآخرين، ويحدد موضعه من بين الآخرين إذا اعتبرنا الميكانيزمات الدفاعية كعمليات معرفية خارج نطاق الوعي، فإن هذا الركن يتجنب أمراً جدلياً يتمثل في أن هذه الميكانيزمات هي سيرورات عقلية لاشعورية. وعموماً فإن من المعروف حالياً بين الباحثين وجود سيرورات عقلية لاشعورية، لكن يوجد جدال حول أن الميكانيزمات لا تحتاج أن تكون لاشعورية^١.

هناك أبحاث أكدت أن الأطفال يطورون طريقة لفهم كيفية عمل مخ تلف الميكانيزمات. في سن ٥ و ٦ سنوات يكون فهم بسيط للإنكار، في ٨ سنوات يتطور مستوى الفهم أكثر. يكون فهم الإسقاط أكثر في سن ١١ سنة و ٨ سنوات لكن في سن ٥ و ٦ سنوات لا يمكن فهم هذا الميكانيزم^٢.

هناك دراسات اهتمت بالعمر الذي يفهم فيه الطفل هذه الميكانيزمات والعمر الذي يحدث فيه اضطراب في استعمال هذا الميكانيزم (انظر الركن ٢).

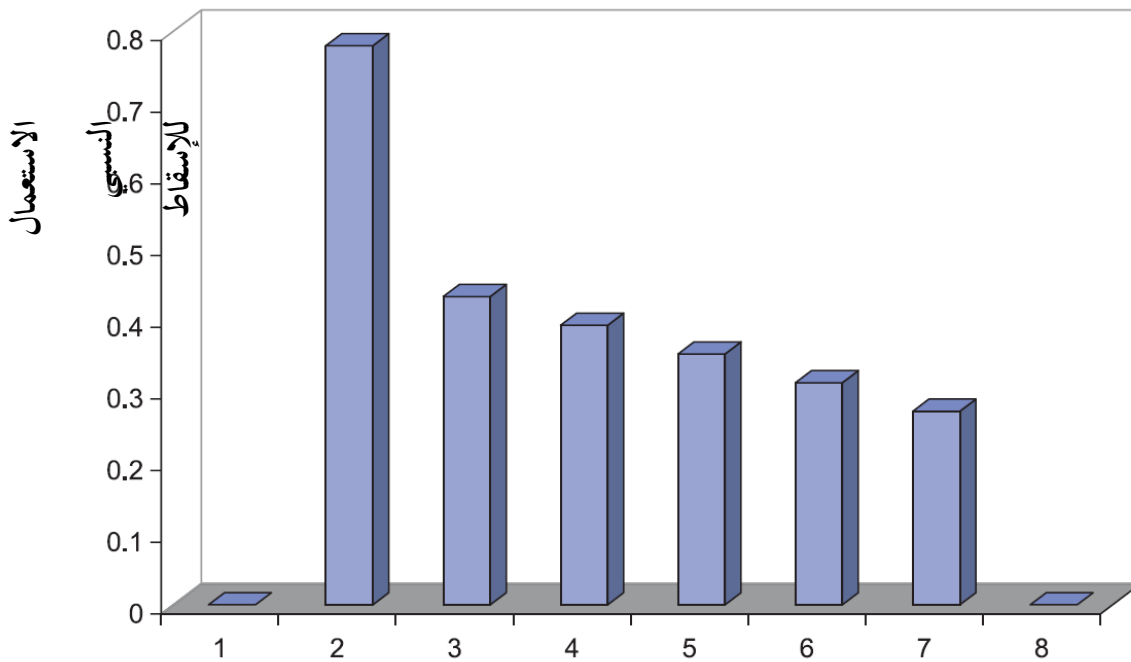
في دراسة لـ ١٢٠ طفل، مقسمين إلى مجموعتين: في المجموعة الأولى بعمر ٧ سنوات حيث ينتقل الأطفال في هذا العمر من استعمال الإنكار إلى الإسقاط. وفي المجموعة الثانية بعمر ١٠ سنوات، حيث يقوم الأطفال باستعمال الإنكار بدل الإسقاط. في المرحلة الأولى من هذه الدراسة قام الأطفال بسرد قصصهم الشخصية تم على أساسها استخراج الميكانيزمات المستعملة. كما تم قياس درجة الذكاء. بعد أسبوعين، تم تقديم نفس الأطفال بأربعة قصص قصيرة تم تحضيرها من طرف الباحثين. في كل قصة أظهر البطل استعمال كل من الإنكار والإسقاط. مثال: قصة تصف طفلاً تم رفضه من طرف زميله: حيث قال لأمه: أنا لا أبالي لأنني لم أكن أرغب حقيقة في اللعب معه.

قرأ الأطفال كل قصة وطلب منهم الشرح لماذا تصرف الطفل بهذا الشكل. تحصل كل طفل على درجة فهمه للإنكار والإسقاط وكانت الدرجات من ٢ (لم أفهم) إلى ٨ (فهمت جيداً). تم تقييم الأطفال الذين حاولوا شرح القصص بدرجة فهمهم لوظيفة الدفاع، كما كانت درجة فهمهم متعلقة باستعمالهم لهذا الدفاع الذي تم استخراجها في المرحلة الأولى من القصص التي سردوها بأنفسهم. لم يجد الباحثون ارتباطاً بين فهم أو استعمال الدفاع ودرجة الذكاء.

¹- Newman, L. S. Coping and defense: No clear distinction. American Psychologist, 56, 2001, p761.

²- Dollinger, S. J., & McGuire, B. The development of psychological-mindedness: Children's understanding of defense mechanisms. Journal of Clinical Child Psychology, 10, 1981, p117.

بينت نتائج الدراسة بأن الأطفال الذين فهموا أكثر هذه الميكانيزمات كان احتمال استعمالهم لها أقل^١. أطفال ذوي ٧ سنوات الذين فهموا ميكانيزم الإنكار جزئياً أو كلياً، كان استعمالهم له أقل بدرجة دلالة أكثر، مما هو عليه بالنسبة للأطفال الذين كان فهمهم أقل أو لم يفهموا. بالنسبة لعمر ١٠ سنوات، هناك علاقة بين استعمال و فهم ميكانيزم الإسقاط. كلما زاد فهمهم للإسقاط قل استعمالهم له. كما توصل الباحثون إلى نفس النتائج بالنسبة لطلبة الجامعات في دراستهم للإسقاط، حيث أن وعيهم باستعمالهم له قليل من فاعليته^٢.



الشكل رقم ١٠١: استعمال و فهم الإسقاط

الركن ٢: هناك ترتيب زمني في تطور الميكانيزمات الدفاعية

هناك نموذج نظري لتطور ثلاثة ميكانيزمات دفاعية وصفه الباحث Cramer. حيث أنه خلال مراحل الحياة الأولى، يكون الإنكار هو الميكانيزم المسيطر. أما في وسط مرحلة الطفولة، يسيطر الإسقاط ثم يأتي التقمص في مرحلة المراهقة. كما يمكن لهذا الميكانيزم أن ينخفض في مرحلة ما بعد المراهقة. فتظهر ميكانيزمات أخرى مختلفة أثناء مرحلة التطور. حيث ترجع هذه الاختلافات إلى ارتفاع درجة التعقد المعرفي لهذه الميكانيزمات^٣.

¹- Cramer, P., & Brilliant, M. Defense use and defense understanding in children. Journal of Personality, 69, 2001, p291.

²- Newman, L. S., Duff, K. J., & Baumeister, R. F. A new look at defensive projection: Thought suppression, accessibility, and biased person perception. Journal of Personality and Social Psychology, 72, 1997, p 980.

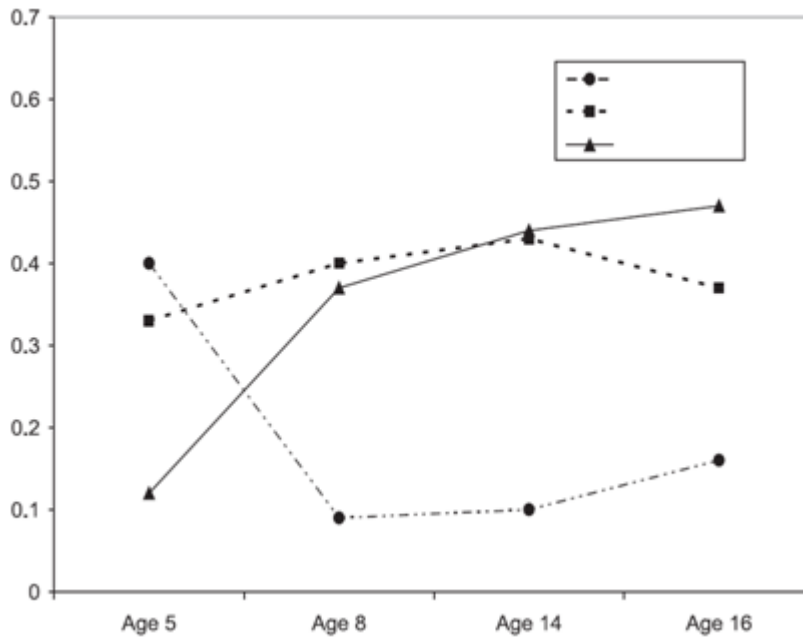
³- Cramer, P. Protecting the Self: Defense Mechanisms in Action. New York, NY: Guilford Press, 2006. P28.

كل دفاع له تاريخه التطوري الخاص به . كل دفاع له جذوره في سلوكيات الطفل، التي تظهر على شكل سلوكيات حركية إرادية. هناك دفاعات تتطور بسرعة أكبر من دفاعات أخرى. يمكن تمييز الميكانيزمات من خلال مدى نضجها، الذي يمكن تحديده من خلال مرحلة التطور التي أصبح فيها الدفاع مسيطراً و من خلال التعقد المعرفي للعمليات العقلية المصاحبة للميكانيزمات الدفاعية.

هناك عدة دراسات تدعم هذا الركن . في دراسة عبر-فئوية لـ ٣٠٠ طفل و مراهق يعيشون في إنجلترا الجديدة، بينت أن الإنكار استعمل أكثر في سن ٥ سنوات، بعد ذلك انخفض استعماله بصفة واضحة . ارتفع استعمال الإسقاط في سن ٨ سنوات تم استعماله بصفة أكثر من الإنكار . أما الميكانيزم الثالث، التقمص فكان ارتفاع استعماله بطيئاً و في الأخير فاق مستوى الإسقاط و الإنكار في مرحلة المراهقة المتأخرة^١.

هناك دراستين طويلتين بينتا أن علاقة السن بالاختلافات في استعمال الميكانيزمات هي تمثل في الحقيقة تغيراً تطورياً.

يبين الشكل التالي مسارات تطور ثلاثة ميكانيزمات دفاعية الإنكار، الإسقاط و التقمص خلال أربعة مراحل عمرية، ٥ سنوات، ٨ سنوات، ١٤ سنة ثم ١٦ سنة: حيث يكون الإنكار في العمر الأول مرتفعاً، ثم ينخفض بنسبة كبيرة في العمر الثاني ثم يعود للارتفاع في المعر الثالث و الرابع على التوالي، لكن بنسب منخفضة. أما الإسقاط فيكون متوسطاً نوعاً ما في العمر الأول، ثم يرتفع قليلاً في العمر الثاني و الثالث، لينخفض قليلاً في العمر الرابع . أما التقمص فيكون منخفضاً جداً في العمر الأول، ثم يبدأ في الارتفاع تدريجياً خلال الأعمار الثلاثة الباقية.



الشكل رقم ٠٢: استعمال الميكانيزمات الدفاعية في أربعة أعمار

¹- Phebe Cramer, Seven Pillars of Defense Mechanism Theory, Social and Personality Psychology Compass 2/5, Blackwell Publishing Ltd, 2008, p1968.

²- Cramer, P. Longitudinal study of defense mechanisms: Late childhood to late adolescence. Journal of Personality, 75, 2007, p24.

وفي دراسة طولية أخرى استعملت مختلف أدوات قياس الميكانيزمات الدفاعية (DSQ-72) بينت ارتفاعا في استعمال الميكانيزمات الناضجة وانخفاضا في الميكانيزمات غير الناضجة ما بين سن ١٦ و ٢١ سنة^١.

الركن ٣: تعتبر الميكانيزمات الدفاعية جزءا من الوظيفة النفسية اليومية العادية.

استعمال الميكانيزمات الناضجة يدعم الوظيفة النفسية ذات الفاعلية الناجحة أو الايجابية، أما استعمال الميكانيزمات غير الناضجة فهو مرتبط بالوظيفة النفسية غير الناجحة أو السلبية^٢.

إن استعمال الميكانيزمات الناضجة مرتبط بالخصائص الشخصية الايجابية، كالتعاطف، تقدير الذات، مركز الضبط الداخلي، الكفاءة، الثقة بالذات والانبساط، ونموذج من الارتباط الآمن . يرتبط استعمال الميكانيزمات غير الناضجة بمؤشرات الصعوبات مثل اللامسؤولية، التمرکز على الذات، التفكير الغامض والقلق^٣.

إن استعمال الميكانيزمات الناضجة من قبل الراشدين يعطي عدة مؤشرات خاصة بالتوافق الايجابي اللاحق، أما استعمال الميكانيزمات غير الناضجة فهو مرتبط بالمشاكل اللاحقة^٤.

لم يجد الباحثون ارتباطا بين نسبة الذكاء واستعمال الميكانيزمات الدفاعية في الطفولة والمراهقة لكن على العكس فإن هذه العلاقة هي موجودة في سن الرشد . تقوم نسبة الذكاء بتعديل طبيعة العلاقة بين الميكانيزمات الدفاعية والشخصية^٥.

بالنسبة للأشخاص الذين يكون معدل ذكائهم منخفضا نسبيا (نسبة الذكاء تقارب ١٠٦)، فإن استعمال ميكانيزمات أقل نضجا كالإنكار والإسقاط يساهم لتكون الشخصية في أحسن وظيفة نفسية لها.

الركن ٤: ارتفاع استعمال الميكانيزمات الدفاعية أثناء الوضعيات الضاغطة

و هو يعتبر نقطة مركزية في نظرية الميكانيزمات الدفاعية. إذا كانت وظيفة الميكانيزمات هي حماية الشخص من القلق الشديد، الانفعال السلبي غير الضروري، فقدان تقدير الذات، التعرض إلى وضعيات ترفع من هذه الاستجابات ما يؤدي إلى ارتفاع في استعمال الميكانيزمات.

سنقدم أربعة نماذج تجريبية تدعم هذا الركن. في كل دراسة، و بعد انتهاء كل تجربة يستفيد المشاركون فيها من مقابلات في التفرغ النفسي.

في الدراسة الأولى، تم قياس استعمال الميكانيزمات الدفاعية عند تلاميذ مستوى المتوسط، و هذا في ظروف ذات ضغط أقل.

¹ - Tuulio-Henriksson, A., Poikolainen, K., Aalto-Setälä, T., & Lonnqvist, J. Psychological defense styles in late adolescence and young adulthood: A follow-up study. Journal of the American Academy of Child and Adolescent Psychiatry, 36, 1997, p1150.

² - Cramer, P., & Tracy, A. The pathway from child personality to adult adjustment: The road is not straight. Journal of Research in Personality, 39, 2005, p394.

³ - Whitty, M. T. Coping and defending: Age differences in maturity of defence and coping strategies. Aging and Mental Health, 7, 2003, p123.

⁴ - Vaillant, G. E. The Wisdom of the Ego. Cambridge, MA: Harvard University Press. 1993, p64.

⁵ - Cramer, P. Defense mechanisms, behavior and affect in young adulthood. Journal of Personality, 70, 2002, p103.

بالاعتماد على نتائج قياس الميكانيزمات، تساوت مجموعتين في استعمال الميكانيزمات. بعد أسبوعين، طلب من كل طفل اللعب بهدف الحصول على زمن قياسي. وعند النجاح يسجل في لوحة الشرف. استنتج الباحثون بأن تجربة الخسارة سببت للأشخاص مشاعر سلبية. أما بالنسبة للأطفال الذين نجحوا في اللعبة فقد استطاعوا بعدها سرد قصص مختلفة تم من خلالها قياس الميكانيزمات الدفاعية.

بينت النتائج بأن الأطفال في المجموعة التي نجحت في اللعب، قد ارتفع استعمالهم لميكانيزم الإنكار والإسقاط: أثارت التجربة مشاعر سلبية لديهم هذا ما زاد من استعمالهم لهذه الميكانيزمات. كما ارتفع استعمالهم لميكانيزم التقمص. ساهمت تجربة النجاح في رفع استعمال الميكانيزمات الناضجة.

في الدراسة الثانية، تم خلق وضعيات ضاغطة عن طريق مجموعة من استجابات الرفض¹.

قبل هذه التجربة، تم تقييم عينتها المتمثلة في 4 إناث بواسطة زملائهم في الدراسة لتحديد من كانت منهن حسنة الحظ. على اعتبار خصائصهن السوسيومترية، تم اختيار أربعة مجموعات من الإناث: معروفة أكثر بين الناس، متوسطة، مرفوضة و مهملة. تشارك كل أنثى في المخبر، و بعد سرد مجموعة من القصص و مطالبة بتصديقها ثم الالتقاء بأنثى أخرى للعب معها. أعلنت زميلتها في التجربة بأنها لا ترغب في اللعب مع هذه الأنثى المشاركة في التجربة. و مباشرة بعد سماع هذا الرفض الصريح، قامت هذه الأخيرة بسرد قصص إضافية.

أكدت هذه الدراسة بأن البنات اللواتي رُفضن أو أهملن من طرف زميلتهن، قد تأثرن أكثر بهذا الرفض، عكس أولئك اللواتي قُبلن من طرف زميلتهن (المعروفات أكثر بين الناس و المتوسطة)، فقد كان تأثرهن أقل. و بالتالي، يؤدي هذا الاختلاف إلى رفع استعمال الميكانيزمات الدفاعية من طرف من تم رفضهن أو إهمالهن.

بالاعتماد على الاستمارات الذاتية للإناث طيلة هذه الدراسة، اللواتي تم رفضهن أو إهمالهن باعتبار خاصيتهم السوسيومترية، حيث أظهرن ارتفاعاً في استعمال الإنكار والإسقاط، بالمقارنة مع الإناث المقبولات.

الركن 5: استعمال الميكانيزمات تحت ظروف ضاغطة يخفض من المعايضة الواعية للقلق والانفعالات السلبية

تعتبر هذه القاعدة قلب نظرية الميكانيزمات الدفاعية: هدف الميكانيزمات هو تخفيض الانفعالات السلبية. هناك عدة مصادر لتدعيم هذا الركن.

في دراسة حول مراهقين (المراهقة الباكرة)، حيث أثناء لعبة الكترونية، قتل أحد رفاقهم و أسقط البعض منهم أرضاً.

بعد هذا التقى هؤلاء الأولاد من طرف نفساني عيادي للأطفال، و قاموا بسرد قصص حول صورتين متعلقتين بهذا الحدث. تم تقييم الأولاد حسب درجة الاضطراب النفسي. ثم تقييم استعمال الميكانيزمات في القصص. الأولاد الذين استعملوا ميكانيزمات أكثر في نفس الوقت خاصة في عمر استعمال ميكانيزم الإسقاط و نضج ميكانيزم التقمص، حيث أظهروا اضطراباً أقل بالنسبة للأولاد الذين استعملوا أقل الميكانيزمات الدفاعية. حيث كان لاستعمال هذه الأخيرة في الحادث الصادم، دوراً في حماية الأولاد من الاضطراب النفسي.

¹- Cramer, P. Personality change in later adulthood is predicted by defense mechanism use in early adulthood. Journal of Research in Personality, 37, 2003, p104.

في دراسة ثانية، لأطفال في عمر ١٨٩ سنة يعيشون في ظروف ضاغطة تتمثل في إمكانية إصابتهم بمرض السيدا بعد موت آبائهم به حيث استعملوا ميكانيزم الإنكار^١.

لم يختلف تقييم الاستمارات الذاتية عن مجموعة ضابطة، حيث كانت نتائج بعض السلالم منخفضة. في المجموعة التي عانت من الضغط النفسي، كان استعمال الإنكار أكثر، أما نتائج الاستمارات الذاتية المتمثلة في سلم CBCL/قلق/اكتئاب فكانت منخفضة. كان الاستعمال المرتفع للميكانيزمات له الدور المهم في حماية هؤلاء الأطفال من التعرف على المشاكل.

في الدراسة الثالثة لأطفال في سن ٩ سنوات إناثو ذكور، حيث كان تقييمهم حسب نتائج سلم CBCL ومقياس هارتر Harter للإدراك الذاتي للكفاءة^٢.

إن الاستعمال الشديد لميكانيزم الإنكار غير الناضج هو مرتبط بالمؤشرات النفسية المرضية التي يقدمها الأولياء. الأطفال الذين يستعملون الإنكار كان احتمال إدراكهم لأنفسهم، كأطفال أقل كفاءة، قليلا. الأطفال الذين يستعملون ميكانيزم غير ناضج يظهرون أعراض تنبؤ بمشاكل نفسية. فالاستعمال الشديد و الناجح للميكانيزمات، يحميهم من إدراكهم للاضطرابات، كما يحمي إحساسهم الشخصي بالكفاءة^٣.

كما بينت الدراسات هذه العلاقة بين استعمال الميكانيزمات و قلة الاضطرابات النفسية. حيث تم في دراسة تقديم مجموعة صور جنسية، هذا ما يرفع ما يسمى مستوى سلوك البشرة (SCL) skin conductance level، و الذي لحقه ارتفاع في استعمال الميكانيزمات. إن الرجال الذين أظهروا أكبر ارتفاع في استعمال الميكانيزمات، قد أظهروا أخفض مستويات القلق، فاستعمالهم للميكانيزمات قد حماهم من تجربة القلق، كما أن ارتفاع SCL يبين وجود استجابة لاإرادية^٤.

في دراسة أخرى، حول مجموعة طلاب جامعيين، حيث كان تقديرهم لذواتهم مهددا، ارتفع استعمالهم للإسقاط. كان هذا الارتفاع مصحوبا بأفكار غير مقبولة، يتم حذفها من مجال الإدراك الشعوري. إن استعمال الميكانيزمات جعل الإدراك الشعوري لرأي هؤلاء الطلبة حول أنفسهم، يساهم في حماية تقديرهم لذواتهم^٥.

إن استعمال الميكانيزمات الدفاعية يحمي الشخص من التجارب الانفعالية السلبية. يرتبط هذا بنتائج الدراسات السابقة التي بينت، بأن ارتفاع الضغط النفسي يؤدي إلى ارتفاع استعمال الميكانيزمات الدفاعية، هذا ما يخفض من أثر الشعور بتجربة القلق و الاضطرابات النفسية.

الركن ٦: استعمال الميكانيزمات الدفاعية يرتبط بسيرورات أخرى غير اختيارية و غير واعية، تكون مصاحبة للاستجابات الانفعالية

¹- Silverman, L. R. Defense and adaptation in uninfected 'affected' siblings of HIV-positive children. New York, NY: The City University of New York, 1999. P39.

²- Harter, S. The perceived competence scale for children. Child Development, 53, 1982, p97.

³- Sandstrom, M., & Cramer, P. Girls' use of defense mechanisms following peer rejection. Journal of Personality, 71, 2003, p605.

⁴- Tang, P. The effect of exposure to erotic images on defense mechanisms. Palo Alto, CA: Pacific Graduate School of Psychology, 2002. P35.

⁵- Schimel, J., Greenberg, J., & Martens, A. Evidence that projection of a feared trait conserve a defensive function. Personality and Social Psychology Bulletin, 29, 2003, p969.

إن استعمال الميكانيزمات الدفاعية يخفف من الشعور بتجربة القلق، و الانفعالات السلبية الأخرى. يمكن للملازمة الفيزيولوجية للانفعالات السلبية أن تستمر، كارتفاع ضغط الدم و تغيرات سلوك البشرة. في هذه الحالة، يجب إيجاد العلاقة بين الضغط النفسي/استعمال الميكانيزمات الدفاعية، و تنشيط الجهاز العصبي الذاتي. إذا أصبح هذا الظرف مزمنًا، مثل: الاستمرار في الاستعمال الشديد للميكانيزمات، المصاحب لاستجابات فيزيولوجية، يمكنه أن يحدث مرضًا جسديًا.

تمت مراقبة الضغط الدموي الانبساطي حالة SCL لمجموعة من الأشخاص الراشدين، في نفس الوقت تم تعريضهم لظروف ضاغطة، حيث قاموا بسرد قصص تم من خلالها تقييم استعمالهم للميكانيزمات الدفاعية.

تم إيجاد علاقة بين مدى استجابة الجهاز العصبي الذاتي مستوى استعمال الميكانيزمات. بارتفاع SCL الذي يحدث عند وجود كفا انفعالي، حيث كان هذا مرتبطًا بارتفاع استعمال الإنكار، و هذا بكف الأفكار و الانفعالات. بارتفاع ضغط الدم الانبساطي، في حالة وجود نشاط معرفي، كان مرتبطًا بارتفاع استعمال التقمص، حيث إن الميكانيزمات الدفاعية المعقدة تتطلب عملاً معرفيًا أكثر. في هذا العرض، حيث تظهر الميكانيزمات مترادفة مع استجابات الجهاز العصبي الذاتي، التي تسببها الضغوط النفسية، من المهم الإشارة إلى أن الظروف الضاغطة التي تسبب استجابات فيزيولوجية، مرتبطة بارتفاع استعمال الميكانيزمات الدفاعية؛ لا ترتبط مرحلة ما قبل استجابات الجهاز العصبي الذاتي، بالاستعمال اللاحق للميكانيزمات. إن التعرض لتجربة القلق هي بالخصوص سبب ارتفاع استعمال هذه الميكانيزمات.

كما بينت دراسات أخرى بأن استجابات الجهاز العصبي الذاتي التي يسببها الضغط النفسي -كذلك SCL و استجابة الشريان التاجي- هو مرتبط باستعمال الميكانيزمات الدفاعية¹.

أكدت هذه الدراسات وجود العلاقة بين الاستجابة الفيزيولوجية و استعمال الميكانيزمات الدفاعية، إن كانت هي وظيفة هذا الضغط النفسي، حيث بينت من جهة أخرى، عدم وجود علاقة في حالة الظروف غير الضاغطة.

في دراسة² ٦٠ شخص أثبتت بأنه لا توجد علاقة بين الظروف غير الضاغطة (فيما يخص ضغط الدم الانبساطي)، حيث يكون الجسم في حالة راحة، و استعمال الميكانيزمات الدفاعية².

هذا ما توصل إليه كل من Cramer (2003) مع مجموعة من الراشدينو Vaillantand Gerber (1996) مع مجموعة من الراشدين و الأشخاص في وسط العمر³.

إن استعمال الميكانيزمات الدفاعية مرتبط بتغير الحالة الفيزيولوجية الداخلية و التي تعتبر كمؤشر على حالة الضغط النفسي.

الركن^٧: الاستعمال المفرط للميكانيزمات الدفاعية، أو تلك غير الناضجة منها أو غير المتلائمة مع عمر الشخص، هو مرتبط بالاضطرابات النفسية.

¹- Shelder, J., Karliner, R., & Katz, E. Cloning the clinician: A method for assessing illusory mental health. Journal of Clinical Psychology, 59, 2003, p650.

²- MacGregor, M. W., Davidson, K. W., Barksdale, C., Black, S., & MacLean, D. Adaptive defense use and resting blood pressure in a population-based sample. Journal of Psychosomatic Research, 55, 2003, p541.

³- Vaillant, G. E., & Gerber, P. D. Natural history of male psychological health, XIII: Who develops higher blood pressure and who responds to treatment. American Journal of Psychiatry, 153, 1996, p29.

إن الاستعمال الميكانيزماتي للميكانيزمات الدفاعية للحماية ضد القلق، أو فقدان تقدير الذات هو متكيف، أما الاستعمال المفرط لها فإنه يصبح من خصائص الاستجابة المتكررة للعديد من الوضعيات، أو استعمال ميكانيزمات غير متلائمة مع العمر فهو مرتبط بوجود اضطرابات نفسية.

هناك عدة اعتبارات في العلاقة بين الميكانيزمات و الاضطرابات النفسية.أولاً: على افتراض أن الاستعمال المفرط للميكانيزمات التي تكون من خصائص الاضطرابات النفسية، أما تلك المعتدلة فإنها تعتبر جزءاً عادياً من الوظيفة النفسية اليومية. ثانياً: التوقع بأن استعمال الميكانيزمات التطورية غير الناضجة، سيكون مرتبطاً بالاضطرابات النفسية؛ حيث يمكن لهذه الميكانيزمات أن تكون لها نتيجة نفسية مَرَضِيَّة، إذا استمر الشخص في استعمالها لفترة طويلة، بعد نهاية المرحلة العمرية الملائمة لاستعمالها. ثالثاً: و هي مسألة السببية. هل استعمال بعض الميكانيزمات يحدث أثناء تطور الاضطراب النفسي، أو هل وجود هذا الأخير يحدث في حالة الاستعمال المفرط لبعض الميكانيزمات؟

بصيغة أخرى نقول: هل الميكانيزمات الدفاعية و الاضطرابات النفسية، هي مرتبطة داخلياً باعتبار أن الميكانيزم هو الاضطراب و العكس صحيح؟ لا توجد دراسات طويلة قدمت إجابات واضحة لهذه التساؤلات.

لقد زاد فهم أهمية دور الميكانيزمات الدفاعية في فهم الاضطرابات النفسية، فمثلاً: بإضافة سلم تقييم الميكانيزمات الدفاعية، في الدليل التشخيصي و الإحصائي للاضطرابات النفسية و العقلية (النسخة الرابعة)، و هذا لتحديد وجود الاضطرابات العقلية. هناك عدة دراسات تبين العلاقة بين الميكانيزمات الدفاعية و الاضطرابات النفسية، سواء في عينة مرضية أو سوية.

كما وضحنا سابقاً، فإن استعمال الميكانيزمات بطريقة معتدلة يساهم في التكيف الناجح. القدرة على تجاهل أمر ما (إنكار وجود أمر ما)، يصرف الانتباه إلى المثيرات و يساعد في تركيز الشخص أكثر على الأمر المهم، لكن الفشل في إدراك الخطر في حالة علاجنا لوضعية معينة، مثال: إنكار مفرط يدل على فقر في تجريب الواقع. كما أن كون الشخص حذراً و متيقظاً في وضعية خطر معين فهو متكيف، لكن شدة الحذر، التردد و التوقع الدائم في وضعيات عادية، مثال: الإسقاط هنا يعبر عن اضطراب نفسي.

إذا استمر وجود الميكانيزمات الدفاعية، فإن وجود الاضطرابات النفسية يمكنه أن يتخذ هذا البعد.

في دراسات حول عينة من الأشخاص العاديين، وجدت أن استعمال ميكانيزمات غير ناضجة، كالإنكار و الإسقاط، مرتبط بوجود معايير اضطرابات الشخصية من النوع (ب) (B)، الخاصة بـ DSM-IV و هي (الشخصية الحدية، المضادة للمجتمع، النرجسية و شبه الهستيرية). تم تأكيد هذه العلاقات بتقييمها بواسطة مقابلات نفسية¹.

و باستعمال النموذج الأولي لمقياس الملاحظات، أو باستعمال مقاييس ذاتية لاضطرابات الشخصية

كان من الممكن في بعض الحالات، تأكيد العلاقة بين اضطراب معين و ميكانيزم معين. بالاعتماد على مقابلات إكلينيكية تتضمن الاستبطان، كان تشخيص اضطراب الشخصية النرجسية مرتبطاً بميكانيزم التفكك/الإنكار، التي تدعم الرغبة في الاستيham و تجاهل المعلومات السلبية حول الذات. إلى جانب هذا، كان وجود اضطراب الشخصية شبه الزورانية paranoid،

¹ - Vaillant, G. E., & McCullough, L. The role of ego mechanisms of defense in the diagnosis of personality disorders. In J. W. Barron (Ed.), Making Diagnosis Meaningful: Enhancing Evaluation and Treatment of Psychological Disorders. Washington, D.C.: American Psychological Association. 1998, p152.

مرتبطا باستعمال الإسقاط هو ميكانيزم يسند الضرر و الاعتداء إلى العالم الخارجي، و هذا سبب الخوف غير المبرر للشخصية شبه الزورانية¹.

أما في العينة المرضية، فإن استعمال الميكانيزمات كان مرتبطا بالتشخيص. بينت الدراسة بأن هؤلاء يختلفون عن العينة السوية، في استعمالهم للميكانيزمات الدفاعية².

حيث يستعمل الأشخاص الميكانيزمات غير الناضجة أكثر، من استعمالهم لتلك الناضجة منها. كما كان استعمال الميكانيزمات مرتبطا بوجود مختلف الأعراض النفسية المرضية³.

ترتبط الميكانيزمات غير الناضجة بعدد كبير من الأعراض المرضية. أما تلك الناضجة منها فهي مرتبطة بعدد قليل من الأعراض.

من جهة أخرى، كانت الدراسات حول العينة المرضية أقل نجاحا، فيما يخص التفريق بين التشخيصات المختلفة على أساس استعمالهم للميكانيزمات الدفاعية⁴.

إن من أهم الصعوبات في ربط ميكانيزم خاص بتشخيص خاص، هو أن هؤلاء الأشخاص بمختلف تشخيصاتهم، يمكنهم استعمال مختلف الميكانيزمات الدفاعية (حيث لا يرتبط ميكانيزم واحد خصوصا بتشخيص واحد).

إن استعمال الميكانيزمات الدفاعية غير الناضجة، قد تم التأكيد عليه باستمرار بأنه مرتبط بلاضطرابات النفسية، سواء عند العينة المرضية أو السوية. أما محاولة ربط التشخيص الخاص بميكانيزم خاص كانت أقل نجاحا.

قائمة المراجع:

1. CharlotteSoulntanian et autres, revue canadienne de psychiatrie, Vol 50 n12, octobre 2005.
2. Cramer, P. Defense mechanisms, behavior and affect in young adulthood. Journal of Personality, 70, 2002.
3. Cramer, P. Longitudinal study of defense mechanisms: Late childhood to late adolescence. Journal of Personality, 75, 2007.
4. Cramer, P. Personality change in later adulthood is predicted by defense mechanism use in early adulthood. Journal of Research in Personality, 37, 2003.
5. Cramer, P. Protecting the Self: Defense Mechanisms in Action. New York, NY: Guilford Press, 2006.
6. Cramer, P. The Development of Defense Mechanisms: Theory, Research and Assessment. New York, NY: Springer-Verlag. 1991.
7. Cramer, P., & Brilliant, M. Defense use and defense understanding in children. Journal of Personality, 69, 2001.

¹ - Vaillant, G. E. Ego mechanisms of defenses and personality psychopathology. Journal of Abnormal Psychology, 103, 1994, p44.

² - Simeon, D., Guralnik, O., Knutelska, M., & Schmeidler, J. Personality factors associated with dissociation: Temperament, defenses, and cognitive schemata. American Journal of Psychiatry, 159, 2002, p491.

³ - Cramer, P., Blatt, S. J., & Ford, R. Q. Defense mechanisms in the anaclitic and introjective personality configuration. Journal of Consulting and Clinical Psychology, 56, 1988, p616.

⁴ - Perry, J. C., & Cooper, S. H. What do cross-sectional measures of defense mechanisms predict? In G. E. Vaillant (Ed.), Ego Mechanisms of Defense: A Guide for Clinicians and Researchers. Washington, DC: American Psychiatric Press, 1992, p200.



8. Cramer, P., & Tracy, A. The pathway from child personality to adult adjustment: The road is not straight. *Journal of Research in Personality*, 39, 2005.
9. Cramer, P., Blatt, S. J., & Ford, R. Q. Defense mechanisms in the anaclitic and introjective personality configuration. *Journal of Consulting and Clinical Psychology*, 56, 1988.
10. Dollinger, S. J., & McGuire, B. The development of psychological-mindedness: Children's understanding of defense mechanisms. *Journal of Clinical Child Psychology*, 10, 1981.
11. Erdelyi, M. H. Defense processes can be conscious and unconscious. *American Psychologist*, 56, 2001.
12. Harter, S. The perceived competence scale for children. *Child Development*, 53, 1982.
13. Kihlstrom, J. F. The cognitive unconscious. *Science*, 237, 1987.
14. MacGregor, M. W., Davidson, K. W., Barksdale, C., Black, S., & MacLean, D. Adaptive defense use and resting blood pressure in a population-based sample. *Journal of Psychosomatic Research*, 55, 2003.
15. Newman, L. S. Coping and defense: No clear distinction. *American Psychologist*, 56, 2001.
16. Newman, L. S., Duff, K. J., & Baumeister, R. F. A new look at defensive projection: Thought suppression, accessibility, and biased person perception. *Journal of Personality and Social Psychology*, 72, 1997.
17. Perry, J. C. *Defense Mechanism Rating Scales (DMRS) (5th edn)*. Cambridge, MA, 1990.
18. Perry, J. C., & Cooper, S. H. What do cross-sectional measures of defense mechanisms predict? In G. E. Vaillant (Ed.), *Ego Mechanisms of Defense: A Guide for Clinicians and Researchers*. Washington, DC: American Psychiatric Press, 1992.
19. Phebe Cramer, *Seven Pillars of Defense Mechanism Theory, Social and Personality Psychology Compass 2/5*, Blackwell Publishing Ltd, 2008.
20. Sandstrom, M., & Cramer, P. Girls' use of defense mechanisms following peer rejection. *Journal of Personality*, 71, 2003.
21. Schimel, J., Greenberg, J., & Martens, A. Evidence that projection of a feared trait can serve a defensive function. *Personality and Social Psychology Bulletin*, 29, 2003.
22. Shelder, J., Karliner, R., & Katz, E. Cloning the clinician: A method for assessing illusory mental health. *Journal of Clinical Psychology*, 59, 2003.
23. Silverman, L. R. *Defense and adaptation in uninfected 'affected' siblings of HIV-positive children*. New York, NY: The City University of New York, 1999.
24. Simeon, D., Guralnik, O., Knutelska, M., & Schmeidler, J. Personality factors associated with dissociation: Temperament, defenses, and cognitive schemata. *American Journal of Psychiatry*, 159, 2002.
25. Tang, P. *The effect of exposure to erotic images on defense mechanisms*. Palo Alto, CA: Pacific Graduate School of Psychology, 2002.
26. Tuulio-Henriksson, A., Poikolainen, K., Aalto-Setälä, T., & Lonnqvist, J. Psychological defense styles in late adolescence and young adulthood: A follow-up study. *Journal of the American Academy of Child and Adolescent Psychiatry*, 36, 1997.
27. Vaillant, G. E. *Adaptation to Life*. Boston, MA: Little, Brown and Co, 1977.
28. Vaillant, G. E. Ego mechanisms of defenses and personality psychopathology. *Journal of Abnormal Psychology*, 103, 1994.
29. Vaillant, G. E. *The Wisdom of the Ego*. Cambridge, MA: Harvard University Press. 1993.



30. Vaillant, G. E., & Gerber, P. D. Natural history of male psychological health, XIII: Who develops higher blood pressure and who responds to treatment. *American Journal of Psychiatry*, 153, 1996.
31. Vaillant, G. E., & McCullough, L. The role of ego mechanisms of defense in the diagnosis of personality disorders. In J. W. Barron (Ed.), *Making Diagnosis Meaningful: Enhancing Evaluation and Treatment of Psychological Disorders*. Washington, D.C.: American Psychological Association. 1998.
32. Whitty, M. T. Coping and defending: Age differences in maturity of defence and coping strategies. *Aging and Mental Health*, 7, 2003.

الأمير عبد القادر في منظور رحالة ومصالح تونسي

أ. حفيظة بن دحمان/جامعة قسنطينة ٢، الجزائر

ملخص:

يعالج المقال موضوعا يتعلق بنظرة رحالة ومصالح وعالم دين تونسي (الشيخ محمد بيرم الخامس) لأحد علماء وزعماء الجزائر في العصر الحديث (الأمير عبد القادر الجزائري). حيث تعالج الإشكالية المقاربة بين أفكار محمد بيرم الخامس السياسية والإصلاحية، ورأيه في نظام حكم الأمير عبد القادر وكيفية سياسته لرعيته، وهذا من خلال التركيز على البعد الحضاري والإصلاحي في سياسة الأمير عبد القادر لدولته في ظل ظروف الاحتلال والمقاومة... ومدى مساهمة هذه التجربة في تشكيل النموذج المثالي للدولة العادلة والقوية، الذي تمنى تجسيده على أرض الواقع هذا العالم الزيتوني المعاصر للأمير.

الكلمات المفتاحية:

الأمير عبد القادر- محمد بيرم الخامس- صفوة الاعتبار- الجزائر- فرنسا- التحديث- الإصلاح- التجديد نظام الحكم- العدل.

تقديم:

قد يبدو من اليسير أن نتناول شخصية ملهمة، لعالم مفكر ورجل دولة وبطل مقاومة وصاحب مشروع سياسي وإصلاحي، يتمتع بكل هذا الزخم من الشهرة التي تجاوزت حدود النظرة المحلية الضيقة إلى العالمية الواسعة مثل شخصية الأمير عبد القادر.

غير أننا عندما نرغب في تفكيك فكر الأمير أو نحاول تسليط الضوء على تجربته الإصلاحية فيما يتعلق ببناء الدولة الوطنية وسياسة الرعية وعلاقته بالآخر، نواجه تساؤلا جوهريا مفاده: إلى أي مدى يمكن اعتبار مشروع دولة الأمير عبد القادر التي أقامها في الجزائر (١٨٤٣-١٨٤٨) مرجعية لتأسيس حكم وطني في البلاد العربية خلال الفترة الحديثة؟ وهذا التساؤل بدوره يجزّ تساوؤا آخر خلفه: إلى أي مدى يمكن أن نقتبس اليوم من هذه التجربة لمعالجة بعض الأدواء التي تعاني منها الأمة؟

من هنا كان المنطلق لتناول موضوع هذه المقالة التي اختير لها عنوان: "الأمير عبد القادر في منظور رحالة ومصالح تونسي"^١، والرحالة المصالح المقصود هنا هو الشيخ محمد بيرم الخامس التونسي صاحب كتاب صفوة الاعتبار بمستودع الأقطار

^١ . تمّ التطرق عرضا لجزء من هذا الموضوع في رسالتي للماجستير الموسومة ب: رأي محمد بيرم الخامس التونسي في الاحتلال الفرنسي للجزائر من خلال كتابه "صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار والأقطار" التي تمت مناقشتها بجامعة الجزائر ٠٢ في نوفمبر ٢٠١١ تحت إشراف أ. د. أبو القاسم سعد الله، ونُشرت سنة ٢٠١٣. وقد آثرت الرجوع إلى الموضوع وإعادة صياغته وإثرائه ونشره ضمن هذا المقال نظرا لأهميته.

والأمصار¹ الذي يَمّ منه استقاء ملاحظاته ورأيه في الأمير عبد القادر. وقد تم اختيار رأي هذه الشخصية دون غيرها من معاصري الأمير عبد القادر لعدة اعتبارات: منها أنه عالم دين ورجل إصلاح تعدّت أفكاره بلده تونس إلى العالم الإسلامي ككل، وله آراء وملاحظات هامة حول الاستبداد والحكم المطلق التي لم تنل حظّها الكافي من الدراسة بعد. كما كان له اتصال مع الأمير عبد القادر، وإن كان غير مؤكد أنه قابله شخصيا مثلما سنرى لاحقا.

ولعلّ تناول الموضوع من باب عرض ملاحظات الشيخ بيرم الخامس عن الأمير ومناقشتها وإثرائها فقط، لا يكون إلا انسياقا وراء تكرار ما قيل عن الأمير وشخصيته ودولته من قبل، في حين أن الهدف المنشود هو المقاربة بين سياسة الأمير عبد القادر بصفته قائد دولة ورجل حكم، وأفكار الشيخ بيرم الخامس الإصلاحية بصفته رجل علم ودين، للخروج بالاستنتاجات الضرورية التي قد تقودنا للإجابة عن الإشكال المطروح.

وقد تمحورت إشكالية المقال حول: البعد الحضاري والإصلاحي لمشروع دولة الأمير عبد القادر في منظور الشيخ بيرم الخامس، ومدى مساهمة هذا المشروع في تشكيل النموذج المثالي للدولة العادلة والناجحة التي كان يتمناها ويدعو لإقامتها هذا العالم المعاصر للأمير، مما قد يطرح التساؤل التالي: هل كان الأمير عبد القادر يصلح كنموذج للحاكم المسلم العادل في نظر الشيخ محمد بيرم الخامس؟

ولمناقشة فكرة هذا المقال تم الاعتماد على المنهج الوصفي، والاستقرائي التحليلي الذي يساعد على المقاربة بين أفكار الشخصيتين حول نظام الحكم وسياسة الرعية والتعامل مع حضارة الآخر، حيث سيتم التطرق باختصار لشخصية وأفكار الشيخ بيرم الإصلاحية لتوضيح القاعدة التي ستكون منطلقاً لتفسير ملاحظاته حول الأمير، ولاحقا يتم عرض الملاحظات كما وردت في الصفة، ثم استقراء هذه الملاحظات وتحليلها وفق منظور بيرم الخامس لنظام الحكم المثالي والدولة التي ينشدها في الواقع وذلك بمقاربتها مع تجربة الأمير عبد القادر.

والانطلاق سيكون من هنا...

١. محمد بيرم الخامس وأفكاره الإصلاحية:

محمد بيرم الخامس^٢ (١٣٠١هـ/١٨٤٤م - ١٨٨٩م) هو أحد رجال الإصلاح بتونس، تلقى تعليمه في جامع الزيتونة، وتولى التدريس فيه سنة (١٢٧١هـ/١٨٧٠م)، عاش في ظل الأسرة الحسينية^٣، وعاصر إعلان "عهد الأمان"^٤، ثم إصدار قانون الدولة التونسية سنة ١٨٦٦م، وهو أول دستور في العالم الإسلامي ينص على الحقوق والحريات وتقييد الحكم المطلق. وكان بيرم

^١ . الكتاب عبارة عن رحلة عامة في أوروبا والجزائر ومصر وبلاد الشام والحجاز واسطنبول، ذكر فيه المؤلف الكثير من الحقائق التاريخية والسياسية والاجتماعية عن البلدان التي زارها. لطفا انظر: محمد بيرم الخامس، صفة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، ٦ أجزاء، تحقيق مجموعة من الباحثين، بيت الحكمة - قرطاج، تونس، ١٩٩٩.

^٢ . نسبة إلى مؤسسها الحسين بن علي، توارثت حكم تونس من ١٧٠٥ - ١٩٥٧. لطفا انظر: المزيد عن هذه الأسرة في أحمد بن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان بملوك تونس وعهد الأمان، ٩ أجزاء، تحقيق لجنة من وزارة الشؤون الثقافية، ط. ٢، الدار العربية للكتاب، تونس، ٢٠٠٤.

^٣ . هو وثيقة أساسية أعلنها محمد باي يوم ٩ سبتمبر ١٨٥٧، يتوجه إلى سكان تونس مهما كانت ديانتهم وأجناسهم وحنسياتهم ... ويقر مساواة الجميع أمام القانون، خاصة فيما يتعلق بفرض الضرائب وحرية التجارة... وفي الحقيقة جاء لخدمة الجاليات الأجنبية في تونس. لطفا انظر: المزيد عنه في: ابن أبي الضياف، نفس المصدر، ج. ٤، صص. ٤٣٩ - ٤٤٤.

شاهدا على أحداث ثورة ابن غداهم سنة ١٨٦٦ م^١ ضد الظلم وتشدد السلطة، وساءه قمع الثوار بوحشية وانتقام من حكومة الباي، وتحسّر أيما حسرة على إبطال العمل بالدستور بذريعة إخماد هذه الثورة واستتباب الأمن من جديد.

عاصر بيرم الخامس الوزير الأكبر خير الدين^٢ وأيده في إصلاحاته التي جاء بها في الفترة (١٨٧٠-١٨٧١ م)، وتحمّس أكثر من غيره للتحديثات الجديدة والتمكين للحكم بالقانون وتقييد الحكم المطلق للبايات الحسينيين. تولى عدة مناصب هامة في الدولة التونسية مثل رئاسة جمعية الأوقاف وإدارة المطبعة الرسمية وغيرها. كما تجول في مختلف بلدان أوروبا والمشرق، واتصل برجال السياسة في أوروبا واسطنبول ومصر، وعلم بدسائس فرنسا لاحتلال تونس فعارض ذلك بقوة، مما اضطره إلى مغادرة البلاد (١٨٧١ م) والاستقرار باسطنبول، ثم بمصر حيث واصل نشاطه الثقافي والإصلاحي إلى وفاته.

عاش بيرم الخامس حياته ناقدا للاستبداد والحكم المطلق الذي ميّز عصره، سواء في بلده تونس، أو في السلطنة العثمانية وإيالاتها التابعة لها. وعندما تأمل في أسباب انحطاط المسلمين، وجد أن الاستبداد السياسي هو العدو الأساسي للحضارة والتقدم في جميع الميادين، لذلك كان من المناهضين له، وقاومه بلسانه وقلمه في تونس وفي غيرها من البلدان.

وعندما زار أوروبا واحتك بالغرب المسيحي في عقر داره، عاين حضارة الآخر وتذوق ثقافته واطلع على أفكاره وعرف نظمه وأعجب بمبادئه وفلسفته في السياسة والاقتصاد والعمارة والفن وغيره... والأهم أنه استخلص فضائل الحكم المقيّد بالقانون على الفرد والمجتمع والدولة، مما أكسبه تفكيراً جديداً ورؤية مغايرة لواقع بلده والعالم الإسلامي الذي ينتهي إليه، وذلك ما جعله يعي ضرورة الاستفادة من تجارب الآخرين واستثمارها فيما يفيد الأمة الإسلامية، لكن دون التخلص من موروثها الحضاري.

وقد فرّق بيرم بين رأيه في الاستعمار الأوروبي ونظرة للحضارة الأوروبية، حيث كان ناقداً للأول ومشيداً بالثانية، لأنه يعتقد بأن وقوع الدول الضعيفة في فخ الاستعمار راجع لتخلفها وعدم مسايرتها للركب الحضاري، لذلك اتهم الحكومات الإسلامية بأنها وفرت المناخ الجاذب للاحتلال وتسببت فيه أيضاً؛ بينما جاء اهتمامه بالحضارة الغربية من قبيل ولعه بالعلم والتقدم والحرية والعدالة وسيادة القانون؛ وفي نظره أن المسلمين بامتلاكهم لهذه العناصر سيتمكنون من علاج داء الاستعمار والاستبداد والتخلف في بلدانهم.

إنّ أبرز ما تمحورت عليه أفكار بيرم الإصلاحية هي الدعوة لتطبيق نظام شوري مبني على أسس الشرع الإسلامي، ويحيي مبدأ حرية الشعب، وفي الجانب الحضاري ناصر الإصلاح بتحديث التعليم ونشر الترجمة وبعث المكتبات وتشجيع

^١ . تسمى في التاريخ انتفاضة العريان أو ربيع العريان، فقد انطلقت شرارتها من بعض القبائل التونسية بقيادة رجل بسيط يسمى ابن غذاهم، وأهم أسبابها، إقبال كاهل الناس بالضرائب، والإجراءات التعسفية في المحاكم والإدارات . لطفاً انظر: التفاصيل في ابن أبي الضياف، نفس المصدر، ج. ٤، ص. ٢٠٣ .
و: بيرم الخامس، المصدر السابق، ج. ٢، ص. ٤٣٦ - ٤٣٧ . و: وثائق تونسية ثورة ابن غذاهم ١٨٦٤، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٦٧ .

^٢ . خير الدين باشا التونسي (١٨٢٢ - ١٨٩٠ م): أحد رموز الإصلاح بتونس. من أصل حركسي (منطقة القوقاز بآسيا)، تربى باسطنبول ثم شبّ في تونس بقصر أحمد باشا، وتمكّن من تحصيل الفنون العسكرية والسياسية والتاريخ... وتعلم اللغة الفرنسية. وفي سنة ١٨٦٧ قام بتأليف كتابه المشهور "أقوّم المسالك في معرفة أحوال الممالك". تولى عدّة مناصب هامة في حياته، حيث عُيّن وزيراً للبحر سنة ١٨٥٧، وأصبح رئيساً للمجلس الأكبر سنة ١٨٦١، ثم رئيساً للكومسيون المالي سنة ١٨٦٩، وتولّى منصب وزير أكبر من ١٨٧٣ إلى ١٨٧٧. وصدراً أعظم في اسطنبول (١٨٧٨ - ١٨٧٩). لطفاً انظر: ج.س.فان كريكن، خير الدين والبلاد التونسية ١٨٥٠ - ١٨٨١، ترجمة: البشير بن سلامة، دار سحنون تونس، آي بريل ليدن، ١٩٨٨ .

الصحافة، وتعزيز الإنتاج وحفظ الصحة.. ولم يعارض الاقتباس من الحضارة الغربية بهدف التطور¹. فهل وجد بيرم صدى لأفكاره هذه عند الأمير عبد القادر؟

ذلك ما سنعرفه بعد عرض ملاحظات بيرم حول الأمير في كتابه "صفوة الاعتبار..".

٢. ملاحظاته حول الأمير عبد القادر:

أثناء رحلته إلى باريس سنة ١٨٧٠م زار بيرم الخامس الجزائر، وأقام فيها فترة من الزمن تجول خلالها في بعض مدنها، وقابل شخصيات علمية وسياسية من الجزائريين والفرنسيين. وسجل في صفوته ملاحظات جديرة بالاهتمام عن الجزائر، انتقد من خلالها نظام الداوي حسين المستبد في نظره، وحمله مسؤولية احتلال مدينة الجزائر سنة ١٨٣٠، كما انتقد بشدة المحتل الفرنسي وحمله مسؤولية الهدم المنظم لبنية المجتمع الجزائري ثقافيا وحضاريا، وندد بسياسته الإدماجية والتغريبية لبلد عربي مسلم².

وقد تطرق بيرم الخامس لذكر الأمير عبد القادر في الصفوة عندما تناول المقاومة الشعبية الجزائرية ضد المحتل الفرنسي، حيث أشار إلى عدم توحيد جهود الجزائريين لمقاومة الاحتلال، ولاحظ تعدد الزعامات وانقسامها في المناطق التي لم تخضع للاحتلال، فالجهات الشرقية من البلاد حسب قوله «انفرد بالحكم فيها الحاج أحمد باي قسنطينة، والجهات الجنوبية والغربية تشتتت تحت رؤساء القبائل»؛ ثم أجمعت الجهات الغربية والجنوبية على مبايعة «الرجل الوحيد سلالة النسل المطهر الأمير سيدي عبد القادر بن محي الدين الحسني»³.

وامتدح إمارته على المسلمين التي أقامها بالعدل والإنصاف حسب ما يرضي الله، حتى صحبته النصر الإلهية في معاركه ضد أعدائه، وظهرت له كرامات خارقة مثلما يحدث لأولياء الله الصالحين! وأضاف أن الأمير دام محاربا للفرنسيين مدة سبع عشرة سنة، أقام خلالها حكومة وطنية «ضرب فيها السكة باسمه، وأنشأ المدافع والبنادق»، فنفذ أمره وخشيته فرنسا. ودعا الحاج أحمد باي لتوحيد المقاومة، لكنه «امتنع تجبرا وطغيانا، وخذل الأمة، إلى أن وهن أمره واستولى الفرنسيون على ما كان تحته»⁴.

والمثير للملاحظة هنا، هو الموقف العدائي لبيرم الخامس تجاه مقاومة الحاج أحمد باي الذي كان يمثل استمرارية الحكم العثماني بالجزائر، بينما ناصر وبارك مقاومة الأمير عبد القادر، واعتبره صاحب حكومة وطنية جديرة بالاعتراف والنصرة والتمكين. ورأيه هذا يطرح تساؤلا ملحا: إذا كان عداؤه لمقاومة الحاج أحمد باي تُفسّر بنقمته على رموز النظام العثماني المستبد بالحكم في نظره.. فما هي دلالات نصرته ومباركته لمقاومة الأمير عبد القادر ودولته؟

¹. لطفا انظر المزيد حول أفكار بيرم ورؤيته الإصلاحية في: حفيظة بن دحمان، رأي محمد بيرم الخامس في الاحتلال الفرنسي للجزائر من خلال كتابه: صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، منشورات الرياحين، الجزائر، ٢٠١٣.

². لطفا انظر: حفيظة بن دحمان، نفس المرجع، ص. ١٣٢ وما بعدها.

³. بيرم الخامس، المصدر السابق، ج. ٤، ص. ١٢٧٢-١٢٧٣. نشير هنا إلى أن ابن سلامة له نفس الرأي في الأمير عبد القادر، حيث امتدحه ووسمه بأنه رجل شريف بطل، وقام بحق الله حق القيام. لطفا انظر: محمد الطيب بن سلامة، التاريخ المسمى العقد المنصّد في أخبار مولانا المشير أحمد، دار الكتب الوطنية، تونس، مخطوط ١٨٦١٨، ص. ١٠٧.

⁴. بيرم الخامس، المصدر السابق، ج. ٤، ص. ١٢٧٢-١٢٧٣.

٣. قراءة في موقف بيرم الخامس تجاه الأمير ودولته:

عندما ذكر بيرم الخامس الأمير عبد القادر في صفوته، ركّز على نقطتين هامتين: نسبه الشريف «... الرجل الوحيد سلالة النسل المطهر الأمير سيدي عبد القادر بن محي الدين الحسني»، وتنظيمه للدولة «وقام لله حق قيام... واستقامت له حكومة ضرب فيها السكة باسمه، وأنشأ المدافع والبنادق، ونفذ أمره، وخشيته فرانساً (كذا)»^١.

فهل كان مدحه للأمير من باب الولاء التقليدي للأشراف؟ أم لأنه أقام الدولة على الأسس الشرعية المطلوب توفرها في الحكم الإسلامي؟ وهل يرمي من وراء هذه الإشادة إلى مغزى إصلاحي تعمّد تضمين كتابه به ليتمر من خلاله رسالة ما إلى حكام المسلمين ونخبهم؟

تشير بعض المصادر التي أرخت للأمير عبد القادر إلى نسبه الشريف الذي ينتهي عند الحسن حفيد النبي (صلى الله عليه وسلم)^٢؛ ولعائلة بيرم أيضا انتساب للأشراف^٣، والمعروف أن بيرم كان شديد التبجيل والتعظيم لآل النبي (صلى الله عليه وسلم)، حيث أُلّف في اسطنبول رسالة في بيان حقوق الأشراف على المسلمين «بشروط ثبوت النسب العليّ، حتى لا يدخل في هذه السلسلة السامية دخيل تترتب له تلك الحقوق الواجبة»^٤.

والجدير بالذكر أن الأمير عبد القادر كان أحد أتباع ومريدي الطريقة القادرية^٥، وكان والده (محي الدين) من المعتقدين بكرامات الولي الصالح "عبد القادر الجيلاني"، الذي زار قبره في بغداد رفقة ابنه عبد القادر أثناء رجوعهما من الحج سنة ١٨٢٦ م^٦. وبيرم أيضا ارتبط بعلاقات ودية مع أحد أقطاب هذه الطريقة، وهو سلمان القادري، حفيد الجيلاني ونقيب أشراف بغداد، وكان قد التقى به وتحدث إليه أثناء عودته من الحج سنة ١٨٧٧، وأخذ منه الإجازة في الطريقة القادرية، واستمرت الاتصالات والمراسلات بينهما بعد ذلك^٧.

١. نفس المصدر والصفحة.

٢. محمد السنوسي، الرحلة الحجازية، ٣ أجزاء، تحقيق علي الشنوفي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، بدون تاريخ، ج ٣، ص ١٧٩. ١. ف. دينزين، الأمير عبد القادر والعلاقات الفرنسية العربية في الجزائر، ترجمة: أبو العبد دودو، دار هوم- الجزائر، ٢٠٠٣، ص ٢٠ (يذكر المؤلف أن أسرة عبد القادر تفرعت عن خلفاء مصر من الفاطميين).

٣. اتصلت العائلة البيرمية من جهة الأم بالنسب الشريف الذي ينتهي إلى الحسين بن علي بن أبي طالب، فقد كانت أم محمد بيرم الأولى بنت محمد بن علي الشريف الهندي من آل الشريف، الذي تولى عدد منهم إمامة جامع الزيتونة. لطفنا انظر: بيرم الخامس، المصدر السابق، ج ١، ص ١١٢. وللمزيد عن نسب هذه الأسرة يمكن مراجعة: بيرم الثاني، التعريف بنسب الأسرة البيرمية، تقديم وتحقيق: ضو بسيسة، دار نقوش عربية، تونس، ٢٠١٠.

٤. بيرم الخامس، المصدر السابق، ج ١، ص ١٧١-١٧٢.

٥. تُنسب الطريقة القادرية إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني (١٠٩٧-١١٦٥م)، الذي يعتبر عند المتصوفين سلطان الأولياء وقطب الأقطاب، وله كرامات وخوارق تنسب إليه. والزواوية الأم لهذه الطريقة توجد في بغداد، ولها فروع في الجزائر. لطفنا انظر المزيد عن ذلك في: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ١٠ أجزاء، دار البصائر، الجزائر، ط ٦، ٢٠٠٤، ج ٤، صص ٤٢-٦٠.

٦. شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ترجمة أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، طبعة خاصة، ٢٠٠٩، ص ٦٩. يذكر المترجم أن جد عبد القادر لأبيه واسمه (مصطفى بن المختار)، هو الذي أسس قرية القيطنة لنشر الطريقة القادرية في الغرب الجزائري، حتى أصبح هو مقدمها بلا منازع.

٧. لطفنا انظر: بيرم الخامس، المصدر السابق، ج ٤، ص ١٥٩١. ورسالة سلمان القادري إلى بيرم في: نفس المصدر، ج ١، صص ١٦١-١٦٢.

وذكر محمد الهادي (ابن بيزم) أن والده «كان على عادة أهل تونس، وعلى ما امتاز به من التشيع الكليّ لآل البيت النبوي الكريم، يميل ميلا خاصا للسيد المشار إليه (سلمان) لنسبه العالي وحسبه الغالي وفضله المتلالي»^١. ولاشك أنّ ميله للأمير عبد القادر كان أيضا بسبب النسب والحسب والفضل، ويظهر هذا في إحدى رسائله للأمير: «... مولانا الشريف سيدي عبد القادر بن محي الدين الحسيني لازالت ذاته العالية قرة لأعين أهل الإيمان، وبركاته الشاملة حاملة للبلاد والأوطان... فالعبد شيعي ودكم على ما تعهدون من إخلاص الطوية، متقرب بحبكم والثناء عليكم إلى رب البرية»^٢.

ولعلّ تحامله على الحاج أحمد باي، وانتقاد إعراضه عن الانضواء تحت راية الأمير لمقاومة الاستعمار، مردّه إلى إيمان بيزم بأنّ عبد القادر، بفضل سلالته الشريفة ونسبه الطاهر، له الحق في الإمامة ويجب أن يدعن لطاعته جميع المسلمين. وغير مستبعد أن يكون بيزم الذي وصف أحمد باي بالتجبر والطغيان وخذلان الأمة، قد اعتبره منشقا عن جماعة المسلمين، لذلك لم يتأسّف للنهاية التي آلت إليها دولته من الوهن والضعف ثمّ السقوط في يد الفرنسيين.

أما حين يذكر استسلام الأمير عبد القادر، فهو لا يقوم بإظهار أسفه وحسرتة فحسب، بل يحتمل مسؤولية ذلك لسلطان المغرب (عبد الرحمان بن هشام)، الذي خذل الأمير واتحد مع الفرنسيين على محاربتة، واعتبر هذا الفعل من «الغلطات النفسانية المخالفة للديانة الإسلامية»^٣؛ وهذا الحكم يوافق فتوى الشيخ محمد عليش (مفتي المالكية بمصر)، الذي حرم على سلطان المغرب (وهو مسلم) التحالف مع العدو الكافر ضدّ إخوانه المسلمين^٤.

ويمكن القول، إنّ مشاعر بيزم تجاه سلطان المغرب كانت تماثل مشاعره تجاه الحاج أحمد باي: غضب وتهجم وانتقاد لاذع، حتى إنه لم يتأسّف لانتهزام دولة المغرب أمام فرنسا في موقعة "وادي ايسلي" الشهيرة سنة ١٨٤٤^٥.

لكن لا يمكن التسليم بأنّ العاطفة الدينية القويّة لدى بيزم تجاه "الأشراف"، هي فقط ما حدد موقفه من الأمير عبد القادر، فلعلّ وراء هذه الموالاتة والإعجاب والإشادة سببا أقوى وأعمق، قد يتعلق بنظام حكم الأمير، وطريقة سياسته لرعيته، وهو ما قد نجد له تفسيراً فيما سيأتي ذكره.

كان الأمير عبد القادر أبعد ما يكون عن الاستبداد، وأحرص ما يكون على تنفيذ الشريعة الإسلامية، ويظهر ذلك من خلال مباحثته من طرف المسلمين، واحتكامه لكتاب الله وسنة نبيه، حيث جاء على لسانه: «... ولقبول هذه المسؤولية اشترطنا على كل أولئك الذين منحونا السلطات العليا، أن عليهم دائماً واجب الخضوع في كل أعمالهم إلى نصوص وتعاليم كتاب الله، وإلى الحكم بالعدل في مختلف مناطقهم، طبقاً لسنة النبي صلى الله عليه وسلم»؛ وحرص على تطبيق نظام الشورى «فكان لا

^١ نفس المصدر، ج.١، ص. ١٦٢.

^٢ السنوسي، المصدر السابق، ج.٣، ص. ١٢٤.

^٣ بيزم الخامس، المصدر السابق، ج.٤، ص. ١٢٧٣.

^٤ لطفاً انظر: سؤال الأمير عبد القادر ونص الفتوى كاملة في محمد بن عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، جزآن، شرح وتعليق: ممدوح حقي، ط. ٠٢، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة، بيروت، لبنان، ١٣٨٤ هـ.

1964م، ج.١، ص. ٤٧٠ وما بعدها.

^٥ لطفاً انظر: التفاصيل في محمد بن عبد القادر الجزائري، نفس المصدر، صص. ٤٤٧ - ٤٥٠. أرجع بيزم سبب الخذلان (الهزيمة) إلى أمرين: أولاً افتقاد الجيش المغربي (رغم ضخامة عدده) لحسن التخطيط والتدريب الحربي، وثانياً: تعاون بعض القبائل الجزائرية مع الفرنسيين، حيث كانوا "أشد على المغاربة" من الفرنسيين أنفسهم (بيزم الخامس، المصدر السابق، ج.٤، ص. ١٢٧٤). غير أن هزيمة المغرب أمام فرنسا، كانت أيضاً هزيمة للأمير بطريقة غير مباشرة.

يفصل في القضايا الخطيرة كالصالح أو الحرب إلا بعقد مجلس الشورى، وعرض القضية أمامه، وأخذ رأيه، وتنفيذ ما يتفق عليه الحاضرون»^١.

وهاهو عندما يُعلن عن قيام الجمهورية في فرنسا سنة ١٨٤٤، يرسل تهنئة لقادتها يقول فيها إنه قرأ في الكتب أن النظام الجمهوري أكثر عدلا بين الناس، وأنه يقضي على أسباب الظلم ويمنع القوي من الاستبداد بالضعيف^٢؛ فهو بهذا يظهر اقتناعه بأن القانون النابع من الشعب والذي يوجّه لخدمة الشعب لا يمكن أن يعتربه الظلم أو يتسلّط فيه المستبدّ مثلما هو موجود في نظام الحكم المطلق.

والمتتبع لسيرة الأمير يلاحظ أن حياة "الجهاد" التي كانت تفرض عليه وضعا استثنائيا، لم تثنه أبدا عن الاهتمام ببناء أركان دولة عصرية تقوم على الجيش والإدارة والقضاء والصناعة والتعليم^٣. وإذا كان بيرم قد حصر الصناعة عند الأمير في ضرب السكة باسمه وصنع الأسلحة، فهذا لا يعني أنه لم يوجد غيرهما، ولكن قوله فيه إشارة لطيفة إلى مدى خطورة وأهمية هاتين الصناعتين، فكلاهما ترمز للسيادة وتبنيها وتحافظ عليهما.

ويبدو للملاحظ أن الأمير كان متفتحا على الحضارة الغربية، فرغم سلفيته الواضحة إلا أنه كان مجدّدا ميّالا للإصلاح والتحديث على الطراز الأوروبي، ولم يعارض توظيف أجانب ومتهم فرنسيين، في مصانعه الحربية. لقد سمح «لروح الحضارة الأوروبية أن تتسرب في كلّ مكان»^٤، لأنه أدرك أن ذلك أخذ بالأسباب للتغلب على عدوه؛ لكنه مع ذلك حافظ على روح الإسلام في الحكم والقضاء والتعليم والمعاملات والعلاقات.. لقد كانت الحضارة الغربية تعني له وسيلة فقط لتحرير بلده وشعبه من المحتل الأجنبي ومن التخلف أيضا، أما تبني التغريب والانسلاخ عن الإسلام فلم تكن واردة تماما، لا في فكر الأمير ولا في سياسته لدولته.

لذلك يمكن القول إنّ دولة الأمير عبد القادر بهذا المزج الإيجابي بين مادية الحضارة الغربية وروح الحضارة الشرقية، هي النموذج المثالي الذي كان بيرم يحلم بوجوده على أرض الواقع. ويبدو أن بيرم كان مولعا بالأبعاد المستقبلية لمقاومة الأمير، فهي على ما صحبها من إصلاح جذري في سياسة الدولة وتنظيم المجتمع وتعبئة قوى الشعب لمقاومة الاحتلال، لم تكن تهدف إلى استرجاع السيادة فحسب، بل كان الأمير يخطط من ورائها لبعث كيان وطني ومتماسك أمام كل التحديات، ويسعى لهزيمة شاملة تخلص شعبه من التخلف، مثلما كان يقاوم لتحرير أرضه من الاستعمار؛ وهذه ميزة لم تتوفر في مقاومة غيرها، لذلك كانت نقمة بيرم شديدة على أحمد باي وسلطان المغرب، لأنهما في (نظره) حالا دون نجاح مسعى الأمير، الذي لم تهزمه قوة عدو بل هزمته "خيانة صديق"

ومما يستثير التأمل في ملاحظات بيرم الخامس قوله إنّ الأمير «..أقام حكومة وطنية ضرب فيها السكة باسمه، وأنشأ المدافع والبنادق فنفذ أمره وخشيته فرانساً»^٥، فلم يسمّها حكومة دينية رغم أن الإسلام هو روحها، ولم يسمّها حكومة عربية رغم

^١ تشرشل، المصدر السابق، صص. ٦-٨ (مقدمة المترجم).

^٢ نفس المصدر، ص. ٣٢٥.

^٣ نفس المصدر، ص. ١٨٤.

^٤ نفس المصدر، ص. ١٨٥. كتب سعد الله بختا طريفا حول إشكالية هل كان الأمير عبد القادر محافظا أم حدثيا؟ لطفنا انظر : أبو القاسم سعد الله،

حصاد الخريف، عالم المعرفة، الجزائر، ٢٠١١، صص. ٩٥-١٠٦.

^٥ بيرم الخامس، المصدر السابق، ج. ٤، ص. ١٢٧٢.

أن العربية كانت هويتها، بل هي حكومة وطنية أراد بها الأمير «بعث الروح المعادية للسلطة الأجنبية التي احتلت البلاد... فقد تجاوز خطابه بني فلان وبني فلان، إلى الشعب والمواطنين حيثما كانوا ومهما كان انتماءهم القبلي أو الصوفي أو الجهوي»¹؛ لقد استعمل خطاب الوطنية الجامع ليقوي الوعي بالانتماء للأرض، ويحرر نفوس أتباعه من الأناية والأثرة والعصبية المقيتة لصالح الوحدة ورض الصفوف لمواجهة العدو المشترك.

وكانت النتيجة - حسب بيرم- مثمرة: «فنفذ أمره وخشيته فرنسا»، نفذ أمره مع قومه فأطاعوه وعضدوه وحاربوا تحت إمرته، وضحووا بكل شيء في سبيل دعمه، حتى تمكن من فرض سلطانه على ثلثي أرض الجزائر، ومنع تقدّم المحتلّ وحى شعبه من الجور والاستبداد.. "وخشيته فرنسا" لأنها لم تعد ترى فيه العسكري المحارب بالسيف فقط، بل صار في نظرها صاحب مشروع نهضوي قومي، سرعان ما سيقضي على أحلامها في فرنسا هذه القطعة من الأرض وضّمها إلى حضيرة ممتلكاتها

لكن ماذا عن الأمير بعد توقيفه الحرب مع فرنسا؟

لقد توقفت مقاومة الأمير عبد القادر سنة ١٨٤٤، وتم نفيه من البلاد ونشئت دولته من بعده، ولم يعد هناك أمل لعودته إلى أرض المعركة بعدما قطع لفرنسا وعدا أن لا يرفع السيف عليها...

لكن هل انتهى تأثير تجربته وأفكاره هنا؟

لم يتحدث بيرم الخامس في صفوته ولا في آثاره الأخرى عن الأمير عبد القادر ونشاطاته خارج الجزائر، وبالتحديد في بلاد الشام التي استقر بها الأمير منذ خمسينات القرن التاسع عشر إلى وفاته سنة ١٨٨٨؛ لكن بيرم أشار إلى رغبته بمقابلة الأمير في دمشق، وسعى إلى ذلك حين مرّ ببلاد الشام في أواخر سنة ١٨٨٧ عائدا من الحجّ (بلاد الحجاز) إلى اسطنبول، لكن كثافة الثلوج في الطرق حال دون بلوغ مقصده²، ولم يقابل الأمير شخصيا، أو هكذا يبدو، كما لم يبدِ سبب رغبته بمقابلة الأمير³.

لكن الثابت أنه كانت بينهما مراسلات شخصية، وكانا على اتصال بخصوص الجامعة الإسلامية وجمعية العروة الوثقى⁴، بدليل وصية بيرم للأمير عن محمد السنوسي⁵، حيث ذكر هذا الأخير أنه زار الأمير عبد القادر في دمشق سنة ١٨٨٨ بتوصية من بيرم الخامس، ورغم أنه لم يذكر سبب الزيارة ولا فحوى التوصية، إلا أنه بدا من خلال الإكرام الذي لاقاه على يد الأمير وأبنائه، والأسئلة التي طرحها عليه الأمير، أنه كان بينهما أمرا خاصا وسريا⁶. ويذكر الملاحظون أن السنوسي التحق بالعروة

¹. تشرشل، المصدر السابق، ص. ٩. (مقدمة المترجم).

². بيرم الخامس، المصدر السابق، ج. ١، ص. ١٥٨.

³. معروف عن بيرم الخامس أنه كان يتحفظ كثيرا في ذكر أسباب مقابلاته للشخصيات التي يزورها، سواء كانوا من العرب أو الأجنبي، مما يجعل الباب دائما مفتوحا للتخمين والافتراضات حول علاقاته وأسراه مع هذه الشخصيات.

⁴. العروة الوثقى: جمعية سياسية سرية أسسها الشيخ جمال الدين الأفغاني بالتنسيق مع تلميذه محمد عبده في مدينة كلكتا بالهند سنة ١٨٨٢، وكان لها مجلة ناطقة باسمها تصدر في باريس اسمها "العروة الوثقى". لطفًا انظر: ألبرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨ - ١٩٣٩، ترجمة كريم عزقول، دار النهار، بيروت، بدون تاريخ.

⁵. محمد بن عثمان السنوسي، ولد بمحاضرة تونس سنة ١٨٥١، وتوفي سنة ١٩٠٠. كان أحد تلامذة بيرم الخامس وساعده الأمين في إدارة جمعية الأوقاف والإشراف على جريدة الرائد التونسي. لطفًا انظر: محمد الفاضل بن عاشور، "الشيخ محمد السنوسي"، في المجلة الزيتونية، مجلد ٩، ج. ٣، ص. ١٤٧.

⁶. لطفًا انظر تفاصيل هذه الزيارة في: السنوسي، المصدر السابق، ج. ٣، صص. ٢١٤ - ٢١٨.

الوثقى عن طريق وساطة بيرم الخامس والأمير عبد القادر، وبعد عودته من رحلته أنشأ الخلية التونسية التي بدأت تنشط ضد الاستعمار الفرنسي¹.

لكن لا يوجد بين أيدينا ما يثبت انضمام بيرم الخامس أو الأمير عبد القادر لجمعية العروة الوثقى، ولا يعرف هل كان للأمير نشاطات في هذه الجمعية أم لا، لكن هناك أخبار شائعة عن صلة الأمير عبد القادر بمشروع إقامة كيان عربي في قلب الدولة العثمانية، وهو المشروع الذي سعت إليه فرنسا تحت تسمية المملكة العربية، ويبدو أن الأمير كان متفطنا لأهداف فرنسا من وراء ذلك فتورع عن قبول المشروع².

غير أن فكرة إنشاء إمارة عربية مستقلة، سعت إليها بوجه آخر أطراف أخرى، فبعد هزيمة الدولة العثمانية أمام روسيا في حرب ١٨٧٤، ظهر مشروع "حركة استقلالية" عربية من داخل الشام، وكان الدعاة إليه نخبة من العرب الناقمين على الاستبداد وتقييد الحريات الأساسية في ظلّ الحكم العثماني. وتم الإجماع على ترشيح الأمير عبد القادر لقيادة هذه الإمارة، ولخصّ أحدهم أسباب هذا الاختيار في توفر عدة شروط في الأمير وهي: شرف النسب والبطولة والجهاد السياسي والقومي، وكونه رجل علم وأخلاق، وسبق له تأسيس دولة عربية في الجزائر³.

ويبدو من أدبيات أحد رجال هذه الحركة أن الأمير عبد القادر كان متحمسا للفكرة، لكنه اشترط "البيعة له من كل الأطراف والإبقاء على الخلافة العثمانية"، وبناء عليه زار عدة مدن في بلاد الشام ليتفقد أنصاره ويرى "إمكانية تجييش جيش منهم عند الضرورة"⁴.

ومهما تكن النتيجة التي آلت إليها هذه الحركة من إفشالها في المهدي، وصعوبة تطبيقها عمليا في ظلّ ظروف دولية ومحلية قاهرة، فإنها أظهرت المكانة التي تبوأها الأمير عبد القادر على الصعيد العربي، ليس كشخص أو زعيم أو قيادي لامع فحسب، بل أيضا كنموذج مثالي للحاكم المسلم الإيجابي في تديّنه وفكره وخلقه وسياسته ومعاملاته وعلاقاته، سواء مع رعيته أو أصدقائه أو مخالفيه أو أعدائه.

خاتمة:

لعلّه لم يكن للأمير عبد القادر الحظّ في إصدار تنظيمات أو قانون خاص بدولته الناشئة، كالذي ظهر لاحقا في تونس أو في تركيا، كما لا يُعرف عنه أنّه صرّح ببرنامجه معيّن لتطوير المجتمع الجزائري وإدخاله إلى عصر التنوير والتحديث كما قد يبدو من مشاريعه الحداثيّة، ذلك أن حالة الحرب مع فرنسا منعتة من الإقدام على إصلاح جديّ له أسس وقواعد مسطّرة سلفًا. غير أن تجربته السياسية في الحكم، واعتماده على مؤسسات قائمة على الديمقراطية والمساواة والعدالة الاجتماعية، وقيادته لمقاومة محكمة التنظيم ضدّ المحتلّ الفرنسي في الجزائر، ثمّ حضوره كشخصية فاعلة على الساحة السياسية والعلمية والفكرية ببلاد الشام.. كل ذلك وغيره، يجعل منه مثالا للحاكم العادل والسياسي المصلح والمفكر المجدّد، ليس على مستوى الجزائر فحسب، بل على مستوى العالم الإسلامي والإنساني جميعه.

¹ . لطفًا انظر: بن عاشور، "الشيخ محمد السنوسي"، في المرجع السابق.

² . لطفًا انظر: أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية ١٨٦٠ - ١٩٠٠، ٣ أجزاء، دار البصائر، الجزائر، ٢٠٠٧، ج. ١، ص. ١٨.

³ . أبو القاسم سعد الله، بحوث في التاريخ العربي الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، ٢٠٠٣، صص. ١٢٨.

⁴ . نفس المرجع، ص. ١٣٠.

إن تجربة الأمير عبد القادر في الحكم والقيادة والتحديث والتربية وبثّ الوعي الجمعي، تعكس بلا شك صورة الحاكم الذي يتبنى الإصلاح ويطبّقه من فوق، أي من سلطة عادلة تسعى للنهضة والتطوير وليس للسيطرة والاستنزاف واستعباد الناس، ولسان حاله يقول لكلّ حاكم مستبدّ: ليس بالضرورة أن تكون مستبدا لتمسك بزمام دولتك أو شعبك، بل يكفي أن تكون عادلا ورحيما وأميناً وقويّاً في الحقّ ليثق بك شعبك ويتبعك ويضحي بكل شيء من أجل أن يدعمك.

تلك هي المعاني التي نحسب أن بيرم الخامس، رجل العلم والدين التونسي، قد فكّر فيها أو لمح إليها عندما تعرّض لذكر الأمير عبد القادر في صفوته، فبيرم ذو الاتجاه الإصلاحية الإسلامي وصاحب الفكر التقليدي والتجديدي معا، له منهج طريف في التقريظ والانتقاد، فقد اجتهد في مدح أفكار وإنجازات الصلحاء من الحكّام والقادة والنخب في عصره، كما حرص على كشف مثالب المستبدين والفاستدين والمستعمرين، وكان غرضه من ذلك تنبيه المسلمين إلى مكنم دأئهم وحثهم على السعي لتداركه بالعلاج، وهو عين ما نحتاج إليه في زماننا.

قائمة المراجع:

١. بن أبي الضياف (أحمد)، إتحاف أهل الزمان بملوك تونس وعهد الأمان، ٩ أجزاء، تحقيق لجنة من وزارة الشؤون الثقافية، ط. ٢، الدار العربية للكتاب، تونس، ٢٠٠٤.
٢. بن عبد القادر الجزائري (محمد)، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، جزآن، شرح وتعليق: ممدوح حقي، ط. ٢، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة، بيروت، لبنان، ١٣٨٤هـ/1964م.
٣. بيرم الخامس (محمد)، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، ٦ أجزاء، تحقيق مجموعة من الباحثين، بيت الحكمة، قرطاج-تونس، ١٩٩٩.
٤. تشرشل (شارل هنري)، حياة الأمير عبد القادر، ترجمة أبو القاسم سعد الله، طبعة خاصة، دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٩.
٥. دينيزن (إ. ف.)، الأمير عبد القادر والعلاقات الفرنسية العربية في الجزائر، ترجمة أبو العيد دودو، دار هومة-الجزائر، ٢٠٠٣.
٦. السنوسي (محمد)، الرحلة الحجازية، ٣ أجزاء، تحقيق عليّ الشنوفي، الشركة التونسية للتوزيع-تونس، بدون تاريخ.
٧. بن دحمان (حفيظة)، رأي محمد بيرم الخامس في الاحتلال الفرنسي للجزائر من خلال كتابه 'صفوة الاعتبار' بمستودع الأمصار والأقطار، منشورات الرياحين، الجزائر، ٢٠١٣.
٨. بن عاشور (محمد الفاضل)، "الشيخ محمد السنوسي"، في المجلة الزيتونية، مجلد ٩، ج. ٣.
٩. سعد الله (أبو القاسم)، تاريخ الجزائر الثقافي، ١٠ أجزاء، ط. ٦، دار البصائر، الجزائر، ٢٠٠٤.
١٠. سعد الله (أبو القاسم)، تاريخ الحركة الوطنية ١٨٦٠-١٩٠٠، ٣ أجزاء، دار البصائر، الجزائر، ٢٠٠٧.
١١. سعد الله (أبو القاسم)، بحوث في التاريخ العربي الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، ٢٠٠٣.

المجتمع الجزائري خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي -قراءة إثنوغرافية في المقامات العلوانية-

أ.د محمد زيوش/جامعة حسيبة بن بوعلي، الشلف، الجزائر

ملخص:

إذا كانت الإثنوغرافيا هي الدراسة الوصفية لأسلوب الحياة عند الشعوب، والثقافات التي يمثلونها، فإن الاستعمار الفرنسي في الجزائر ممثلا بعسكره قام بهذه الدراسات لخدمة أهدافه الاستعمارية، ولكن ظلت تلك الدراسات تركز على الطابع الوصفي الخارجي، وكثيرا ما شابها الكذب والزيغ بغرض تشويه سمعة الجزائريين وإظهار الاستعمار بمظهر المنقذ الحضاري، للشعوب البدائية، وإذا كان النص الأدبي قد عدّ منذ الشكلايين الروس وثيقة من الدرجة الثانية بالنسبة للعلوم الأخرى، ومنه الإثنوغرافيا، فإنّ نقص توثيق الأنا لذاتها إثنوغرافيا، وفي ظلّ تخمة توثيقية فرنسية يجعل من النصّ الأدبي المبدع وقتها وثيقة، والمقامات العلوانية جزء من هذه الوثائق التي يمكن اعتمادها لمعرفة طبيعة المجتمع الجزائري في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ذلك أنّ البطيوي سعى من خلالها إلى تصوير حال المجتمع الجزائري من الداخل وليس من الخارج كما فعل الفرنسيون.

وبناء على ما سبق سيركز هذا المقال على مختلف مظاهر الحياة آنذاك مجسّدة من خلال شخصيات هذه المقامات.

الكلمات المفتاحية: الإثنوغرافيا - المجتمع الجزائري- المقامات العلوانية- النصّ الوثيقة.

الإثنوغرافيا مصطلح معرّب ونعني به الدراسة الوصفية لأسلوب الحياة ومجموعة التقاليد والعادات والقيم والأدوات والفنون، لدى جماعة معينة أو مجتمع¹، خلال فترة زمنية محدّدة، وعليه يمكن تحديد الإثنوغرافيا بأنّها دراسة الشعوب والثقافات التي يمثلونها، فهي عبارة عن دراسة تلخص جوهر الفرد، وهذا يمكننا من كشف الغموض الكامن وراء طائفة معينة، و يساعدنا على فهم ما يجعل الثقافات والمجتمعات فريدة من نوعها باعتبارها كيانات منفصلة، وفي تراثنا العربي نصوص كثيرة كانت موضوعاتها إثنوغرافية على الرغم من انتمائها الأجناسي إلى أجناس أدبية مختلفة، فلقد حفلت تلك النصوص بوصف طبائع البلدان، وخصال أهلها، وأسلوب حياتهم، ولقد وضّح أبو عبد الله القهسبي في مقدمة كتابه (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) مقاصد هذا العلم الجديد الذي يودّ أن يضع فيه كتابا: "أما بعد: فإنه ما زالت العلماء ترغب في تصنيف الكتب لئلا تدرس آثارهم، ولا تنقطع أخبارهم، فأحببت أن أتبع سنتهم، وأقفو سنتهم، وأقيم علما أحيي به ذكري ونفعوا للخلق أرضي به ربي، ووجدت العلماء قد سبقوا إلى العلوم فصنّفوا على الابتداء ثم تبعتهم الإخلاف فشرحوا كلامهم واختصروه، فرأيت أن أقصد علما قد أغفلوه، وأنفرد بفن لم يذكره، إلا على الإخلال وهو ذكر الأقاليم الإسلامية

¹ حسين محمد فهميم، أدب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة، العدد 138، 1989، وزارة الثقافة (الكويت)، ص: 43.

وما فيها من المفاوز والبحار، والبحيرات والأنهار، ووصف أمصارها المشهورة، ومدنها المذكورة، ومنازلها المسلوكة، وطرقها المستعملة، وعناصر العقاقير والآلات، ومعادن الحمل والتجارات واختلاف أهل البلدان في كلامهم وأصواتهم وألسنتهم وألوانهم، ومذاهبهم ومكاييلهم وأوزانهم، ونقودهم ومصروفهم، وصفة طعامهم وشرابهم وثمارهم ومياههم، ومعرفة مفاخرهم وعبوبهم، وما يحمل من عندهم وإلهم، وذكر مواضع الأخطار في المنارات، وعدد المنازل في المسافات، وذكر السباخ والصلاب والرمال والتلال والسهول والجبال، والحوابر والسماق والسمن منها والرقاق، ومعادن السعة والخصب، ومواضع الضيق والجدب، وذكر المشاهد والمراصد والخصائص والرسوم، والممالك والحدود، والمصادر والجروم، والمخالف والزمزم، والطساسيج والتخوم، والصنائع والعلوم، والمباخس والمشاجر والمناسك والمشاعر، وعلمت أنه باب لا بد منه للمسافرين والتجار، ولاغنى عنه للصالحين والأخيار، إذا هو علم ترغب فيه الملوك والكبراء، وتطلبه القضاة والفقهاء، وتحبه العامة والرؤساء، وينتفع به كل مسافر، ويحظى به كل تاجر"¹

إنّ نصّ المقدسي يوضّح بإسهاب الموضوعات والوسائل التي تعنى بوصف الأقاليم وطبائع البشر، وطرائق حياتهم، وهي نفس الأمور التي يصفها الإثنوغرافي، وإذا كان المقدسي أحد أوائل العلماء الذين شعروا بالحاجة إلى هذا العلم ووضع النصوص فيه لتوثيق التاريخ الثقافي والاجتماعي للبشرية، فإنّ الأدب العربي لا يخلو من نصوص كثيرة حوتها أجناس أدبية شعرية ونثرية وثقت لطبائع المجتمع العربي.

أما الإثنوغرافيا كعلم مستقل فقد ظهر في القرن التاسع عشر مع بدايات الحملات الاستعمارية، وانصب اهتمامها على الشعوب البدائية، حيث كانت محصورة في مناطق معيّنة تعيش خارج التاريخ على حدّ زعمهم في كتاباتهم، إنّ العمل الإثنوغرافي الذي مثله الأوروبيون ممثلون بالمستشرقين، علماء الجغرافيا، المشتغلين بالحفريات... كان ينطلق من نظرة استعلائية متسلطة منطلقة من فكرة العرفان والسلطان، فمعرفة الآخر توفر قدرة للسيطرة عليه، وبهذا مهدت الأنثروبولوجيا الأوروبية للاستعمار، حيث عمل العالم والتاجر والجندي ورجل الدين جنبا إلى جنب على تحقيق ذلك. فالأنثروبولوجي الأوروبي ينظر إلى تلك الشعوب من الخارج ولا ينظر إليها من الداخل بروح استعلائية، فيوهمها بأنها ميتة جامدة ولا يظهر لها الحقيقة فتبقى متفوقة على ذاتها.

أما في الجزائر فلقد ظهر الأدب الإثنوغرافي بشكل قويّ مع بدايات الاستعمار الفرنسي، حيث احتاجت فرنسا إلى مؤلفات تكشف طبيعة الجزائريّ من كلّ النواحي الثقافية والاجتماعية والدينية... فأرسلت جواسيسها لتدوين وتسجيل طبيعة الجزائري ونقاط ضعفه حتى يسهل لها التدخل، وبعد الاحتلال والمقاومات الشعبية التي شهدتها مختلف ربوع الوطن، قام بعض العسكريين المتقاعدین بكتابة ذكرياتهم عن الحملة على الجزائر، حيث وصفوا المناطق، واللهجات، والعادات، والتقاليد، والقبائل.. فنشطت الإثنوغرافيا واتجه المستعمر إلى إدخال الجزائريين "متحف التاريخ قبل أن تموت هذه الأجناس، فقدم صورة منحطة لشعب بدائي فكتب تاريخ الغالب على حساب المغلوب، وظهر القتل الرمزي للجزائر، أي إفراغ الجزائر من الحياة، من الديناميكية وإخراجها من التاريخ."² وفي نهاية القرن التاسع عشر أنتقل البحث الإثنوغرافي إلى المدنيين من أساتذة الجامعة والباحثين الذين يشكّلون الجيل الثاني للاستعمار، فكان اهتمام هؤلاء منحصرًا في تسجيل المظاهر الخارجية للجزائريين، فاكتفوا بوصف اللباس الجزائري، والمسكن، ووسائل النقد، وعادات الزواج... دون أن

¹ المقدسي المعروف بالبشاري، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة بريل، ليدن (هولندا)، ط ٢، ١٩٠٦، المقدمة ص ١-٢.

² محمد بوطوقة، الأدب الإثنوغرافي في الجزائر المستعمرة، موقع أرنتوبوس.

يتعمّقوا في وصف الثقافة الداخلية للمجتمع الجزائريّ، ولا في الاطلاع على عقلية الإنسان الجزائريّ، ولا على روحه الدينية التي تدفع به دفعا إلى المقاومة والاستشهاد في سبيل دينه ووطنه، والملاحظ حول هذه الدراسات هو تركيزها على منطقة القبائل. ولما بدأ هذ العلم يُدرس في الجامعات ظهر ما يعرف بالأدب الإثنوغرافي على يد الأدباء الفرنسيين الذين وفدوا إلى الجزائر، فكانت موضوعاته تدور حول الجزائر وطبائع السكان فيها، أما عن الجزائريين فإنّ اهتمامهم بالأدب الإثنوغرافي كان نتيجة التلقين الإثنوغرافي السلبي الذين تلقوه من المدارس الفرنسية في مختلف مراحل التعليم عن صورة الجزائر السلبية ثقافيا واجتماعيا واقتصاديا... من الأدباء الجزائريين الذين فعل هذا التلقين فعله فيهم، فأصبح من المنتجين للأيديولوجيا الاستعمارية محمد ولد الشيخ الذي له رواية بعنوان مريم بين النخيل، والتي كتبها سنة ١٩٣٣، وهي رواية نمطية جاهزة تكرّس الفكر الإثنوغرافي الاستعماري، وكذا ملود فرعون في رواية ابن الفقير التي سعى من خلالها تصوير منطقة القبائل معزولة عن الزمان والمكان، مركزا حديثه عن المظاهر الاجتماعية والثقافية، من وصف للزوايا، والعادات، والألبسة التقليدية، علما أنّ مولود فرعون لا يشير فيها إلى الفكر المقاوم ولا إلى الاستعمار مباشرة، وما يمكن قوله هو أنّ هذا الأدب المكتوب باللغة الفرنسية في أغلبه سعى إلى إظهار المجتمع الجزائري معزولا عن محيطه العربي الإسلامي في شكل صورة نمطية بدائية مدام موجها إلى المتخيّل الفرنسي الذي سعى بدوره إلى تشجيع ونشر كلّ الكتابات التي تظهر صورة نمطية للجزائري معزولا عن أصوله العربية الإسلامية.

وفي ما يخصّ النصوص العربية فإنّ التاريخ حفظ لنا نصوصا تؤثّق لهذه المرحلة توثيقا إثنوغرافيا وإن كُتبا في هذا المقام سنقف على جنس أدبي واحد هو المقامة، وعند شخصية يكاد النقاد يجهلونها وهو محمد بن علي بن الطاهر الجبّاري البطّوي^١ صاحب المقامات العلوانية التي نشرت أول مرة سنة ١٩١١ في المجلة الآسيوية (le journal asiatique) وكذا في سنة ١٩١٤ على التوالي، علما أنّ محمد إدريس ولد مع بداية الاحتلال وتوفي قبل بداية الحرب العالمية الأولى^٢، وفي هذا لا نجزم انها تقدم الحقيقة بل نقتفي أثر الشكلايين الروس الذين اعتبروا الأدب نصا من الدرجة الثانية بالنسبة للعلوم الأخرى بحكم ميثاقه التخيلي، وذلك أثناء بحثهم عن أدبية الأدب، وفي هذا الصدد قال جاكوبسون (R. JAKOBSON) سنة ١٩٢٢ في مقال بعنوان (الشعر الروسي المعاصر) محاولا من خلاله تحديد موضوع العلم الجديد الذي هو الأدبية وإعطائها تعريفها النهائي، يقول: "موضوع العلم الأدبي ليس هو الأدب و إنما الأدبية أي ما يجعل من عمل معطى عملا أدبيا، ومع ذلك لحد الآن يشبه مؤرخو الأدب البوليس الذي عوض أن يلقي القبض على شخص ما فإنه يجمع بالصدفة كل ما يوجد في الغرفة وكذا الناس الذين يمشون في الشارع، وهكذا يستعمل مؤرخو الأدب كل شيء الحياة الشخصية - علم النفس - السياسة - الفلسفة... بدل الأدب يستعملون مجموعة من الأبحاث التقليدية كأنهم ينسون بأن هذه الأدوات ترجع إلى علوم مناظرة - تاريخ الفلسفة - تاريخ الثقافة - علم النفس... وأنّ هذه العلوم الأخيرة يمكن أن تستعمل الآثار الأدبية مثل وثائق ناقصة ومن الدرجة الثانية".^٣ أو كما قال بوريس إيخنباوم (B. EIKHENBAUM): "إن الشكلايين في اعتراضهم على المناهج الأخرى أنكروا

^١ محمد بن علي بن الطاهر الجبّاري البطّوي، ولد بمدينة بطّوية، قرب وهران، في اوائل سنين الاحتلال الفرنسي للجزائر، وهو ينتمي إلى الجبّارة، فخذ من قبيلة ذوي ثابت، التي قطنت نواحي سعيدة، بعد دراسته الخُرط في سلك رجال القضاء، فعين وعلى التوالي قاضيا في كلّ من سعيدة ثم معسكر، وبعدها في زهانة التي تقرب من وهران، وبعدها في القليعة التي تقرب من الجزائر العاصمة، وتوفي قبيل الحرب العالمية الأولى.

^٢ ينظر: محمد إدريس: المقامات العلوانية، مركز البحث في الأنثروبولوجية الاجتماعية والثقافية، مطبعة (أ ج بي) وهران، ٢٠٠٧. المقدمة.

^٣ - عمر أوكان : لذة النص أو مغامرة الكتابة لدى بارث .د.ط: إفريقيا الشرق (الدار البيضاء .ط١١٩٩١)ص(٧٦).

- Théorie de la littérature (texte des formalistes russes).réunis présenté et traduits par Tzvetan Totorov . Seuil (1965).B.Eikhenbaum (La théorie de la méthode formelle)p(37-38).

ولايزالون ينكرون ليس تلك المناهج في ذاتها وإنما الخلط اللامسؤول فيها بين علوم مختلفة وقضايا علمية مختلفة، لقد اعتبرنا ولا نزال نعتبر أن موضوع العلم الأدبي يجب أن يكون دراسة الخصائص النوعية (particularités spécifiques) للموضوعات الأدبية التي تميزها عن كل مادة أخرى وهذا باستقلال تام عن كون هذه المادة تستطيع بواسطة بعض ملامحها الثانوية أن تعطي مبررا لاستعمالها في علوم أخرى كموضوع مساعد¹.

لقد حاول محمد إدريس في مقدمة هذه المقامات إبراز الأسباب التي دفعته إلى كتابتها يقول: "...تذكّرت ما سمعت عن بعض الثقة والأمان، مما قيل فيما غير من الزمان، أنّ رياسة الرجال الصناديد، من بلاد الشّرق لما وصلوا لهذه الأوطان، وأمروا بفتح تلك المدن، بتحزيب أصحاب هذه البلدان، بعد معاركهم ومحاربتهم إيّاهم، أن يدخلوا في الاسلام طوعا، ومحبة لاعلامهم، فلمّا عرفوا لذة لغتنا وفوايدها استعموها، ومع أن كانوا يبعدونها من قواعدها وعن صافي أصلها واستأصلوها، فقد حصل لها بسبب إدخالها بعض الألفاظ الملحونة، من لغاتهم المختلفة المثبونة، مثل الشلحة والتمزيغية، والتوارقية والوارقيلية، اختلاف عجيب واتساع، ليس له بمزيد الاشفاع، فبإضافة لغتهم إلى لغتنا لم يتركوا ساير ألفاظ اللسان المضبط، حتى صاروا العلماء لا يفهمون لها نمط مرتبط، لا سيما ناس الشّرق الذين لم يسلكوا هذا، ولم يخالطوا المستعربة من أوطاننا، لأنهم لا يعثرون على هذه الألفاظ في ساير كتوبهم العظام، ولا يخفى أنه في بلاد الغرب كثير من فصحاء الكلام، منهم المؤرّخون والمدّاحون والراويون، والشيوخ أرباب التّلعين والقوّالون، وإنهم الآن ليست لهم شهرة عند العامة، ولا عند ناس الشّرق ولا المجانبية، فلمّا رأيت خبو هذا المنهاج، وعجز وميّن صاحب العلاج، تضجّرت ورمجرت، وتأمّلت وتنمّرت، ثم إنني اتبعت الفكرة الهامدة، وامتحننت القريحة الهانية، وعزمت لاتيها مراما، اثنتا عشرة مقامة، أتلو فيها جملة من الالفاظ المستعملة، في ناحية القبلة، والظّهرة، وفي نجوع التّل والصّحراء، عند ناس الديار، وأهل الخيام، والبدائي والمدن والقرى والمقام، وللمشايع ولطلباهم، وأهل الصنایع وفلايجهم، وعلى سايل وحاكم وأحاجي مغربيّة وأنظام، ومواعظ وأهبة، ووقايح منجلية، مما امليت جميعه على لسان ابن عيسى لعوالي، وأسندت روايته إلى امحمد بن العربي..."² وإنّ السبب الرئيس لكاتبة هذه المقامات هو توظيف اللغة الجزائرية المجهولة عند المشارق، فإنّ حديثه لا يخلو من التنبيه إلى تسجيل ما في أقاليم الجزائر وبخاصة حياة الطلبة وبخاصة أنّه عاشهم.

إنّ المطلّع على المقامات العلوانية سيلاحظ منذ الوهلة الأولى أنّها تحفل بالثثير من التسجيلات الإثنوغرافية للمجتمع الجزائري، فهو مثلا في نصّ من المقامة الكرموسية يصوّر حال الجزائريين من خلال تصوير حال نعل أحد الجزائريين، كما ينقل لنا تركيبة مجتمع السوق، يقول: "أخبرني امحمد بن العربي قال كنت في يوم ذهبت لأشاهد سوق المدينة، وأقضي مأرب الخيمة، وأزاول الغيبنة، وكانت لي بلغة طلاعها مفتوق، وانقابها مخروق، فقصدت وقتئذ ذميا رگابا، بخفته صوابا، وهو يمهر ويعقعق، في نعله على حجرة يتسرق، فبينما أتكلّم مع الدّمّي ليدور بالبلغة ويجدّد طلعبها، ويرقع طرفها ونعلها، إذ رأيت شيخنا ابن عيسى طالعا مع الواد، مهدونا في مشية كأنه من أهل الرغاد، فلقيته ماشيا بالحفى..."³ وفي نصّ آخر من المقامة الصحراوية يصوّر لنا طبائع الصحراويين أهل الكرم والأمان، من خلال تصوير حاله النفسية قبل التّطلع إلى أهلها

¹ نظرية المنهج الشكلي (نصوص الشكلايين الروس) ترجمة إبراهيم الخطيب .د.ط: الشركة المغربية للنشرين المتحددين . بوريس إيجنبوم : نظرية المنهج الشكلي .ص(٣٥) و بالفرنسية المرجع السابق ص(٣٧) .

² المقامات العلوانية، ص: ١٥ .

³ المصدر السابق، ص: ٢١ .

وبعده يقول: "...ودخلت لبلاد المشريّة، فانخزنت فيها كما ينخزن المخوّف، ولبدت كما يلبد المسوّف، فلمّا تطالعت عن أهلها، وتعرّفت بسكّانها، تهمدت روعتي، وسكنت مهجتي..."¹

أما في ما يخص العمران فهو يوثق لنا المعالم الحضارية التي كانت موجودة في زمنه ومنها مثلا السكة الحديدية التي كانت موجودة بين مدينة تليلات وسيدي أبي العباس، يقول " ...على طريق الحديد الزاهية من تليلات إلى أبي العباس..."²، وفي ما يخص العادات الدخيلة على البيوت الجزائرية المسلمة تقديم الخمر في البيوت والمقامات، فهو في المقامة الزهوانية يقدّم لنا مشهدا دخيلا عن المجتمع الجزائري حيث تقوم امرأة بتقديم زجاجات الخمر لضيوفها ترحيبا بهم، يقول: "...فما لبثنا إذ وصلنا بيتنا خفية المكان، حسينة المنزل والبنيان، فتقدّم ابن عيسى وفتح باب المقام، وقال ادخلوها بسلام، فلمّا دخلنا البيت وجدنا على البساط امرأة، قد فرغت في قالب الجمال كأنها قمره. وبين يديها مايدة عليها مشموم وشمعة، وعدة من قروع الخمر ملتمة، وهي تلاعب العود، وتتلاها بالنشود..."³ إنّها صورة لغانية وسط مقام به جمع من الناس يحتسون الخمر وهي صورة غير معهودة للمجتمع الجزائري الذي يقدّس المقامات، ومن المشهد الدخيل على المجتمع الجزائري الذي يظهر بداية تفسخ مجتمع المدن في الجزائر ينقلنا محمد إدريس في المقامة الوعدانية إلى السوق، فيبيّن لنا ما كان يحدث في الأسواق من خلال نقل ما كان يحدث في سوق الثلاثة من بيع للأغنام والأشياء، والذي يهتمنا هنا هو الوظيفة التواصلية للسوق باعتباره تجمهرا للناس، يمكن فيه تبليغ البلاغات عن طريق البراح، يقول " اخبرني محمد بن العربي قال كنت يوما بسوق الثلاثة، لافاضي مأرب العيالة، فبينما أدور بين غاش معرعر، وكثرة من الأكباش وتبعرر، إذ سمعت بزّاحا يقول، يا معشر الناس اسمعوا لما أقول، إن وعدة الزمالة، تكون يوم الخميس القابل بلا امتحالة. فهشر له سمعي..."⁴ ومن السوق ينقل لنا في المقامة الاخياخية عن عادات الجزائريين في يوم الحجوز(يناير)، ومن خلال النص تتبيّن لنا في محفل للطلبا أهم الفواكه والمكسرات التي كانت في متناول الجزائريين خلال بدايات الاحتلال، كما يبيّن لنا النصّ تقاليد الحجوز من خلال اجتماع الناس حول هذه الفواكه والمكسرات وإقامة الحفلة، يقول: "حدثنا امحمد بن العربي قال كنت حضرت جمع الطلبة، وهم في شريعتهم غربا، وكانت عشية ليلة الحجوز، وكانوا مدخرين لها مخلطا من بلوط ولوز، وقشرة وقاوقا وجوز، وهم معتكفون على كبش يشوى، وملفوف يلوى، ..." ⁵

أما في القمامة العسكرية فإنّه ينقل لنا جانبا من الحياة الدينية التي كان يعيشها المجتمع الجزائري وبخاصة أصحاب الطريقة الدرقاوية، فيه يظهر حقيقة الاحتفال التي كان يتعرّض له المجتمع الجزائري من طرف هؤلاء الشيوخ الانتهازين، يقول: "...فلمّا وصلنا إلى المكان المشار عليه، وأتينا المقصود إليه، وجدنا زاوية واسعة الأركان، عالية البنيان، ضاوية بنور الشمعدان، وفيها حلقة من الفقرا يركضون، كأنهم إلى نصب يوفضون، وفي وسطهم قشتيل، يهتّز كأنه برميل، ويرمي بشرر ثقيل، فقلت لمن خلفي سائل، من هو هذا الشيخ الكامل، فقال لي هذا شيخ أتى من المغرب الاقصى، وقد ظهر كريم قصّي، فقلت الله يبركنا بملقاه، وأن يجعلنا في حماه، ثمّ التزيت عند سارية، في ركنه من الزاوية، وقد بقوا على ذلك حيننا طويلا، وهم يهزّون هزّا وجيلا، إذ بالشيخ طاح مغشيا، وتبعته الحلقة بانقطاع الحسّ نفيسا، وبربروا الشيخ بدربال، وشرع كل واحد منهم مشغول البال، فمّنهم من يلّمّ عمامته على رأسه ومنهم من مسح عرقه من جبهته، ومنهم من يصعد إلى السما

¹ نفسه، ص: ١٧

² نفسه، ص: ٢٢

³ نفسه، ص: ٣٩

⁴ المصدر السابق، ص: ٤١.

⁵ نفسه، ص: ٤٥.

بانقاسه، ثم انهم بعد ذلك دفعوا الطعام، واجتمعت الامام، فلما شعبوا ورفعت الأيادي، وارتفعت الافارغ والاقادي، فرتشوا حول الشيخ المربر، حاكيا من صنعة الغرب منمر، وقام عند راسه أحد كآته خديمه، صفة أو تلميذه، وتحلل وقال هلموا أيها العباد، هذا سوق ما له نفاذ، فمن زين نيته، نور سريرته، ومن خاب ظنّه، ضيّع سعيه، وهذا شيخنا الكبير، خليفة السيّد الأمير، فمن تعلّق بأذياله، نال جميع تجاله، ومن أراد إصلاح أموره فليبادر بما في مكتوبه،...¹، إنّ النص وإن كان يظهر صورة سلبية للمجتمع الجزائري فهو يكشف أيضا طرق الذكر عند أصحاب الطريقة الصوفية في ذلك الوقت من شطح وإغماء ثم احتيال على الناس، لكن محمد إدريس لم يكتف بنقل المظاهر الاجتماعية فقط بل سجل لنا حتى الجانب اللساني لبعض مناطق الوطن من خلال نقله لنص في المقامة الندرومية، فيه يبرز أنّ أهل ندرومة ينطقون القاف كافا يقول: "...وإنّي لما دخلت لهذه البلاد، تساريتها بالتمهاد، وكسرت أذني لاستماع كلام أهلها، فوجدت نقطة القاف عندهم ممنوع منها، وأول ما شاهدته، وأغرب ما رأيت، أنّي مررت عن مسجد فسمعت طالبا يتلو القرآن، ويرتل بزعمه البيان، وهو يقول ((كال كاييل منهم لا تكتلوا يوسف والكوه إلخ)) ومراده ((قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه إلخ))..."²

ومن الجانب اللساني ينقلنا في المقامة التمتامية إلى مظاهر الصلح بين الجزائريين التي تنتهي عادة بحفلة تنحرف فيها المشية، ويحضرها الطلبة وتنتهي بتنازل المظلوم عن حقه بعد اعتذار الظالم والتنازل عن عجرفته، يقول: "... وأجلسني فرشه، وقبلني وجلس فقلت له يا ابن عيسى قبلتني سكت، وفعلت فعلتك التي فعلت، اعلم بأنّ سمع بك ويفعلك قبيح الفعل، يأخذك على التوال، وأن استخبر بك الشيخ، يشقّ كما يشقّ البطيخ، وان وصل خبرك إلى الشيخ ابلاحة، يعلقك مثل الملاحة، فحينئذ تنقّس الصعدا، وكاد يبكي ويبكي البعدا، وقال لي ما هو السلاك، وأي ملجا يجيرني من السلاك، فقلت له حرّض أمرك، وأفد نفسك، قال لي أن اتهم بعتروس كبير مثلي، ولحيته طويلة كلحي، وشحمه فايز كشحمي، فقلت له نعم، وضمف إليه سويق القمح والسمن ما يتم، وبشرط أن تأتي به إلى الشريعة، وتوقفه قبال الطلبة، وتساميه وتبلبل، وتدرق برجلك وتهلّل، وتطلب السماح وتعلل، وقال لي السمع والطاعة، ولا بدّ من هذه العبارة، فقلت له فاعزم لثلا يرتاب المبتلون، ويظنوا بك بالظنون، فقمنا وانطلق إلى الغابة، ورجعت في حالي إلى الشريعة، فما لبث إلى ان جا بعتروس كبير القامة كقامته، مهدهد الشعر وطويل اللحية كلحيته، فقرب إلى أن وصل للشريعة، ووقف أمام الطلبة، وقبض لحية عتروسه وبلبل، وركض برجليه وهلّل، وطلب السماحة وعلّل، فقمت وأخبرت الطلبة بما وقع، لمنفعتهم اندفع، فاتّفقوا واصطلحوا بينهم، ورفضوا ما صدر منه ومنهم، ثم إنهم دبحوا العتروس، واستراحوا النفوس..."³ هكذا يصوّر محمد إدريس حال الجزائري لما يخطئ في حق غير، فيتنازل لصالح المظلوم عن جبروته طالبا المسامحة، مقدّما قربانا ثمينا لإظهار الرغبة في الصلح، غير أنّ هناك نصا آخر في المقامة الكرموسية يبيّن فيه قسوة القضاء وكيف كان يستغل القاضي الدين لتنفيذ العقوبات وتغريم الناس: يقول "...ووجد كلا منهما استوجب التأذيب أمّا السيد الحبيب المذكور إنّّه تطبّع بالطبّع القبيح وكسران الوقر على همته وذلك لا يسوغ له وأمّا السيد ابلاحة فإنّه خشية أن يتّصف بالبخل أمر على كلا منهما أمّا السيّد الحبيب بن عيسى يجلد على بطنه بمشحاط زيتون غلظه كالخنصر وطوله شبران ومفصلان ويجلد من يد طالب يكون سنّه أكثر من إحدى وعشرين سنة بعدد ما مضت من الأيام من السنة العجمية من يوم التاريخ والضرب يكون متوسطا على بطنه مرتفقا وذلك أن يرفع المشحاط بينه وبين بطنه قدر دراعين مالكية، فقط ثمّ ينزل عليه بخمّة متوسطة وأمّا السيّد بلاحة المذكور فإنّه ملتزم بخطية وهي زردة للطلبا كالعرب والعادة حكما تاما لازما ما أشهد به وأمضاه وأمر الحكم بمقتضاه

¹ المصدر السابق، ص: ٤٩-٥٠.

² نفسه، ص: ٥٧.

³ المصدر السابق، ص: ٣٣.

وأمر جميع الولايات المتصرفين بتنفيذ هذا الحكم بتاريخ ٢٣ من شوال عام ١٣٠٠ موافقا ٣ جوليت سنة ١٨٨٨ وكتبه عبد ربه أحمد بالهاشمي بالشيخ* وعبد ربه أبو القاسم بن اممر صح ما فيه وبه عبد ربه محمد قبيح الفعل أغناه الله ولطف به أمين...^١

إنّ ما يمكن قوله هو أنّ المقامات العلوانية قدّمت معرفة بالمجتمع الجزائري بخاصة في علاقاته بالسلطة الدينية، وهي صورة سلبية تقوم على الاستغلال والافتراء على الدّين في عمومها، وتبقى مثل هذه النصوص وثائق يستعان بها في دراسة حال المجتمع الجزائري قبل غيرها من الوثائق الاستعمارية، بحكم مخالطة أصحابها عمق المجتمع الجزائري.

قائمة المصادر والمراجع:

- ١ - بوريس إيخناوم : نظرية المنهج الشكلي / نظرية المنهج الشكلي (نصوص الشكلانيين الروس) ترجمة إبراهيم الخطيب د.ط: الشركة المغربية للناشرين المتحدّين.
- ٢ - حسين محمد فهميم، أدب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة، العدد ١٣٨، ١٩٨٩، وزارة الثقافة (الكويت).
- ٣ - محمد بوطوقة، الأدب الإثنوغرافي في الجزائر المستعمرة، موقع أرنتروبوس.
- ٤ - محمد إدريس: المقامات العلوانية، مركز البحث في الأنثروبولوجية الاجتماعية والثقافية، مطبعة (أ ج بي) وهران، ٢٠٠٧.
- ٥ - المقدسي المعروف بالبشاري، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة بريل، ليدن (هولندا)، ط٢، ١٩٠٦، المقدمة.
- ٦ - عمر أوكان: لذة النص أو مغامرة الكتابة لدى بارث. د.ط: إفريقيا الشرق (الدار البيضاء ط١١٩٩١).
- 7- Théorie de la littérature (texte des formalistes russes).réunis présenté et traduits par Tzvetan Todorov . Seuil (1965).B.Eikhenbaum (La théorie de la méthode formelle).

^١ المصدر السابق، ص: ٢٥.



جميع الحقوق محفوظة

لمركز جيل البحث العلمي © 2016

ISSN 2311-5181